رحالة أوربيون في الحجاز

أغطس دالي

ترجمة
بطرس رزق الله




رحّالة أوروبيون في الحجاز

1

رحّالة أوروبيون في الحجاز

بقلم
أُغسطس رالي

ترجمة
بطرس رزق الله

مراجعة وتقديم
ماجد شبّر

طبعة منقّحة ومفهرسة

* اسم الكتاب: رحّالة أوروبيون في الحجاز.

Christian at Mecca
Augusts Rally
London - 1908

* المؤلف: أغسطس رالي.
* ترجمة: بطرس رزق الله.
* مراجعة وتقديم: ماجد شبّر.
* الطبعة الثالثة لشركة دار الوراق للنشر المحدودة: **2015** .
* جميع الحقوق محفوظة لشركة دار الوراق للنشر المحدودة.
* تصميم الغلاف: الورّاق للنشر.
* صورة الغلاف: من رسوم برتون.
* الناشر: شركة دار الوراق للنشر المحدودة.

WWW.alwarrakbooks.com
ISBN: 978 - 9933 - 521 - 22 - 6

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون: 0096447702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق للنشر
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني
طابق سفلي
تلفون: 009611341927
فاكس: 009611750053

الفهرس

رحّالة أوروبيون في الحجاز

الرحالة الأوروبيون الذين زاروا الحجاز

مقدمة الناشر العربي

تشكل الرحلات أحد مصادر دراسة التاريخ الحديث في الوطن العربي بشكل عام والجزيرة العربية بشكل خاص، حيث قام الرحالة الأجانب بتوثيق أحداث تاريخية وتسجيل معلومات عن مناطق الجزيرة العربية وسكانها. وهناك قسم من الرحالة رسموا رسوماً لمواقع ومدن ولشخوص مختلفة ساعدتنا على التعرف على مواقع وآثار وملابس وأزياء سكان تلك المناطق والقاطنين والزائرين، ومثال على هؤلاء الرحالة برتن حيث أعطتنا لوحاته صورة بصرية عن أزياء وشخصوص ومدن وصحارى، وقد قامت الدار بنشرها تحت عنوان (الديار المقدسة قبل قرنين) بعدسة برتن من إعداد الأستاذ ماجد شبر، وقد قام قسم آخر من الرحالة بتصوير أماكن مهمة كمكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وكانت القيمة التاريخية التوثيقية للصور كبيرة جداً، وخصوصاً صور كريستيان سنوك هورغرونييه الذي يعد ألبومه عن مكة من أهم الصور لِقدمها حيث يعود تاريخها إلى عام 1880 ميلادي وتحتفظ الدار بنسخة كاملة من الألبوم المصور.

إنَّ هذا الكتاب الذي بين يديك يسلط الضوء على تاريخ كلّ

الرحالة الستة عشر من جوانب عديدة من أي بلد جاء ولماذا كان اهتمامه بالشرق عموماً والعرب خصوصاً بل يتعدى هذا الأمر ويتحدث عن مغامرات هؤلاء الرحالة في أصقاع الجزيرة العربية. ومن ثمّ يدخل في صميم الرحلة لكلّ الرحالة الستة عشر من الذين زاروا الحجاز ابتداءً من عام 1503م ـ 909هـ ـ لغاية عام 1894م ـ 1311هـ

لقد حرصت الدار على ترجمة هذا الكتاب كي تعطي فكرة عامة للقراء العرب حول نظرة الأوروبيين لفريضة الحج وحال العرب في القرون الماضية، خصوصاً ما حيك حول هذه الفريضة من قصص وحكايات خيالية، وكذلك ترفدنا هذه الرحلات بوصف أماكن عديدة في الحجاز منها:

ميناء ينبع ومدينة جدّة والمدينة المنورة والطائف وبعض القرى ومناطق عديدة في الصحراء العربية.

قد يجد قسم من المسلمين أن لغة الكتاب متحيزة وعدائية بدرجة قد تمسّ شعوره الديني (وناقل الكفر ليس بكافر) لذا نحن غير مسؤولين عما ورد في النصّ من أسلوب ولغة الكتاب.

لقد وضعنا بعض الإيضاحات داخل قوسين معقوفين [] أو، ( ) تمييزاً عن النصّ الأصلي.

ماجد شبّر

مقدمة ــ أُغسطس رالي

هدفي في الصفحات التالية أن أعطي سرداً قصصياً لمغامرات كلّ حاج، وملخصاً لملاحظاته عن الناس في مكة ووضع المدينة المنوّرة. وهذه الأشياء تتغير من عصر لآخر، لكن ما لا يتغير هو طقوس الحج ومظهر المسجد الحرام. لذلك بعد أنْ وصفت هذه الأشياء في الفصول الافتتاحية، حذفتُ في حالة كلّ مسافر منفرد كلَّ شيء ما عدا التجارب الشخصية المميزة.

مكة (المكرمة)

Mecca

من الممتع أن نعلم كم كان التلميذ ماكولي على معرفة بمكة. ويبدو أن كونها مركز العقيدة الإسلامية وهدف الحج يغني المعرفة العامة. عبّرتُ مرة لأحد أصدقائي عن رأيي في أن زيارةً لمكة قد تكون ذات متعة لا مثيل لها. وفي رده على ذلك نصحني ألا أفعل ذلك في أيام الحج. وعندما أجبته أنه لا يمكن لمسيحي أن تقع عيناه على مدينة الإسلام المقدسة ويبقى حياً، سألني مندهشاً عما إذا كان المنع سارياً حتّى على الرحلات السريعة.

ولد محمّد في مكة حوالي العام الميلادي 750. وفي سنّ الأربعين أصبح واعياً لرسالته الدينية. وكانت الإصلاحات التي تقدّم بها لا تسرّ القبيلة الحاكمة قريش. فهاجر إلى المدينة لأنه سيُحاكم، وستكون حياته في خطر. ومنذ سنة هجرته ـ 622م ـ بدأ التأريخ بالتقويم الهجري في العصر الإسلامي. ولما استقبله أهل المدينة استقبالاً حسناً وتحلّق حوله أصدقاؤه، شرع في نشر عقيدته بالسيف. وفي عام 629م عاد منتصراً إلى مسقط رأسه. وشهدت تلك السنة تشريعاً يقضي ألا تطأ قدم إنسان غير مؤمن [مسلم] تراب مكة.

وإذا استثنينا قصة الإنكليزي الذي اكتشفته السلطات واعتبرته مجرد أحمق، فإنه لم يحدث أن كان لأي مخالفة لهذا القانون ـ لدى الكشف عنها ـ سوى العواقب المأساوية. يخبرنا دوتي بموجب شهادة جنديين من موكب حج دمشق أنه لم يحدث أن مرّ موسم حج من دون إعدام بعض الأشخاص لأنّهم كانوا مسيحيين دخلوا بصورة غير قانونية. رأى هذان الجنديان مؤخراً غريبين اعتقلا في منى بعد أنْ اكتشفا وهما يكتبان مذكرات في دفاتر جيب. ولدى الفحص تبين أنّهما مسيحيان، وتم إعدامهما. لكن كان لهذا المنع بكلّ المخاطر المرافقة له فعل المغناطيس الجاذب للنفوس التي تهوى المغامرة. من الممكن تجميع بعض الأمثلة عبر القرون عن أوروبيين غير هيابين، حملوا أرواحهم على أكفهم وتنكروا بثياب مسلمين وتعرفوا على العادات والتقاليد الإسلامية وتغلبوا على صعوبات اللغة والطقوس، وذهبوا مع مرافقين غرباء وتحملوا الصعوبات في رحلات بحرية أو برية في مناخات شديدة القيظ، عادوا غير خائفين ومعهم معرفتهم التي أحضروها بصعوبة شديدة من عرين الإسلام.

تقع الحجاز أو الأراضي المقدسة في القسم الأوسط من الجزيرة المعرّفة باسم الصحراء العربية Arabi Deserta. وتقع مكة في واد صحراوي متعرّج [غير ذي زرع] بطول ميل ونصف وبعرض ثلث ميل، وهي محاطة بسلسلة من القمم الجبلية الصخرية الحادة نادرة الأمطار. موقعها منعزل جداً بحيث إنَّ المسافر لا يعرف أنه وصل إليها حتّى تطأ قدماه أرض شوارعها. والبيوت مبنية في معظمها من الحجارة بارتفاع بضعة طوابق. يعبر الشارع الرئيس طول المدينة من طرف إلى طرف. ومعظم الشوارع الأصغر تلتقي به. في الوسط، وهو

القسم الأكثر عرضاً وانخفاضاً من الوادي، ينتصب المسجد العظيم. والبيوت ترتفع في طبقات حوله من جميع الجهات ـ وهو الواقع في أسفل الوادي غير العميق ـ حتّى تتبعثر على الجوانب أكتاف الجبال. وهذا الموقع يجعل مكة الوعاء الذي يحتوي الأمطار الغزيرة التي تدمّرها في بعض الأحيان. والسيول التي تهبط عن الجبال تتحد في سيل جارف يندفع بقوة عبر المدينة فيهدم بعض المنازل. ولهذا السبب ليس هناك من مبنى يعود تاريخه لأكثر من أربعة قرون. وفي أحيان أخرى يكون المناخ جافاً جداً بحيث إنَّ الخبز الذي يترك دون غطاء على أحد الرفوف لبضع ساعات، يبدو كأنه تعرض للخَبْز مرة أخرى، وتسمع له رنة كالمعدن لقساوته ـ بحسب شهادة أحد الحجاج.

تعتمد مكة اعتماداً كلياً على البلدان الأجنبية للحصول على المؤن الغذائية. ولأنها أرض قاحلة فإن الحاجات اليومية، مثل الأرز والدقيق، كلها تُستورد. ولولا الحج كانت اختفت من الوجود. يعيش سكانها بحالة دائمة من ضعف المعنويات كالتي يشعر بها أصحاب الفنادق والمحلات التجارية في منتجعات القمار الأوروبية. أفقدتهم الحاجة لتأمين الطعام وأماكن الإقامة للآلاف من الغرباء الذين يمكن إغراؤهم بسبب جهلهم للبلاد، حسهم الأخلاقي. وترتفع أسعار المواد التموينية كارتفاع أسعار أيام المجاعة.

يؤجر أصحاب البيوت الغرف بأرباح باهظة: فهم يتقاضون عن أيام الحج القليلة ما يكفيهم لدفع أجرة البيت عن السنة كلها. ويكسب شباب مكة الأغنياء المال من فرصة اصطياد حاج غني وسلبه. ويتبارى

خدم المسجد ومرشدو المراسم والمتسولون الكثيرون فيما بينهم لاقتناص الناس السذّج والمؤمنين بالخرافات.

يبعد مرفأ جدّة على البحر الأحمر عن مكة مسافة 45 ميلاً. وفي جدّة يتواجد القناصل الأوروبيون، لكن يمكن أن يتغاضى العربي دون رضا عن وجود غير المؤمن: إذ بعد موته لا يجوز لعظامه أن تستريح في البلاد المقدسة، بل تدفن على واحدة من جزر هذا المرفأ. يحيط بجدة سور، وفي الأيام الغابرة كان الأوروبي إذا اجتاز البوابة الشرقية أو بوابة مكة، فكان يطلب إليه ترك دينه. وكان من يرفضون ذلك يعلقون في كلابات في الجدار ـ ولا تزال الثقوب موجودة حتّى الآن. وفي وقت متأخر حتّى 1829م اجتاز موظف إنكليزي هذه البوابة فسَلخَ البدوُ جلدَه.

المسجد الكبير «الحرم المكي»

The Great Mosque

يدعى المسجد الكبير أيضاً «بيت الله» أو «الحرم» (الذي لا يمكن أن تنتهك حرمته). وبحسب الحكايات العربية المتناقلة، يقع هذا المسجد في مركز العالم، والأرض في فنائه جزء من الجنة على الأرض، وستعود إلى الجنة في اليوم الأخير. يتألف المسجد من باحة واسعة مكشوفة بمساحة ثمانية فدادين وربع. والباحة محاطة بصف رباعي من الأعمدة الأنيقة متحدة في أقواس مدببة، مثل الأروقة ذات الأعمدة منبسطة السطح تعلوها قباب بيضاء. تشكل البيوت الجدران الخارجية للأروقة، وهي ذات جمال متميز جذاب، لا يمكن إلا للحجاج الموسرين الوصول إليها للإقامة في واحد منها على فناء المعبد. للمسجد سبع مآذن وسبع عشرة بوابة. ولهذه الأخيرة أقواس أو تقسيمات ليس لها أبواب، بحيث يمكن الوصول إليها في أي وقت من الليل أو النهار.

في وسط الساحة تقريباً وفي مكان منحدر، تنتصب الكعبة الشهيرة. وفي حين أنَّ الرواق ذا الأعمدة من تاريخ قريب نسبياً، إذ تمت إضافته من قبل الخليفة عمر ـ واحد من خلفاء الرسول المباشرين ـ

فإن الكعبة واحد من معابد العرب الوثنيين القديمة. وقد ضاع أصلها في ظلمات عصور ما قبل التاريخ. جاء في التقاليد التوحيدية الإسلامية المعدّلة أن آدم بناها، وخربها الفيضان، وأعاد إبراهيم وإسماعيل بناءها ثمّ تحوّلت إلى عبادة الأوثان مؤقتاً. ويعود المبنى الحالي إلى أواسط القرن السابع عشر، وجرت إعادة بنائه بسبب الدمار الحاصل من الأمطار الغزيرة.

والكعبة مبنى ضخم مكعب الشكل ومنبسط السطح، أبعاده 38 X 30 قدماً ويبلغ ارتفاعه 40 قدماً. وهي مبنية من حجارة رمادية اللون. لكنّها مغطاة بغطاء أسود مصنوع من الحرير والصوف عليه كتابة من القرآن الكريم مشغولة في شريط فضي. هذا الغطاء هو السجادة المقدسة ـ الهدية السنوية من سلطان تركيا (الخليفة العثماني) [كساء الكعبة]. بعد أنْ أصبحت تتوارث صنعها في القاهرة عائلة من جيل إلى جيل، كانت ومازالت ترسل إلى مكة في زمن الحج مع القافلة المصرية. وعندئذ يزال الغطاء القديم [كساء الكعبة] ويقسّم ويباع بأسعار عالية للحجاج. كانت السترة منه تجعل مرتديها محصّناً ضدّ الأخطار، وكان شريط متطاول منها يشكل علامة مفضلة لصفحات القرآن. ليس للكعبة نوافذ لكن فيها باب واحد يرتفع سبعة أقدام عن الأرض مغطى بصفائح من فضة. يُسمح بدخوله ثلاث مرات في السنة، والرسوم التي يتمّ تقاضيها من الحجاج باهظة جداً. يتمّ الدخول بدرج يتحرك على عجلات إلى الباب. والسقف المنبسط والجدران الرخامية من الداخل مغطاة بالديباج عليه أزهار من الذهب، مرفوع حوالى ستة أقدام عن الأرض. والأرضية أيضاً من الرخام. هناك ثلاثة أعمدة مغطاة بالخشب المحفور تدعم السقف. وهي مدعّمة بعتبات معترضة تتدلى منها مصابيح

ذهبية. لا يدخل إلى الأكثر قدسية [الكعبة] إلا قليل من الحجاج. إضافة إلى الكلفة الباهظة، هناك تنظيمات صارمة تتحكم بحياتهم منذ ذلك الحين. بالإضافة إلى الأشياء الأخرى، لا يحقّ لهم بعد ذلك أن يسيروا حفاة أو أن يمسكوا النار بأصابعهم أو أن يكذبوا. وبحسب قول برتون «إن معظم الناس ذوي الضمائر الحية، غير قادرين على تحمل ترف الأحذية الخفيفة وقول الحقيقة».

في داخل الكعبة، هناك الحجر الأسود غائر في واحدة من زوايا الجدار الحادة، يبدو للعين من فتحة في القماش. يقال إن الملاك جبريل قد أعطاه لإبراهيم لكنه في الحقيقة أكثر الأصنام تبجيلاً من بين 360 صنماً كانت تتم عبادتها سابقاً في الكعبة. وهو موجود في مكان عميق في حلية معمارية فضية ناتئة، بحيث يكون وجه الحاج الذي يقبَله مختبئاً. أصاب الحتّ والتآكل وجه الحجر الأسود الخشن من القبلات واللمسات. والكُلّ يُجمعون (غير المسلمين) أنه من طبيعة بركانية.

حول الكعبة مباشرةً هناك فناء بيضاوي مبلط بالرخام وقد لمّعته أقدام المؤمنين، وتحيط به أعمدة أنيقة من البرونز، بينها سلاسل تتدلى منها صفوف من مصابيح زجاجية. خلف هذا الفناء وعلى ارتفاع بضعة بوصات، هناك عدة مبان صغيرة حول الكعبة. وأكثرها تميزاً مبنى بئر زمزم: وهو ـ بحسب العقيدة الإسلامية ـ البئر ذاته الذي ظهر لهاجر في البرية. يتألف المبنى من حجرتين، في إحداهما فوهة البئر، وفي الأخرى الأواني التي يوزع فيها الماء. وتعلوها قبة بيضاء. هناك جدول صغير تحت الأرض يوفر الماء بقدر كبير بحيثُ إنَّ، بالرغم من الطلب الدائم عليه أثناء الحج، فإن مستوى الماء لا ينخفض. وبالرغم من كلّ

ما يرافقه من قداسة، فإن الغرباء لا يشربون من ماء زمزم دون أن يبدو على وجوههم الاشمئزاز، كما أنَّ الماء غالباً ما يسبب ظهور بثور على الجسم.

من الأبنية الأخرى قبرا هاجر وإسماعيل، وفي أحدهما يُحفظ الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عندما بنى الكعبة، والمنبر والسرادقات الأربعة الخاصة بالمذاهب الإسلامية التقليدية. وهناك قوس يدعى قوس الخلاص [النجاة] الذي يعبر منه الحجاج في زيارتهم الأولى للكعبة. وراء هذه الدائرة، وعلى ارتفاع بضعة بوصات أيضاً، هناك ممرات حجرية تؤدي إلى الأروقة ذات الأعمدة عبر الساحة المفروشة بالحصى. وبلاط هذه الساحات أيضاً على مستوى أكثر انخفاضاً من الشارع ببضع بوصات. من هنا نفهم أنَّ المنخفض الذي تنتصب فيه الكعبة هو النقطة الأكثر انخفاضاً في وادي مكة.

الكعبة أكثر الأشياء قدسية في الإسلام وهي هدف الحج وموجودة دائماً في فكر المؤمن ذي الإيمان الصادق. تتوجه نحوها ـ خمس مرات يومياً في ساعات الصلاة من جميع أنحاء المعمورة في البلدان ما بين طنجة واليابان وبين تومبوكتو وسمرقند ـ عيون مئة وثمانين مليون إنسان يتبعون العقيدة الإسلامية.

فريضة الحج

The Pilgrimage

كان الحج عرفاً من أعر ـ العرب الوثنيين قبل محمّد بزمن طويل. وكانت الأصنام هي التي يعبدونها داخل الكعبة. وكانت مكة تدين بازدهارها التجاري إلى المعرض السنوي الذي كان يعقد أثناء الاحتفالات الدينية. وكان السبب الرئيس الذي عارضت فيه قريش مبادئ محمّد التوحيدية تتمثل في الخوف في أن يتوقف الحج بجميع فوائده المادية. لكن محمّداً كان خبيراً خبرة عميقة بالطبيعة الإنسانية التي تمنعه من القيام باجتثاث العادات القديمة (فريضة إسلامية). دمّرَ الأصنام لكنه حافظ على الحج، والفرق أنه طور طقوسه الوثنية لتتماشى مع التفاسير الدينية (ألغى الإسلام كل الطقوس والعادات الجاهلية).

كانت الشعائر الإسلامية الأساسية الصلاة والصيام والزكاة. وأضاف النبي إلى هذه شعيرة رابعة (الحج) (والجهاد) ومن شروط الحج أن على من يملكون الوسيلة والوقت الكافي أن يزوروا مقامهم الديني هذا مرة في حياتهم ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. في أيام عبادة الأصنام كان الحج يتمّ في تاريخ محدد في الخريف. لكن محمّداً أصدر

حكماً (بل تشريع إلهي) أنَّ السنة يجب أن تتألف من اثني عشر شهراً قمرياً. لذلك كان وقت الحج يتقدم ثلاثة عشر يوماً كلّ سنة. وفي مدى ثلاثة وثلاثين عاماً كان الحج يشمل جميع الفصول.

كانت المراسم الحقيقية لا تشغل إلا أوّل اثني عشر يوماً من الشهر الأخير من السنة الإسلامية (وهو ذو الحجة). كان الموكب السوري الأكثر أهمية من بين المواكب الكبيرة البرية التي تتوجه نحو مكة. كان هذا الموكب يجمع الحجيج في طريقه إلى دمشق بدءاً من القسطنطينية، ومن هناك ينطلق في رحلة تستغرق ثلاثين يوماً عبر الصحراء إلى المدينة برفقة باشا دمشق وقوات مسلّحة للحماية من القبائل البدوية. في أيام بوركهارت، كان الحجاج ـ بمن فيهم الجنود والخدم ـ يعدّون بمجملهم 5000 والجمال ثلاثة أضعاف هذا العدد ـ فقد كانت هناك جمال للركوب تحمل الماء والمؤن، وكانت هناك حاجة لضعف تلك الكمية بحيث كان نصفها يودع في أبراج محصنة على الطريق من أجل رحلة العودة، ومزيد من الجمال للاستعاضة عن تلك التي قد تموت. وكان البدو الذين يتمّ الاتّفاق معهم للنقل حريصين على ألا يرهقوا حيواناتهم بالأحمال. ويعقد الحاج المنتظر اتّفاقاً مع موظف يدعى المقوّم الذي يقدم الجمال والطعام. . . الخ. ويقوم بأعمال الحزم والتحميل لقاء مبلغ متفق عليه. وكان وقت الانطلاق بين الساعة الثالثة صباحاً وبعد شروق الشمس بساعة. وفي الليل تتحرك الصفوف التي لا تنتهي فوق الرمال على أنوار المشاعل. أو كما حدث عندما ركب دوتي مع موكبه «كانت تُحمل مشاعل في أقفاص حديدية موضوعة على سواري من خشب فوق أكتاف الخدم في جميع القوافل لتنير الطريق».

كان يتقدم كلّ واحدة من القافلتين السورية والمصرية جملُ المحمل (Mahmil) يحمل هودجاً مزيناً يحوي سورة من القرآن الكريم. كما كانت القافلة المصرية تحمل كساء الكعبة الجديد. وطريقها الحالية بالقطار تكون إلى السويس ومن هناك بالباخرة إلى جدّة. سابقاً كانت تعبر شبه جزيرة سيناء ومن هناك تتبع الطريق المحاذية لساحل البحر الأحمر. وهناك أيضاً موكب الحج الفارسي من بغداد والمغرب عن طريق تونس وطرابلس والقاهرة، ومواكب من البصرة ومسقط ومن اليمن وحضرموت في جنوب الجزيرة العربية. يتألف موكب نجد من الوهابيين غير التقليديين وموكب حائل من البدو والكلدانيين(*)؛ من خليط من العرب والفرس. وكان الهنود الذين يصلون اليمن بحراً ينضمون إلى الموكب أو يبحرون مع الرياح التجارية إلى جدّة.

محطة سكة حديد الحجاز ستعدل ظروف السفر هذه على نحو كبير. ينظر إليها البدو بكراهية لأنّهم هم الذين يقدمون الجمال للنقل أو يتلقون إعانات مالية من الحكومتين التركية والمصرية للسماح للمواكب بالمرور في أراضيهم دون تحرش. إضافة إلى العرب والأتراك والفرس والسوريين والمصريين. . . الخ

يضمّ الإسلام مسلمين هنوداً ومالاويين وجاويين وزنوجاً وآذاريين وتتار وبخاريين وصينيين. وقبل الحج بأسابيع أو أشهر تأتي السفن من مرافئ بعيدة. وكانت البحار التي لا تعبرها سفينة تحمل «المؤمنين الحقيقيين» نادرة جداً. ومع وصول المواكب كانت أعداد الحجاج

(*) الكلدانيون يقصد بهم العراقيين حيث يطلق الأوروبيون اسم بلاد كلدان على أرض العراق أي اسم سكان العراق القدماء (الناشر).

تتوافد إلى جدّة يوماً بعد يوم. كانت ظروف النقل البحري حتّى السنوات الأخيرة عاراً على الإنسانية. والآن يتمّ اتّخاذ إجراءات حكومية ضدّ نقل أعداد زائدة من الركاب في المراكب بسبب جشع أصحاب السفن.

في السابق كانت مبالغ كبيرة من المال تتفق على إعادة الذين يحاولون القيام بالرحلة من دون أن يتوفر معهم المال الكافي إلى بلدانهم. على المسلم أثناء الحج أن يمارس الإحسان والتصدق. لذلك ينطلق الحاج الفقير زاعماً أنه سيتمكن من التسوّل للحصول على كلفة رحلته. وقد كانت الحكومة الفرنسية نشيطة على نحو خاص في مكافحة ذلك. كان على رعاياها الجزائريين أن يثبتوا أن بحوزتهم 1000 فرنك قبل السماح لهم بالانطلاق في الرحلة.

ويتمثل مجال آخر من نشاطات الحكومة في منع الكوليرا. يصل الحجاج إلى الحجاز وقد أضعفتهم الصعوبات التي عانوها في الرحلة الطويلة ويصبحون عرضة للإصابة بالأمراض بصورة خاصة. وعندما يغادرون مكة، يذهبون إلى جميع أنحاء العالم ينشرون المرض في طريقهم. وقد وصل عدد ضحايا الجائحة التي انتشرت عام 1865 إلى 6000 ضحية في مصر وحدها. حمل الحجاج العائدون المرض حتّى نيويورك وغوادلوب، ولم تتم السيطرة حتّى 1870. وفي عام 1893 ظهر في شوارع مكة مظهر مخيف. كان الأشخاص الذين يسيرون فيها ينظرون إلى الأمام مباشرةً ليتجنبوا مشاهدة أكوام من الجثث في اليمين واليسار. وهرب غالبية الحجاج إلى جدّة. مات الكثيرون في الصحراء وأصيب آخرون في المرض عند بلوغهم المرفأ. كانوا يجمعّون في أكواخ، وكان الطعام والماء يمنع عن الذين نفدت أموالهم، لكن القلة الذين كان لا يزال لديهم بعض المال كانوا يُستغلون من قبل مرشديهم.

ولما كان من الممكن أن يصبح الحج خطراً على العالم، كانت السلطات الأوروبية ذات الرعايا المسلمين ـ والتي أدركت أنها لا تستطيع منع الحج ـ تحاول تنظيمه على الأقل. فقد تحسنت ظروف النقل البحري وظهرت إلى الوجود قوانين الحجْر الصارمة عبر وكالاتها. وقد كان الحجر في طور (في سيناء) (Tor) للحجاج المصريين هو الأفضل من نوعه في العالم من حيث التجهيز. وبالرغم من هذا انتشرت في عام 1902 جائحة من جرار من ماء زمزم جلبتها معها إحدى النساء العربيات.

واجب الحاج الأوّل ـ وهو على مسافة معينة من مكة ـ أن يخلع عنه ثيابه ويرتدي «الإحرام» أو ثوب الحج. وهذا يتألف من قطعتين من قماش: القطن الأبيض أو الكتان أو أي قماش غير مزخرف ومن دون درزات (جيوب). عُرف عن الحجاج الأغنياء ارتداؤهم شالات من الكشمير أزيلت منها الحواشي. يُرتدى واحد حول الجسم والآخر فوق الكتف الأيسر وتحت الذراع اليمنى. الرأس عار (مكشوف) لكن ليس من الممنوع استعمال المظلة للحماية من الشمس. ويمكن استعمال الأحذية المفتوحة (الصنادل) أو الأحذية المفتوحة التي لا تغطي مشط القدم. يلتزم من يرتدي الإحرام ألا يحلق رأسه وألا يتعارك مع أحد وأن يمتنع عن الشهوات الحسية وألا يقتل شيئاً ـ حتّى ولو كان حشرة. ارتداء هذا الثوب إلزامي على كلّ من يدخل مكة سواءً أكان ذلك وقت الحج أو في غيرها ومهما كانت الغاية من دخولها. وحتّى سكان المدينة المقدسة الذين غابوا عنها مدّة أربعين يوماً يجب أن يتقيدوا بهذه الشروط، وعند الإخلال بها يتمّ شراء خروف والتضحية به.

عند الوصول إلى مكة يتوجب على الحاج أن يختار دليله (متوّج «مطوف»). يرشده هذا الموظف في أمور الصلاة والسجود ويؤمّن له إقامته وطعامه. وفي الحال يتوجه الحاج إلى المسجد الذي يدخله من بوابة الخلاص في الجانب الشرقي. وبعد عبور الفناء من الممر الحجري والمرور تحت قوس النجاة (باب النجاة)، يجد الحاج نفسه في الباحة البيضاوية تحت ظلّ الكعبة. وبعدها يقوم بمراسم السير حول الكعبة سبع مرات (الطواف). وبعد الطواف يقبّل الحجر الأسود، ويشرب من ماء زمزم ويأخذ حماماً فتتلاشى عنه الذنوب مثل الغبار. ويلي ذلك السعي وهذا يعني الركض سبع مرات من طرف شارع إلى الطرف الآخر، بين تلال صفا المقدسة ومروة، إحياء لذكرى بحث هاجر المضني عن الماء.

والحدث الرئيس في الحج هو الوقوف على عرفات. والحجاج الذين يحضرون هذه الوقفة يصبح لهم الحقّ أن يتخذوا لقب «الحاج» الذي يتلهفون للحصول عليه. يقع جبل عرفات على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشرق من مكة على طريق الطائف. وهو تلة غرانيتية وعرة ترتفع إلى حوالي مئتي قدم ويقع على سفح تلة أكثر ارتفاعاً.

هناك درجات محفورة على أحد الجانبين إلى القمة محاطة بسور. وكلمة عرفات تعني «التعرّف». تقول الحكاية إن آدم التقى حواء هنا وتعرّف أحدهما على الآخر بعد مئة سنة من الانفصال والتجول بعد طردهما من الجنة. في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة هناك خروج عام من مكة. يُقضى الليل في سهل عرفات. وفي اليوم التالي ـ عند الثالثة صباحاً ـ تفكّ الخيام وتحمّل على الجمال ويتجمع الحشد الكبير حول الجبل. وعند القمة إمامٌ يركب جملاً : هكذا كان محمّد يخاطب أتباعه.

تستمر الخطبة حتّى مغيب الشمس. وبنهايتها تبدأ اللحظة الأكثر صعوبة في الحج. يجري اندفاع نحو الوادي الذي يؤدي إلى قرية المزدلفة. وهذا واحد من أكثر المشاهد تشويشاً. لقد سُحق الكثيرون حتّى الموت عندما كانت السيول البشرية تندفع من السهل وتتدفق نحو الممر الضيق.

ينام الحجاج تلك الليلة في مزدلفة، حيث يجمعون عدداً من الحصى الصغيرة التي يربطونها في الإحرام. تقع منى ـ مقصدهم في اليوم التالي ـ في منتصف الطريق بيَن مكة وعرفات في واد وعر يتكون من طريق واحد طويل جداً. على أحد جانبيه يمتد سور فيه على مسافات ثلاث دعامات تسمَّى «أعمدة الشيطان». (رمي الجمرات) هنا ظهر الشيطان لإبراهيم الذي ردّه على أعقابه بالحجارة بناءً على اقتراح الملاك جبريل. وفي كلّ من أيام 10 و 11 و 12 من ذي الحجة التي أمضاها الحجاج في منى يرمون سبعة حجارة على كلّ من هذه الأعمدة الثلاثة. ولم يكن القناع التوراتي للحج على معالمه الوثنية بمثل هذا الضعف كما هو في هذا الطقس. أو يظهر أنَّ العادة كامنة عند جميع الناس، وهي ناشئة من غريزة المقامرة. فعندما كان روسو في حالة شكّ روحية، أخذ يرمي الحجارة على ساق شجرة وكان يتألق بالأمل بدخول الجنة أو الخوف من الجحيم طبقاً لإصابته الهدف أو عدم إصابته.

وفي منى أيضاً كان إبراهيم على وشكّ التضحية بإسماعيل وليس إسحاق. ولتخليد هذه الذكرى يلي رميَ الشيطان (الجمرات) بالحجارة ذبحُ خروف. ويؤتى بالأضاحي لهذا الغرض من وسط الجزيرة العربية أو من اليمن. يشتري الحاج واحداً مقابل بضعة دولارات ويدير وجهه نحو الكعبة ويقطع رقبته. عندئذ يصبح من المسموح خلع الإحرام وحلق الرأس. هناك كثير من الحلاقين في منى لهذا الغرض.

بعد العودة من منى يحين الوقت المناسب لدخول الكعبة. عندئذٍ تكون الكعبة قد زينت بغطائها الجديد. والطقس الأخير «العُمرة» أو الحج الصغير: هو زيارة إلى مسجد يبعد حوالى ثلاثة أميال عن المدينة.

بالرغم من أن فصل الحج يدوم ثلاثة أشهر، فإن المواكب توقّت وصولها قبل الخطبة على عرفات بأيام قليلة ومغادرتها بعد أيام قليلة منها. لكن الحجاج يبقون منفردين لفترات أطول أو أقصر. نادراً ما تبقى المدينة المقدسة خالية منهم. وقبل أن يغادر المتأخرون من الحج السابق يصل حراس الحج التالي المتقدمون. ولما كانت فرص المسلم في دخول الجنة تزداد مع ازدياد عدد المرات التي يقوم بها بالطواف، فإن الفناء البيضاوي حول الكعبة لا يخلو من الحجاج. إذ يمكن رؤية الناس وهم يدورون ليلاً ونهاراً.

يعرف أنَّ البعض يبقون شهوراً في فناء الحرم لتتاح لهم الفرصة ليقوموا بالطقوس وحدهم، ولكي ينالوا الأجر الكبير في العالم الآخر. ومن ماء زمزم لا يمكن للحاج أن يأخذ كفايته أبداً. يحصل على كفن يغطسه في النبع المقدس [من ماء زمزم] ويحتفظ به لحين دفنه. ويحمل معه إلى الوطن إلى عائلته وأصدقائه زجاجات أو جراراً تحوي السائل المبارك.

لم يكن الحج أبداً خالياً من جانبه التجاري. في أيام عبادة الأصنام كان يقام معرض [سوق] في مكة. وهو الآن طيلة الأشهر الثلاثة التي سبق ذكرها، أعظم معرض في العالم الإسلامي. يلجأ كثير من الناس إلى هناك لأهداف تجارية بحتة. إذ يحوَّل الشارع الرئيس إلى بازار، تعرض فيه منتجات كلّ بلد في الشرق للبيع. قد تشاهد هناك جلود

الماعز الحمراء أو الصفراء من المغرب والطرابيش من تونس. ويعرض التركي الأوروبي أقمشة مطرزة، بينما يعرض أخوه من الأناضول سجاداً حريرياً، وقد تنتقل العين من شالات من نسيج أنغورا وشالات أفغانستان المشغولة على نحو فاخر، إلى المناشف من قماش الكشمير الحريري. ويعرض الهندي أقمشة جميلة ويغري البدو بأسلحة مرصّعة ومطعّمة. هناك صفوف وصفوف من قطع من عنبر تستعمل في الفم والمحافظ والحلويات. والعربي اليمني يحضر معه أشياء من الجلد والأفاعي الاستوائية، ويساهم الزنوج من السودان ببضائعهم القطنية المتواضعة والسلال واللآلئ والبهارات والأقمشة والحرير، وهذه كلها شكلت «سوقاً مشهورة من أشياء كثيرة كبيرة القيمة» بحسب قول بارتيما.

وأخيراً تتربع مكة على قمة تجارة العبيد وهي تدين بهذا المركز للحج. فهناك نظام مدروس للخطف، والسوق قائمة على بعد مرمى حجر من الكعبة.

المدينة المنورة

Medina

كانت المدينة المكان الذي هاجر إليه محمّد هرباً من أعدائه في قريش، بعد أنْ تأكد مسبقاً أنها تناصره. لذلك وجه حروبه الظافرة من هناك وأفلح في التغلب على مكة. وفي المدينة أسس الخلافة الإسلامية وهناك توفي ودُفن. هناك أربعة طرق من مكة إلى المدينة تتراوح أطوالها من 300 إلى 500 ميل. ومظهر المدينة يتناقض مع مظهر مكة. فهي تبلغ ثلث مساحة مكة وبيضاوية الشكل، ومحاطة بسور أبيض، وتقع في منخفض في سهل واسع جداً. على جانبين منها ضواح أكبر من المدينة نفسها في الامتداد، وخلف هذه الضواحي تمتد حقول ومزارع نخيل. ويعود خصب تربتها إلى وفرة المياه الجارية.

في الحيّ الشرقي ـ الذي يمكن رؤيته من بعيد ـ ترتفع المآذن والقبة الخضراء التي تعلوها كرة ذهبية وهلال، وتحتها يقال إن رفات النبي تستريح. وليس هناك ما يكفي من الناس المتحمسين الذين يدّعون أنَّ المدينة تفوق مكة في القداسة، لكن الإجماع العام عند المسلمين يفضل الكعبة. على أي حال، المدينة وحدها شهدت تلك الحوادث المتطرفة من التعصب، قام فيها بعض الحجاج ـ بعد رؤيتهم

قبر النبي ـ بإتلاف بصرهم بالتحديق في قرميدة متوهجة لفترة طويلة عن قصد.

يؤدي الشارع الرئيس في المدينة من بوابة القاهرة إلى المسجد الذي يدعى أيضاً الحرم ويشبه في شكله المعبد في مكة، لكن بأبعاد أصغر. والرواق ذو الأعمدة الذي يحيط بالفناء المكشوف أقل انتظاماً؛ فصفوف الأعمدة هنا تتراوح بين ثلاثة وعشرة. والفناء الذي تحيط به هذه الأعمدة مغطى بالرمل وكذلك أرضية الأروقة في الجهة الشمالية. وتلك التي في الجهتين الشرقية والغربية مبلطة بالحجارة الخشنة، لكن في الجهة الجنوبية ـ حيث التجمع الأكبر من الأعمدة ـ ينزل الضوء مائلاً من خلال نوافذ عالية من زجاج مطلي مثبت في الجدار الخارجي للمسجد، على أرضية من رخام فاخر وفسيفساء. وإلى الناحية الجنوبية الشرقية يقع قبر النبي.

هناك هيكل مستقل، يعرف بالحُجرة، شكله مربّع غير منتظم بارتفاع ثلثي الأعمدة وسقفه مكشوف، وهو يقع على مسافة خمسة وعشرين قدماً من جنوب السور وخمسة عشر من شرقه. يحيط به سياجٌ حديدي مطلي باللون الأخضر ومصنوع بشكل يشبه الزركشة التخريمية. والسياج مدمج بكتابات برونزية وفضية بحيث إنَّ ما بالداخل لا يمكن أن يرى إلا من خلال إحدى النوافذ الصغيرة في الجانب الجنوبي. كلّ ما تراه العين ستارة لم ترَ عين أي أوروبي ما وراءها. يقال إنها تغطي مبنى حجرياً صغيراً يحتوي على قبور محمّد وخليفتيه أبي بكر وعمر. وهناك أيضاً ضريح فارغ ينتظر عيسى ابن مريم عند مجيئه الثاني. وتحت ستارة منفصلة يستريح جثمان فاطمة بنت محمّد. وهناك أربع

بوابات للسياج الخارجي وممر ضيق بينها وبين الستارة التي تخفّي قبر محمّد.

ويلي هذه في الأهمية «الروضة». قال محمّد مرة: «**بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة**». لذلك حُولت قطعة من الأروقة المعمّدة الجنوبية إلى ما يشبه الحديقة باستخدام نوع من الزخرفة الرائعة. الأعمدة مغروسة في آجر أخضر بارتفاع خمسة أو ستة أقدام، ومطلية بأزهار ونسق عربي من الزخرفة. تغطي الأرض سجادات تركية وثيرة. والحاج الذي يدخل المسجد من بوابة الأمان من زاويتها الجنوبية الغربية يتقدم في ممر يتشكل من السور الجنوبي وحاجز خشبي يخفي وراءه الضريح والحديقة.

كان المسجد في الأصل قد بني فوق البقعة التي برك فيها بعير محمّد في أوّل مرة يجيء فيها إلى المدينة. ولقد أعيد بناؤه خمس مرات، وبنائه الحالي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر.

ليس الحج إلى المدينة فرضاً وليس إلزامياً. إنه ببساطة عمل يستأهل المكافأة ويعرف «بالزيارة». وليس هناك لباس مفروض، لكن من المعتاد ارتداء ملابس بيضاء. ليس هناك أي تقبيل أو لمس، بل صلوات وسجود. والاحتفال بأكمله يمكن إكماله في عشرين دقيقة.

تقع المدينة على بعد 132 ميلاً من مرفئها ينبع. لذلك فهي أكثر عزلة من مكة، وخطر أكبر يتعرض له من يتطفل بدخولها من المسيحيين.

الرحالة
الذين زاروا الحجاز

لودوفيكو بارتيما

Ludovico Bartema

909 هـ ـ 1503م

كان بارتيما «السيد المحترم من روما» أوّل من زار مكة وسجل انطباعاته. كانت «الرغبة المتوقدة للمعرفة» دافعه للرحلة؛ لا يمكن لشيء أن يهدئ فكره القلق حتّى يرى بأم عينه حقيقة الغرائب التي تحدّث عنها الرحالة في الشرق. وسيترك التحقيقات الخاصة بالأشخاص ذوي الأهمية لغيره، وهو لن يفعل سوى «أن يزحف على الأرض ويرى وضع البلاد والمناطق، وكذلك طرائق وعادات الناس». لقد تحمل في ملاحقته للمعرفة «الجوع والعطش البرد والحرّ، الحروب والأسر والمخاوف».

في عام 1503، غادر البندقية إلى الإسكندرية وزار بابل المصرية وبيروت وطرابلس وأنطاكية ودمشق. في دمشق، التقى بالمصادفة «بأحد قواد المماليك» وصمم أن يزور مكة بصفة مملوك مسلم. حصل على حصان جيد وثياب حسنة بسعر كبير وبهدايا كثيرة.

في يوم 11 ابريل/ نيسان غادر دمشق، وكان واحداً من بين ستين مملوكاً خصصت لهم أمكنة في القافلة الكبيرة. ربما يكون من قبيل

المبالغة أن قدّر عددها بـ: 40 رجلاً و35 جملاً. كانت المسافة إلى مكة تستغرق أربعين يوماً من بينها عدة أيام للتوقف في المدينة. حدث قتال مع البدو الذين كانوا يطلبون ثمناً للماء. تجمع رجال القافلة على تلّة، ووضعوا الجمال كمتاريس وكان التجار في الوسط؛ ردّوا الأعداء ـ الذين كانوا غير مسلحين ومكشوفين ـ على أعقابهم من غير صعوبة كبيرة. كان الأعراب «مقرفين وذوي قامات قصيرة وكانت ألوان بشرتهم بين الأصفر والأسود». عند الوصول إلى المدينة تأكد بارتيما بنفسه من زيف التقليد القائل إن قبر محمّد كان يتأرجح وسط الهواء بسبب قوة جذب حجر مغناطيسي. ويعطينا وصفاً تفصيلياً للصحراء ما بين المدينة ومكة: سهل واسع عريض يغطيه الرمل الأبيض الناعم كالدقيق. لسعتهم ريح معاكسة بالرمل، ولفتهم ريح عاتية بحيث لم يكن واحدهم يستطيع رؤية الآخر على بعد عشر خطوات. كانوا يجدون جثثاً قد جفت حتّى صارت أشبه بالمومياء.

من المؤكّد أن بارتيما قد ارتدى حماسته للمعرفة كدرع يقيه من الانطباعات الكثيرة المقيتة التي كانت تضايقه. كانت الكلمة المكررة على لسانه على نحو دائم «قذر». فخيام البدو السوداء «خشنة وقذرة». وفي المدينة، كانت المكتبة في المسجد تحوي «السيرة [النبوية]. . . وحياة محمّد وأصحابه». كان هناك الكثير من الطوائف والخلافات والمنازعات بين «هذا النوع من الناس. . .». يتركون المدينة «راضين، أو بالأحرى متعبين من القذارة والتوافه والغش والأشياء غير ذات المعنى والنفاق. . .».

وصل مكة يوم 18 مايو/أيار، وصرّح أن مظهر المدينة مجدب كانت بيوتها الـ: 6000 مبنية بصورة جيدة كبيوتنا». لم ير في حياته أبداً

مثل هذا العدد الوفير والمتكرر من الناس. كان الماء يباع بأعلى من قيمته العادية؛ لم يكن مبلغ 12 بنساً يشتري أكثر مما يكفي لسد رمقك في اليوم. كان المعبد [الحرم المكي] وسط المدينة مثل الكولوسوس (Colossus) في روما (كذا) والمدرج الروماني، لم يكن مبنياً بالرخام أو الحجارة المنحوتة بل من الآجر المشوي. وعند المدخل كانت الجدران المطلية بالذهب تشع من جميع الجهات ببهاء لا مثيل له. وتحت الأمكنة المقنطرة كانت هناك حشود كبيرة من الناس ـ بين خمسة وستة آلاف ـ يتاجرون بالدهون الحلوة والمساحيق ذات الروائح العطرة التي تستعمل للتعطير. من هناك كانت جميع أنواع النكهات العذبة تنقل إلى البلدان الإسلامية البعيدة. لا يستطيع الخيال أن يفكر بروائحها الكثيرة «تفوق ما يفوح من محلات بيع الأدوية والعقاقير».

هناك برج صغير يشغل وسط الساحة، «محاط بقماش أو عِلق عليه قماش أو أنسجة حريرية مزدانة بالرسوم». يجري الدخول إلى البرج من بوابة من فضة وعلى جميع جوانبها أوعية ممتلئة بالبلسم.

كان ماء زمزم ملوثاً بالملح الصخري. هناك ثمانية رجال معيّنون لسحب الماء، وكانوا يصبون دلاء منه على رؤوس الواقفين في الجوار، «ويغسلونهم بالكامل من رؤوسهم حتّى أقدامهم، ولو كانوا يرتدون ثياباً من حرير. وبعد ذلك يحلم هؤلاء الحمقى الخَرِفون أنّهم تطهروا من خطاياهم، وأن ذنوبهم قد غفرت لهم».

يريد منا بارتيما أن نصدق أن الـ 20 متسولاً الذين رآهم في مكة قد سنحت لهم الفرصة أن يتمكنوا من أكل الخيار. تمّ جلب عدد كبير من هذه الخضروات من اليمن السعيد (Arabia Felix) للأغنياء، وكان

الفقراء يتقاتلون للحصول على القشور. وعلى نحو عرضي يشير إلى أنه كان يسمح لهم بالتغذي على الأغنام التي تذبح في منى. يضيف أنه رأى حيوانات أحادية القرن في المعبد، واحداً منها يشبه الحصان، وذا لون كلون ابن عرس. كان قرن الحيوان الأوّل بطول ثلاث أذرع والثاني بطول أربع قبضات يد.

بقيت قافلة دمشق عشرين يوماً في مكة ليتسنى لهم رؤية احتفالات وشعائر الحج. عند سفح جبل عرفات، لاحظ بارتيما خزانين من أجل قافلتي دمشق ومصر. كانت منى «حائطاً بسيطاً بعرض أربع أذرع». في نهاية العشرين يوماً، أصدر قائد القافلة إعلاناً بموت كلّ من يرفض العودة معها إلى سوريا. لكن لم يكن في برنامج بارتيما تصميم على العودة من الطريق نفسها. بقي مختبئاً في بيت أحد المماليك الذي كان قد كسب صحبته، وساعدته زوجته على الوصول إلى جدّة ومن هناك أبحر إلى بلاد فارس.

في إحدى المرّات بينما كان يتمشى في مكة، بادره أحد المماليك بالكلام واتهمه بأنه مسيحي. لكنه أنكر ذلك، وألحّ المملوك متحدثاً بالإيطالية قائلاً إنه بالذات زار البندقية وجنوه. عندئذ اعترف بارتيما بجنسيته لكنه قال إنه مهتد إلى الإسلام، فابتهج المملوك كثيراً.

نشأت بينهما صداقة. حصل بارتيما من قائد القافلة على إذن أن يقود المملوك خمسة عشر جملاً محملة بالتوابل من المدينة من دون دفع رسوم. وبالمقابل دبر المملوك له أمر الهروب إلى جدّة.

وصل بارتيما بسلام إلى عدن؛ لكن الناس هناك احتجزوا صارية السفينة وأشرعتها والأدوات الأخرى حتّى تُدفع الأجور المطلوبة. وبينما

كان يسير، كان يسمع صيحات «المسيحي الكلب» توجّهُ إليه في الشارع. وبعد هذا أخذوه إلى السلطان الذي أمره أن يشهد بالإيمان. رفض أن يفعل ذلك؛ «هذه الكلمات التي لم أستطع التلفظ بها، إما لأنها كانت لا تسرّ الله، أو لأنّني لم أجرؤ خشية تأنيب الضمير». عندئذ رموه في زنزانة مكبلاً بسلاسل من حديد تزن ثمانية عشر رطلاً في قدميه.

يدين بارتيما بخلاصه إلى مصادفة سعيدة تشبه تلك التي هيّأت له الهروب من مكة. في البدء ساعدته امرأة في الحادثة الأولى. وساعدته الآن امرأة أيضاً هي زوجة السلطان ـ كانت النساء العربيات في ذلك الوقت «يحببن كثيراً الرجال البيض». كان يُسمح للسجناء المشي يومياً في بهو ذي أعمدة يطل على القصر. هناك اختارته زوجة السلطان من بين الجميع، ودبرت أمر التحدّث إليه؛ وكوسيلة للحصول على قدر أكبر من الحرية، أشارت عليه أن يتظاهر بالجنون؛ فالمجانين في الشرق كانوا يُعتبرون مقدسين أو ممتازين. اتبع بارتيما نصيحتها بنجاح كبير. فقد «حوّل» إلى الدين الإسلامي خروفاً كبيراً سميناً، وقتل حماراً لرفضه الاهتداء إلى الدين. لكنه وجد الجنون عملاً متعباً أكثر من أي عمل آخر، لأن جموعاً من الناس كانت تتبعه في الشوارع والصبية كانوا يرشقونه بالحجارة. استُدعيَ بعض النسّاك كي يحكموا ما إذا كان مجنوناً أم لا. وأخيراً استطاع أن يدخل في اتّفاقية سرية مع ربان سفينة وصلت إلى عدن ودبر أمر هروبه من الجزيرة العربية. سافر في بلاد فارس والهند وأثيوبيا وحول رأس الرجاء الصالح ثمّ عاد بسلام إلى روما.

فانسن لوبلان

Vincent Le Blanc

976 هـ ـ 1568م

ولد لوبلان في مرسيليا 1554. كان والده سابقاً تاجراً في الشرق الأوسط وكان عندئذ شريكاً في سفينة تبحر إلى الشرق. وعندما كان طفلاً كانت تساوره الرغبة في السفر، وقد تأججت هذه الرغبة داخله نتيجة الحياة التي عاشها في المرفأ الفرنسي الكبير، حيث كان يشاهد وصول السفن الأجنبية بأطقمها من الأجانب أو مغادرة سفن أخرى إلى مدن شرقية تنفث أسماؤها عبير الغرابة والبهجة. كان سحر الشرق مهيمناً عليه، وعندما كان في الرابعة عشرة من عمره ترك بيته وصعد سراً إلى ظهر سفينة والده المغادرة إلى الإسكندرية. كانت أمه تعلم نواياه لكنّها كانت تدرك عدم جدوى المعارضة.

وصل لوبلان إلى الإسكندرية وزار القاهرة وبدأ رحلة العودة. حدث تأخير في كانديا استغله الطاقم لإنفاق نقودهم على الملذات. ومن أجل الحصول على المزيد من المال، باعوا البضاعة الموجودة على متن السفينة بخسارة. ولدى مغادرة المرفأ سيطر عليهم الخوف من الدائنين فصمموا يائسين على إغراق الباخرة. هرب لوبلان من الكارثة

وعاد إلى كانديا في زورق صغير. وهنا واتته الفرصة التي قررت مستقبله. وصلت سفينة من البندقية قاصدة أورشليم (القدس) وعلى متنها رجل اسمه كاسيس، كان لوبلان قد تعرف عليه في مرسيليا، اقترح أن يرافقه في أسفاره، فقبل العرض وساعدهم القنصل الفرنسي بمبلغ من المال.

سافر الصديقان بطريق طرابلس ووصلا إلى دمشق ونزلا في الحيّ التركي في المدينة المسماة «المشارب» على بعد ثلاثة أيام من دمشق. وهناك قابلا مورات ـ أخو كاسيس ـ الذي كان مسلماً. وكان هذا الأخير هو الذي أدخل إلى ذهنيهما فكرة زيارة مكة، ليس من دوافع دينية، بل لكي يتمكن من بيع بضاعته وجني الأرباح منها وليعوض لنفسه عن خسائر تكبدها مؤخراً. تردد كاسيس متذرعاً بالوعد الذي قطعه للوبلان بأن يأخذه إلى القدس. لكن المسلم أجاب أنّهم سيزورون مكة أوّلاً ثمّ يعودون إلى القدس.

سمع لوبلان محادثتهما فملأ القنوط قلبه. كان يخشى هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، لكنه كان يخشى أن يتركه الأخوان أو يبيعاه إذا قام بالاحتجاج، أو أن يبادلاه بواحد من براميل الخمرة النادرة التي كان يبيعها تجار الأدوية بأسعار غالية. وحالما عُرضت عليه الخطّة، لم يكن لديه خيار سوى القبول.

انضم الثلاثة إلى الموكب الرئيس المؤلّف من 20000 جمل والذي يحمل أنواع البضائع والمنتشر على أكثر من ميلين من البلاد. هنا يتحدث لوبلان عن أطياف كانت تظهر في الصحراء وتغوي الرجال بالخروج عن الموكب، تتنكر بزي أصدقاء، وتتركهم ليموتوا من

العطش. نفدت مؤوونة الماء وذهب مع مجموعة من ستين رجلاً بحثاً عن بئر ماء، ووجدوا واحداً مخبأً في الرمل ومغطى بجلد بعير. وفي المدينة يلمح إلى «النبي. . .» [حسب اعتقاده يعتبر النبي محمّد ﷺ نبياً ورسولاً). كان هناك ما بين أربعين وخمسين ألف حاج، ومواكب من حلب والقاهرة. قال إنّهم وصلوا إلى مكة بعد يومين، لكن ذلك مستحيل طبعاً. كانت مدينة كبيرة بقدر روين Rouen وضعف مرسيليا وكانت محاطة بجبال عالية كبيرة مثل الأسوار تجعل من غير الممكن الوصول إليها.

كان يهيمن على فكر لوبلان الجانب التجاري من الحج. كانت مكة تبدو له ملجأً لثروات جزر الهند الشرقية. كان التجار يبيعون الأدوية والعطور والحجارة الثمينة، في أروقة المسجد ذات الأعمدة بالذات. بين مكة وجدة كان هناك موكب مستمر من الجمال المحملة بالبضائع إلى سوريا أو مصر أو أوروبا.

وعلى الطريق تمّ الاتّفاق على أنَّ الأخوين يجب أن يفترقا في مكة، وأن كاسيس يجب أن يتقدم مع لوبلان إلى جدّة ومعه ستة جمال. كان كاسيس صاحب الفكرة. فقد أعلن أن بعض السفن قد وصلت إلى جدّة قادمة من الهند، وأن البضائع قد تباع هناك بفوائد أكبر. وعندما حدث الافتراق وكان الاثنان في طريقهما إلى جدّة، كشف كاسيس عن نواياه الحقيقية، وهي الذهاب إلى بلاد فارس. قال إن أخاه قد اقترف الخطيئة بإنكاره المسيح، لذلك كان هو يقوم بالعمل الصحيح في سرقة بضائعه. ومهما كانت الشكوك التي شعر بها لوبلان والنابعة من وحي ضميره، فقد أخرستها الحاجة الماسة.

جرى تنفيذ الخطّة. استقل كاسيس ولوبلان سفينة إلى عدن ومن هناك إلى هرمز Ormus وبعد أنْ باعا بضائعهما وعادت عليهما بفائدة كبيرة في فارس وبابل [العراق]، رحلا بعيداً حتّى وصلا سمرقند. وبعد ذلك عادا إلى عدن وسافرا صعوداً بمحاذاة شاطئ الجزيرة العربية وزارا الهند وكثيراً من البلدان الأخرى في آسيا وأفريقيا. وفي عام 1578، وبعد غياب عشر سنوات، عاد لوبلان إلى مرسيليا. لكن والديه لم يعرفاه. فقبل خمس سنوات كان قد قاما بمراسم جنازته.

- لم تنته أسفار لوبلان. في عام 1583 بدأ رحلة إلى البرازيل. وقادته المصادفات إلى النزول في هافر حيث تزوج «واحدةً من أكثر النساء فظاعةً في العالم». أصبح عنده الآن دافعٌ أقوى للسفر. زار إسبانيا وإيطاليا ومالطا وغينيا وجزر الهند الغربية. ولم يستقر في وطنه الأم حتّى عام 1602 وبصورة نهائية.

وفي عام 1619 طلب بيريسك Peiresc، وهو أحد رعاة الأدب في عصره، أن يرى مخطوطة لوبلان. فقد كان من عادته أن يكتب كلّ ما كان يرى أو يسمع في مفكرة صغيرة. لكن تعليمه كان في الحدّ الأدنى كما كان سريع التصديق. تمّ العثور على الكثير من السخافات في صفحاته، وقبل أن ترى النور تمّ حذف الكثير منها. لم يتمّ نشر الكتاب حتّى ما بعد موت مؤلّفه في عام 1640 عن عمر يناهز السادسة والثمانين.

كتب لوبلان؛ «الحياة رحلة دائمة من دون راحة أو مقرّ ثابت».

ملاحظة: يجب قبول مذكرات لوبلان بتحفظ. يميل الكثيرون إلى اعتبار حكاية رحلته إلى مكة خيالية.

يوهان فالد

Johann Wild

1016هـ ـ 1607م

ولد فالد في نورمبرغ في حوالى العام 1585. وبعد إكمال تدربه في التجارة، قام برحلة إلى هنغاريا . وهناك تملكته رغبة جامحة في الانضمام إلى الحياة العسكرية فتطوع في الجيش الإمبراطوري ثمّ دخل في حرب ضدّ الأتراك. كان في سنّ التاسعة عشرة. وبعد ذلك بقليل، أسرَهُ الهنغاريون المتحالفون مع الأتراك، وبيع عبداً. أخذه سيده ـ وهو صاحب دكان في المعسكر ـ إلى بودا وكان ذلك في شهر يناير/ كانون الأوّل وكان الشتاء قارصاً على نحو استثنائي، وكان عبور الدانوب على الجليد يسبب عناءً كبيراً للسجناء الألمان الذين كان من بينهم الكثير من النساء والأطفال. كانت خبرة فالد التالية في الحمام التركي. كانت خبرة مختلفة عن مشاعره السابقة، لكنه وجدها غير سارة كذلك مثل الانتقال من إحدى دوائر الفرن إلى دائرة أخرى. كانت تلك خبرته الأولى بالحمام الساخن. بعد ذلك بيع إلى نقيب انكشاري يرتدي ثياباً تركية ليكون خادماً خاصاً له. ويتحدث بقرف عن العبيد المسيحيين الذين قبلوا الإسلام طواعية، بقوله إن الأتراك كانوا يحتقروهم أكثر من الذين

صمدوا رافضين الارتداد. ومع ذلك يبدو من تسلسل الأحداث أنه فعل مثلهم. وبعد عدة أشهر قتل سيده أثناء حصار غران (Gran)، وبيع ثانيةً، وفي خلال عام ونصف تنقلت ملكيته بين خمسة أشخاص. كان السيد الذي رافقه إلى مكة فارسياً ويتحدث عنه فالد بعبارات الاستنكار الشديد: كان صارماً وبخيلاً. كان فالد يقدم كلّ الخدمات له: من طبخ وغسيل وكنس وتنظيف وتسوق.

سافر فالد وسيده إلى مكة مع القافلة المصرية. أقام القائد (أمير الحج) مخيماً في حديقة تبعد ميلين عن القاهرة قبل أسبوع وتقاطر الحجاج إلى هناك على دفعات. انطلقت الأبواق تعلن بدء الانطلاق. واصطف الحجاج بنظام كي يمكن مراقبتهم أثناء الرحلة. رُبطت الجمال الواحد خلف الآخر في صفوف، وشكل مئة من المماليك ومعهم ستة مدافع مرافقةً للحجاج للحراسة. وكان هناك ثلاثون جملاً تحمل سلالاً فارغة يمكن أن يستلقي فيها من يصابون بالأمراض. كان كلّ رجل يحمل كيساً مطلياً بالقطران مملوءاً بالماء يكفي ثلاثة أيام. ولن تكون هناك فرصة لملئه من جديد قبل الوصول إلى السويس، ولم يكن هناك أي شيء يعتبر أكثر قيمةً من الماء. وكانت رؤية الحجاج الفقراء يتجولون حول المخيم للتسوّل منظراً شائعاً، وإذا قدم لهم أي طعام، فقد كانوا يضعونه على الأرض ويقولون: «آه يا إلهي، لا أريد أن آكل، لكن إكراماً لله أعطوني ملء ملعقة من الماء فقط». بعد السويس عبروا شبه جزيرة سيناء، أمضوا اليوم بكامله في عبور الممر الرهيب في سلسلة جبال العقبة: وهي سلسلة من الجبال العالية ذات جروف صخرية، لا تشبه أي جروف رآها فالد. كانت الجمال تُقاد بالأرسن، والحجاج يتقدمون سيراً على الأقدام.

بقوا يومين في مدينة العقبة، في الوادي، حيث آبار من ماء المطر العذب يحرسها مماليك من هجمات البدو.

كان عدد القافلة 20000 رجل و100000 جمل. وصلت إلى ينبع، منتصف الطريق بعد تسعة عشر أو عشرين يوماً، وبلغت الوفيات 1500 رجل و900 جمل. وبعد ينبع ضايقتهم هجمات البدو أثناء عبور الجبال باستمرار. قال فالد: «جُرح سيدي بسهم ولم يحمله الشيطان إليه، الأمر الذي كنت أتمنّى رؤيته. فقد كان كلباً لا يرحم. لم يفعل شيئاً سوى ضربي وإساءة معاملتي، وكلما فتح فمه كان يوجه إليّ الشتائم والإهانات». ولما أصبحوا على مسافة مسير ثلاثة أيام من مكة، وارتدى الإحرام، قاسى الكثير من حرارة الشمس الحارقة نهاراً وهو جالس على ظهر جمله، ومن البرد ليلاً. كان عليه أن يتحمل آلام الجوع والعطش إضافة إلى ذلك، وكان «غالباً ما يود تقبيل قدمي رجل من أجل ملء ملعقة من الماء». واستمرّ الحجاج في صراخهم الذي لا ينقطع: «آه يا بيت الله العزيز [لبيك اللهم لبيك إنَّ الحمد والنعمة...].

وأخيراً صعدوا تله عالية قرب طريق ضيقة منحوتة في الصخر، لا يستطيع إلا جملان اثنان السير فيها جنباً إلى جنب، وهناك على مرمى حجر منهما كانت مكة. ويلي ذلك وصف غير ممتع لمهمات الحج الأولية، وهنا ملاحظة عن السيد الفارسي المقيت لا تستحق الذكر. «ألا ترى كم من الأتراك يودون السفر إلى مكة، لكن لم تتمّ الموافقة لهم على فعل ذلك؟» وخلص فالد أن سيده كان يتوقع منه الامتنان لجلبه إياه معه إلى هذا المكان المقدس.

كان للموكب الذاهب إلى عرفات تأثير عليه. «لا بُدَّ أن يكون المرء قد لاحظ الطريقة المهيبة التي يسير فيها سكان مكة إلى الجبل، وجمالهم محملة بالسجاد. كانت النساء على ظهور الجمال يردد [ابتهالات] على طول الطريق وكذلك الرجال الذين كانوا يقودون الجمال». وقد عزا سبب الفوضى بعد انتهاء الخطبة إلى الخوف من أن يشرع البدو بالنزول من الجبال ليسرقوا الجمال. كان بنفسه مسؤولاً عن الحيوانات ولما لم يكن سيده معه، أصابه الذعر. «لم أكن أعرف إلى أين آخذها». كما يقول: «لذلك تملكني الخوف من أن يسرقوا مني جملاً ويقتادوه إلى الجبال. لأن الظلام كان قد خيم». وبعد ساعة انضم إليه سيده، يلعن ويشتم لأنه لم ينتظر لكنه كان مرتاحاً لأن جماله كانت بخير. وبعد ذلك كانت حكاية رمي الشيطان بالحجارة، تلك الحكاية التي يسردها بكثير من عدم الدقة: «لا أعتقد أن إبراهيم قد زار مكة أبداً».

خلال الاثني عشر يوماً التي قضاها في مكة، بين العودة من منى ومغادرة القافلة، وجد فالد وقتاً لعدة ملاحظات. لقد أصابته الصدمة من السلوك الفظيع، وسأل سيده عما إذا كانت هذه الأعمال هي شكر الحجاج لله عن مغفرة خطايهم. فأجاب السيد: «لماذا تسأل عن هذه الأمور؟ إن كانوا لا يقومون بالأعمال الصحيحة فإن الله بالتأكيد سيكتشف ذلك». وذكره للأكشاك العديدة حيث كانت العطور تباع، يذكّرنا بالرحالة الإيطالي بارتيما. كما يقول إذا تمّ العثور على يهودي أو مسيحي داخل المدينة فإنه سيحرق حياً.

ليس هناك أشياء تستحق الذكر بالنسبة لزيارة فالد إلى المدينة. «غرفة واسعة تحيط بها القضبان»، هكذا كان وصف فالد لقبر محمّد.

وفي مكة يتمّ استيراد جميع الطعام من القاهرة عدا التمر، فهو أرخص وأفضل من تمر القاهرة.

كان سيد فالد تاجراً، عاد الآن إلى مكة ومن هناك إلى جدّة لكي يتمكن من الإبحار في رحلة تجارية في البحر الأحمر: اشترى كثيراً من البضائع في الحبشة ومن هناك أبحر إلى السويس وعاد إلى القاهرة بطريق البر. وبعد ذلك أخذ فالد في رحلة إلى أورشليم القدس. زارا هناك مسجد عمر (وقبة الصخرة) وقبر المسيح المقدس. رافقهما هناك رهبان ومسيحيون إلى القبر المقدس كي يتأكدوا أنَّ الأتراك لا يُسببون أي أضرار. تعرف فالد على يوناني في أورشليم عرّفه على البطريرك دون أن يدري سيده. استقبله البطريرك بلطف وأصغى إلى حكايته وأعطاه شهادة أنه زار القبر المقدس. وبعد عودته إلى القاهرة، اشترى يوناني كان قد تعرف عليه في أورشليم، بعض بضائع سيده. قام فالد بدور البائع وطلب عمولة. لكن اليوناني غضب وأخبر سيده بزيارته للبطريرك. ففتشه فالد ولدى العثور على الشهادة معه، أتلفها. ليس من المعروف إن كانت حيازتها تعتبر دليلاً على محاولة الهرب، وعلى الموالاة غير الإرادية للإسلام، لكن ربما هذا ما أغاظ سيده، فأرسله إلى سوق العبيد برفقة سمسار حيث بيع للمرة الثانية. ولم تعد هذه الصفقة بالفائدة على أحد أكثر مما عادت عليه. كان سيده الجديد عجوزاً تركياً غنياً يحبّ الخير، فأعطاه حريته بعد سنة، وبعد ذلك بفترة قصيرة وفّر مالاً كافياً يضمن عودته إلى أوروبا. وصل نورمْبرغ في خريف عام 1611.

جوزيف بيتس

Joseph Pitts

1091هـ ـ 1680م

«لست أدري إن كان هناك الآن في إنكلترا إنسان وطئت قدماه أرض مكة»، هذا ما كتبه جوزيف بيتس، أوّل إنكليزي وقعت عيناه على المدينة المقدسة. أصبح بيتس، المولود في أكستر عام 1663، بحاراً بسبب حبه للسفر وهو في الخامسة عشرة من عمره. بعد بعض الرحلات القصيرة قام بواحدة إلى نيو فاون دلاند، لكن أثناء رحلة العودة أسرت سفينتَه سفينةُ قراصنة جزائرية عند سواحل إسبانيا. كان القبطان مسلماً هولندياً يتحدث الإنكليزية. لكن الأعداء ظهروا لبيتس «كمخلوقات وحشية ضارية»، كان يخشى أن يقتلوه ويأكلوه. تمّ أسر ثلاث سفن إنكليزية أخرى وكان الأسرى يتغذون على الزيت والزيتون والخل والبسكويت الأسود وكمية قليلة من الماء يومياً (نصف لتر تقريباً). بيع بيتس في الجزائر ليصبح عبداً. لم يبذل سيده الأوّل أي محاولة لتحويله عن دينه، لكن سيده الثاني وهو رجل ذو قسوة وحشية وعديم الثقة، استخدم الفلقة لهذه الغاية (الضرب بالعصا على قفا القدمين). حطمت الهراوة الضخمة التي استخدمت بقسوة انتقامية على قدميه العاريتين

تصميمه. فأشهر اعتناقه الدين الجديد رافعاً سبابة اليد اليمنى كالمعتاد. لقد رضخ بسبب الإرهاب، لكنه يخبرنا بالسرّ أنه كان يكره الدين الجديد، «ويأكل لحم الخنزير بنهم». ارتاب سيده بصحة اعتناقه للدين وصار يعامله على نحو أسوأ من قبلٍ.

وجد بيتس وسيلة لمراسلة عائلته، على فترات طويلة، بالسرّ. وبخصوص ارتداده عن دينه، تبادلوا رسائل مؤثرة فيما بينهم. منعه أبوه من إنكار «مخلصه يسوع المسيح» القدوس، مهما كانت أنواع القسوة التي تمارس عليه. لكن هذه الرسالة لم تصل حتّى بعد نطقه بالكلمات الرهيبة. لو أنَّ الرسالة وصلت، لكان بيتس صمد وتحمل. أجاب والحزن يعصر قلبه متمنياً لو أنه مات وهو طفل قبل أن ينكس رأسي والديه الأشيبين إلى الأرض من الحزن. وكذلك بعد عدة أشهر، كتب له والده أنه استشار كثيراً من الكهنة، وأجمعوا على أنه لم يرتكب الخطيئة المميتة. وأضاف «تذكّر أن بطرس لم يمرّ بمثل تلك التجارب الكثيرة لإنكار ربه ومعلمه، وبالرغم من ذلك نال الرحمة والمغفرة، وقد تنالهما أنت ذلك».

كانت الفترة الأطول في هذه المراسلات أربعة عشر شهراً، أثناءها ـ وفي عام 1680 ـ قام بيتس برحلته إلى مكة مع سيده الثالث، وهو رجل مسن وسمين وذو طبيعة طيبة، عامله بلطف كبير. قاما برحلاتهما بالبحر إلى الإسكندرية، ومن هناك في النيل إلى القاهرة وعبر الصحراء إلى السويس واستقلا سفينة إلى جدّة. ارتدى الإحرام ولاحظ البشرة التي لفحتها الشمس على ظهور الحجاج. كان يعتبر زملاءه من الحجاج عميان ومتعصبين، لكنه نادراً ما كان يتحمل ذرفهم للدموع من فرط

حماسهم. كانوا يقبّلون الجمال التي حملت السجادة (الكسوة) المقدسة ويتحدثون عن ماء المطر الذي كان ينزل من سطح الكعبة المنبسط، عبر ميزاب، كالندى من السماء. كان يحدث تدافع للنزول تحته والشرب منه أو حتّى لجمع بعض منه وبيعه. وجد بيتس أن طعم ماء زمزم كان مالحاً وأنه يسبب بثوراً تفقأ على الجسم. وقال: «وهذا ما يسمونه التطهير من مفاسدهم الروحية!».

كان بيتس في مكة في شهر رمضان. إذا ذاق أحدٌ الطعام إلا بين الغروب والشروق، أثناء شهر الصوم، فإنه يتوجب عليه التكفير عن إثمه بالتضحية بخروف. لكن إذا تمّ القيام بذلك بالصدفة، فإذن ليس ذلك إثماً بل «نعمة كبيرة من الله» أو «دعوة من الله». تصادف أن ساقي السيد أحضر له بعضاً من ماء المطر من الكعبة. شرب بيتس من الندى المقدس، ثمّ عندما تذكر أنه كسر صيامه، شارك أيضاً بالطعام. وبخه أحد الأصدقاء الذي سرد له حكايته على الشكل التالي: «يا لهذه الكرامة التي نزلت على رأسك! كان الله على وشكّ دعوتك إلى الطعام بطريقة أكثر من اعتيادية، حتّى ولو بالماء السماوي الذي نزل من بيته الخاص. فإن ذلك لن يفسد صومك، لكنك الآن ضيعت هذه المنفعة الكبيرة عبر إهمالك».

كانت هناك أربع قوافل في عهده ولكنها «تصل مكة معاً». القافلة المصرية ومعها السجادة المقدسة (الكسوة)، والقافلة من تارتاري عبر تركيا والأناضول ودمشق، والقافلة من جزر الهند الشرقية وفيها كثيرٌ من الناس الأغنياء والنخبة، والقافلة من مراكش بالبر إلى مصر. كانت هذه القافلة الأخيرة تتوقف في كلّ مدينة لتجمع الحجاج وكان يتمّ استقبالها

بهتافات الفرح وبرفع الأعلام وقرع الطبول. كانت النسوة تنظرن إلى القوافل من سطوح المنازل وهن يضربن سباباتهن برفق على شفاههن. كان الناس يستغربون كيف أن «هذه المدينة الصغيرة غير المرتبة ـ مكة» تستطيع احتواء هذه الجموع الكبيرة. لكن السكان «كانوا ينظمون أنفسهم بنظام كبير كي يقيموا أسواقهم». أما من كانوا يأتون متأخرين فقد كانوا يخيمون خارج المدينة.

كان لمكة نفسها انطباع كئيب في نفس بيتس. كانت تقع في مكان قاحل وسط كثير من التلال الصغيرة السوداء والحجرية، وكانت جميعها بارتفاع متساوٍ. تسلق واحدة منها واستطاع أن يرى إلى مسافة عدة أميال حولها، ولكن لم يستطع بصره أن يصل إلى نهاية التلال. كانت المباني بسيطة وعادية وليس فيها شيء من الجمال. وكان السكان فقراء نحاف الأجسام لفحتهم الشمس. ولم تكن الأرض تقدّم إلا القليل، أو لا شيء من «المؤن الكافية». كان المناخ صعباً، فبالرغم من أنه كان ينام على سطح المنزل، ويتغطى بقماش من الكتان يغطسه في الماء ويعصره، فإنه كان يستيقظ مرتين أو ثلاثاً في الليل ليجده قد جف.

بقي بيتس أربعة أشهر في مكة مع سيده. دخل الكعبة مرتين وعلق قائلاً: «أعترف أنّني لم أجد فيها شيئاً يستحق المشاهدة». بينما كان في فناء المعبد وبخه أحد الأتراك لأنه تمدد على الأرض وقدماه نحو الكعبة. قابل هناك مرتداً (مسلماً) إيرلندياً كانَ قد أمضى ثلاثين سنة على سفن من إسبانيا وفرنسا. وصف له هذا الرجل عبوديته السابقة: «مثل جهنم على الأرض». ومكة مثل «الجنة على الأرض». لقد نسي الآن لغته الأصليّة.

وعن عرفات كتب بيتس: «إنه في الواقع لمنظر يجرح القلب، أن ترى آلافاً من الناس في ثياب الضعة والعار، رؤوسهم عارية ووجناتهم تغطيها الدموع، وأن تسمع تنهداتهم وبكاءهم الحزين، يتضرعون بحرارة من أجل الصفح عن خطاياهم ويَعِدون بسلوك طرق جديدة في حياتهم».

تمت رحلة العودة إلى القاهرة بالبر، واستغرقت أربعين يوماً ولم يروا أثناءها أي شيء أخضر، الرمال والحجارة فقط. وتوقفوا ثلاثة أيام في المدينة لزيارة قبر النبي. 'ن الحجاج يمدون أيديهم نحو النوافذ، يتضرعون إلى «الميت» بقدر كبير من الاحترام والعاطفة واللهفة. وبينما كان السيد في موقف الخشوع هذا، سرقوا له منديله الحريري.

وعندما كان في الإسكندرية، كانت سفينة إنكليزية في الميناء، وكان على متنها رجل يدعى جون كليك من ليمسن Lymson، كان هذا زميلاً قديماً لبيتس في الدراسة، وكان قد رأى والده قبل مغادرة إنكلترا بفترة قصيرة. كانت محادثتهما تنقطع بسبب مخاوف بيتس أن يشكّ مرافقه المسلم بالأمر. لم يكن يشرب مع صديقه ولا يرافقه إلى المقهى. وجد طريقة يرسل فيها رسالة إلى عائلته، وكذلك غليوناً تركياً لوالده، ومحفظة صغيرة حريرية خضراء لوالدته. أضاف أنه يأمل من الله أن يجد له طريقة للهرب.

كان الطاعون ينتشر بسرعة في أنحاء الإسكندرية ووقع بيتس ضحية له. لكن إصابته كانت طفيفة وشُفي منها بفضل العلاج الذي اقترحه الإسباني: وهو أن يضع على الورم قطعة من بصل مشوي مغموسة بالزيت.

تابع حياته في الجزائر مع سيده، بالرغم من أنه ـ كما جرت العادة ـ كان قد استلم منه في مكة رسالة تحرير. كان سيده في عمر متقدم وكانت لبيتس توقّعاته المستقبلية من سيده. وعلى الرغم من أنه لم يعدّ عبداً، وكان تحرير المرتدين عن دينهم محدوداً، وكان قد ألقي القبض عليه يحاول الهرب من الجزائر، فإنه كان من الممكن أن يقتل بعد التعذيب ليكون مثالاً لغيره. وأخيراً أدّت معرفته بالتاجر الإنكليزي إلى تعريفه إلى القنصل البريطاني السيد بيك (Mr. Baker)، وناقشا أمر دفع الفدية. لكن القنصل لم يكن قادراً على جمع مبلغ مئة جنيه الذي كان مطلوباً. انفجر بيتس بالبكاء، لكن لم يكن بالمستطاع القيام بأي شيء في الوقت الحاضر. وبعد فترة طويلة جداً، سنحت له فرصة الهرب. أُرسلت بعض السفن الجزائرية إلى سميرنا (Smyrna أزمير) لمساعدة الأتراك وكان بيتس على ظهر واحدة منها.

حمل معه رسالة من السيد بيكر إلى القنصل البريطاني في سميرنا. أزعجت محتوياتها القنصل إلى حدّ ما، ولولا صديقه بيكر لم يكن ليعالج أمر هذه المحاولة الخطيرة. كان بيتس أيضاً قلقاً بشأن الحقيقة الأكيدة أنه إذا هرب، كان سيخسر أجور ثمانية أشهر والتوقّعات التي كان يتأملها من سيده. لكن ذلك كان ضعفاً مؤقتاً، وبعد انتظار مجيء سفينة إنكليزية عبثاً، صعد متن سفينة فرنسية بثياب أوروبية. وصلت السفينة بأمان إلى ليغورن، فخر ساجداً وقبّل الأرض.

كانت طريق عودته تمرّ في ألمانيا. كانت هناك محنة أخيرة بانتظاره في إنكلترا. في ليلة وصوله أُجبر على الدخول في خدمة الأسطول. لكن السير ويليم فوكنر أنقذه من هذا المأزق، وهو تاجر تركي كان قد تعرف

عليه في الشرق. ولشد ما كان فرح أصدقائه وأقاربه الذين كانوا قد نسوه منذ زمن طويل، عندما عاد إلى أكستر. كان أبوه لا يزال حياً لكن والدته كانت قد توفيت في السنة السابقة. ولما لم يكن راغباً أن يفاجئ والده بعودته، أرسل أخباراً بعودته عبر شخص ثالث. «هل أنت ابني جوزيف؟» سأله العجوز عندما تقابلا وجهاً لوجه أخيراً. ثمّ جاء به إلى البيت وأغلق بابه في وجه مجموعة من الناس الفضوليين وقدم شكره لله جاثياً على ركبتيه.

كان بيتس قد غاب مدّة ستة أشهر قبل أن يؤسر ويباع كعبد. أمضى خمسة عشر عاماً في الجزائر، وسنة في رحلة العودة. وصل أكستر في 1693. وتاريخ وفاته غير معروف بالتأكيد. لكن من المعتقد أنَّ ذلك تمّ في 1735. وهناك تأكيد كبير أنه في عام 1710 كان لا يزال حياً في بلده. من المسرّ التفكير أن عواصف أيام شبابه قد تلتها فترة طويلة من الطقس الحسن. لا بُدَّ أنه في الآونة الأخيرة أعاد سرد حكاية مشقاته وكذلك قسوة سيده الثاني ورحلته إلى مكة التي يمكن تذكرها على الدوام المرة تلو المرة. فهل هناك تباين أكبر من التباين بين صحاري الجزيرة العربية وأكثر البلدان جمالاً؟

باديا أي ليبليش

Badia Y Leblich

(علي بيه العباسي)

1222هـ - 1807م

مع بيتس تنتهي سلسلة المناوشات في غزوات المسيحيين لمكة. يمرّ أكثر من قرن قبل أن يوضع الاعتقاد الإسلامي بأن الأرض ستنفتح وتبتلع غير المؤمنين، على المحكّ. تصبح القوى الدافعة متغيرة. فقد ناب عن الإكراه حبّ المغامرة أو الرغبة المتقدة في معرفة تفوقُ معرفةَ الرحالة الإيطالي بارتيما (Bartema). وعلى رأس قائمة المجموعة المتقدمة يأتي باديا ذو الشكل المهيب، وهو الآن ليس عبداً حقيراً أو مرتداً عن الدين، بل صديق للباشاوات والسلاطين.

يُعرف باديا على نحو أفضل بلقبه المستعار،علي بيه العباسي. ولد في بيسكاي Biscay في 1766م. وحادثة الولادة أعطته الأفضلية على برتون. سهلت عليه لغته الأصليّة التشديد باللهجة العربية وبصورة خاصة الأصوات التي تخرج من الحلق والتي حيّرت من يتقن ثماني وعشرين لغة. يوحي اسم العباسي أنه سليل العباسيين وهي من السلالات العديدة

من الخلفاء الذين أتوا بعد محمّد. كان انتشار الإسلام أثناء حكم أبي العباس، وهو أوّل الخلفاء العباسيين وعم الرسول، لا مثيل له.

تلقى باديا تعليماً حراً وبعد ذلك أكمل معرفته ودرس الطبّ والفلك وعلم المعادن. وفي عام 1802 زار باريس ولندن وعاد إلى إسبانيا في ثياب إسلامية بعد سنتين. وفي 29 يونيو/حزيران سافر إلى طنجة في مهمة سرية. تحيط بباديا درجة معينة من الغموض. يقول البعض إنه كان عميلاً لنابليون ـ الذي كان لا يزال يحلم بعودة إمبراطوريته إلى الشرق ـ أو لملك إسبانيا. يعزو إليه البعض الرغبة في تأسيس مستعمرة أوروبية بين مراكش والجزائر لنشر الحضارة. ولا يعرف أحد مصادر ثروته الضخمة. في طنجة جلبت عرباته وهداياه الثمينة إلى السلطات الاهتمام العام. وأصبح شخصية هامة وتلقى من سلطان المغرب الهدية الرائعة؛ رغيفين أسودين من الخبز.

توثقت عرى الصداقة بين باديا وهذه الشخصية النبيلة. واستدعي إلى الحضرة الملكية في ميكوينزا Mequineza، وبينما هو في طريقه إلى هناك عن طريق كيب سبارتل Cape Spartel، رأى من بعيد أربعين سفينة من الأسطول الذي حارب في معركة الطرف الأغر Trafalgar فيما بعد. قدم له الإمبراطور نصيحة أب صغيرة؛ كان يريده أن يتزوج فقد كان الرجال غير المتزوجين غير محترمين. وحتّى إنَّه قدم له هدية: امرأتين من الحريم الملكي. أجاب باديا أنه نذر ألا يتزوج حتّى يزور مكة. فسبب ذلك عائقاً صغيراً؛ كانت المرأتان قد غادرتا الحريم ولا يمكن أن تعودا. لكن هذه الصعوبة ذُللت أخيراً عن طريق إقامتهما خارج الحريم. ولسبب غير معروف حاول السلطان أن يثني باديا عن مشروع

مكة، ولكن لما وجده صلباً، أعطاه خيمة جيدة مبطنة بقماش أحمر مزينة بحواف من الحرير.

وفي اليوم الثالث من أكتوبر/ تشرين الأوّل انطلق نحو طرابلس حيث وصلها في 11 نوفمبر/ تشرين الثاني. احتفظ بشخصيته المهيبة عن طريق إهداء الطعام والأدوية، وأثار ذعر وإعجاب العرب بجمع التقاويم والتنبؤ بالكسوف والخسوف. وفي يوم 26 يناير/ كانون الثاني غادر طرابلس في سفينة تركية، ولكنه لم يصل الإسكندرية حتّى 12 مايو/ أيار. وكان سبب ذلك سُكْر وعدم كفاءة الربان. عانى باديا من دوار البحر كثيراً، لكن عندما كانت السفينة تعاني من الصعوبات، سَمح أن يحملوه إلى السطح لكي يحدد خطّ الطول والعرض. وعندما وصلوا الإسكندرية كانت تضربها عاصفة قوية، وجاء إليه الربان والدموع ملء عينيه لكن تصرفه كان من طبيعة لا تليق به، بحيث إنَّ الجواب الوحيد الذي أطلقه باديا كان: «آه أيها القبطان!».

وفي الإسكندرية التقى باديا بشاتوبريان Chateaubriand ويبدو أن خلافاً بسيطاً حدث بينهما. لكن شاتوبريان وصفه بالسليل الجدير للسلطان العظيم صلاح الدين، وأنه أكثر الأتراك علماً وتهذيباً في العالم. في القاهرة اتّصل بجميع الناس المميزين بمن فيهم محمّد علي، باشا مصر. وبينما كان في مسجد السلطان قلاوون، رأى الخياطين يعملون في الغطاء (الكسوة) الجديد للكعبة.

كتب باديا أن لدى محمّد كثيراً من الذكاء العملي الجيد. لكن تنقصه الثقافة، وكانت نتيجة ذلك أنه يرتبك أحياناً في المحادثات. كانت هناك أيضاً نظرة ارتياب في عينيه. كان مديناً بمركزه الحالي إلى

قوته العسكرية الألبانية، وبالتالي لم يكن قادراً على كبح تجاوزاتهم وظلمهم للناس المدنيين.

وفي يوم 15 ديسمبر/ كانون الأوّل من عام 1806 التحق باديا بالقافلة الذاهبة إلى مكة. كان معه أربعة عشر جملاً وحصانان. تحرّكت الـ 5000 جمل التي شكلت القافلة ببطء. كان يركب في مقدمتها، يرافقه خادماه، ويضعان له سجادة ووسائد على جانب الطريق وكان يستلقي ويستريح لمدّة ثلاثة أرباع الساعة بينما صفوف الموكب تمرّ بجانبه. وحالما كان الجمل الأخير يتجاوزه، كان يمتطي حصانه ثانيةً ويكرر العملية.

في السويس، كما في جدّة ومكة بعد ذلك، ضَمنَ الإقامة التي كان أصدقاؤه العديدون وذوو السلطة قد وفروها له مسبقاً. لكن باديا كان محظوظاً جداً في البحر. صعد متن مركب شراعي (الدو)، كان قد شبهه بمراكب طروادة القديمة، بسبب أقسامه الكبيرة البارزة من المقدمة والمؤخرة. وكان أربعة أو خمسة رجال متواجدين في نقطة الحراسة كي يحذروا مدير الدفة من الصخور أمامه. لكن كان التحكم بالمسار والأشرعة القطنية الثقيلة، بواسطة الحبال المصنوعة من ألياف النخيل، ضدّ الريح والتيار، مؤلماً جداً بحيث أصبحت النجاة بعد الملاحة في البحر الأحمر تعتبر نجاة من هلاك محتّم. في إحدى الليالي، وفي وسط العاصفة، اصطدمت السفينة بصخر وتعالت صرخات اليأس. وبدأ الربان يبكي وينشج كالطفل. أمر باديا بإنزال القارب وقفز إليه ومعه عدة رجال. وبدؤوا يتحركون في الظلام. لامس القارب صخرة، فتجمد الدم في عروقهم. واهتز المركب من صدمة الموجة وبدأ يمتلئ بالماء. وهطل المطر والبرد بعنف. وأخيراً لاح لهم شعاع من ضوء القمر عبر الغيوم ما

مكّن باديا من معرفة موقعه، فأمسك بالدفة وأدار القارب إلى جهة اليابسة، كان طاقمه من المبتدئين في المهنة. اضطر إلى الغناء كي يجعلهم يجذفون مع الإيقاع. وفي اللحظة نفسها أصيب بدوار البحر. وبعد ثلاث ساعات من العذاب، عندما كان الفجر يبزغ، وصلوا البر. ولم يكن ذلك المكان ساحل الجزيرة العربية، بل جزيرة على بعد عدة أميال. وانتهت هذه المغامرة بأمان. التقطتهم السفينة التي كانوا ظنوا أنها ضاعت. فقد نجت من الكارثة وقطرتها سفينة أخرى. رحب الطاقم بباديا وأصدقائه بالدموع.

في جدّة حدث خلافٌ مع الحاكم. قبل الذهاب إلى المسجد، أرسل باديا خدمه كي يضعوا سجادة صلاته قرب الإمام. لكن الحاكم الذي قطع أمله من استلام سرج كان يتوقع أن يهديه إياه باديا، جعل سجادته توضع بحيث تداخلت مع السجادات الأخرى. عندئذٍ لمس الخادم باديا على كتفه وأمره بالانتقال. فأذعن تجنّباً للفضيحة. نتيجة لذلك احتجز الحاكم سجادته.

لكن باديا أعطى جواباً معبّراً فأهدى سجادته للإمام قائلاً إنه لا يستطيع استعمالها بعد الآن.

وفي جدّة شرب أوّل جرعات له من ماء زمزم. وبتلميح منه إلى الهدايا الكثيرة التي عرضت عليه من الماء، يقول: «شربت ودفعت».

في 22 يناير/ كانون الثاني 1807، عند الساعة 5.30 بعد الظهر غادر جدّة راكباً محفة، لأن الحمى كانت قد أوصلته إلى حال لا يستطيع معها تحمل حركات الجمل وهو يسير. كان الهواء صافياً، والقمر ساطعاً وكان الأعراب يغنون ويرقصون من حوله. شقت القافلة

طريقها عبر الصحراء الفسيحة المحاطة بمجموعات متفرقة من الجبال الحجرية. وفي حديدة (Haddah)، ذلك الوادي الرملي المحاط بصخور بركانية حمراء، توقفوا. وفي اليوم التالي عند الساعة الثالثة بعد الظهر ارتدوا الإحرام وتبعوا الطريق الذي كان يقودهم بين جبال بركانية سوداء وممرات ضيقة تزداد عمقاً حتّى مشارف مكة.

وبالنظر لمرض باديا خففوا من القيود التي تقضي بأن يدخل الحجاج حفاة. وحالما مرّ من بوابة الخلاص (النجاة) إلى فناء المسجد، أشار إليه الدليل كي يتوقف. ثمّ بإشارة من إصبعه إلى الكعبة، تساءل: «انظر، انظر هذا بيت الله الحرام». تأثر باديا وخاف، وكتب قائلاً: «هذا هو الفناء الكبير للمعبد»، «بيت الله (الكعبة) مغطى بقماش أسود من أعلاه إلى أسفله ومحاط بحلقة من المصابيح. والوقت غير العادي، وسكون الليل، ودليلنا الذي تحدّث أمامنا كشخص موحى إليه، كلّ هذه الأشياء أحدثت صورة مؤثّرة لن تمحى من ذاكرتي أبداً».

كان قد أُعّد لباديا بيت قرب المسجد، مجاورٌ لبيت شريف مكة. وبعد القيام بالطقوس المعتادة زار الكعبة ترافقه حاشية من الزنوج. وبعد أنْ صلّى في كلّ زاوية، غادر المبنى، واستعمل مرشدوه قبضاتهم كي يفسحوا الطريق عبر الحشود. دعاه الشريف بعد ذلك إلى لقاء. ورداً على سؤال عن موطنه الأصلي، أجاب أنه من حلب. بدا الشريف مقتنعاً وتحادث معه عن وضع أوروبا، وأخبره أنه يتكلم العربية كعربي أصلي، وعيّن موظفاً خاصاً ليرافق هذا الضيف المميز في جولاته في المدينة. يشرح لنا باديا فيما بعد من كان هذا الموظف: لقد كان حامي بئر زمزم. وكان هو المسمِّم الرئيس للشريف. كان يقدم الكأس المسمومة من النبع

المقدس إلى الناس المريبين. وكان رفض جرعة كهذه من البئر يعتبر قمة عدم التقوى. ولأن هذه الجرائم كانت تحدث وتفلت من العقوبة في المدينة المقدسة، كثيراً ما كان يحدث أنَّ الباشاوات أو الأئمة البارزين يرسَلون إلى هناك لسبب وحيد وهو التسميم. قابل باديا هذه العروض للصداقة بصراحة ساحرة، لكنه كان يحمل معه ترياقاً قوياً دائماً.

والشرف الاستثنائي الذي خُصّ به كان المساعدة في تنظيف الكعبة. كان باديا من الجموع المحتشدة في الخارج عندما أشار إليه الشريف ـ الذي كان يقوم بالمهمة بنفسه ـ كي يتقدم. انفتح الحشد، وصعد الدرجات وساعد الشريف في غسل الأرضية الرخامية. كان الماء وماء الورد المستعملين للتطهير يصرّفان من ثقب تحت الباب وكانت الجموع تشرب منه بِنَهمٍ. انهالت التهاني من الجميع على باديا بعد إنهاء الطقوس.

في هذا الوقت كان جيش الوهابيين قد دخل مكة. والوهابيون هم المسلمون المتزمتون. أسس هذا المذهبَ محمّد بن عبد الوهاب في مطلع القرن الثامن عشر. وهم ينكرون أن يكون لأي شيء الحقّ في التدخل بين روح الإنسان والله. ويعترفون بعظمة محمّد كنبي، لكنهم يحتجون على المكارم العظيمة الممنوحة له. وينكرون وحي القرآن (جميع المسلمين يؤمنون بالوحي) ويمنعون الحج إلى المدينة. وفي تلك السنة أعادوا قافلة دمشق التي كانت تنقل كسوة ضريح محمّد. والموسيقى والشعر ترف ممنوع، ومن يتمتع بهما في هذا العالم يجب أن لا يتمتع بهما في العالم الآخر. وحتّى التبغ كان لذة غير قانونية ولم يكن يسمح لأي شخص أدنى من الشريف أن يدخن غليونه في الزوايا.

لم يكن باديا يدرك أنَّ الوهابيين قد أصبحوا أسياد مكة منذ ثلاث سنوات وأن تدفقهم الحالي كان من أجل الحج. لقد كان ظهورهم مخيفاً حقاً. كان الناس يهربون عند اقتراب سيل الرجال ذوي المظهر المتوحش في صفوف متراصة تندفع عبر الشارع. كانوا يحملون البنادق ذات الفتيل والخناجر، وكانوا عراة من كلّ لباس سوى مئزر يسترون به عوراتهم، وفيما يخص «التباهي ببساطة اللباس» كانوا يفوقون البيوربتابيين الذين ذكرهم الروائي ماكولي.

لم تكن عبادة الوهابيين أقل عنفاً من سلوكهم العام. فأثناء تجمهرهم لتقبيل الحجر الأسود والطواف حول الكعبة، كسروا حلقة المصابيح بالبنادق التي كانت تتدلى فوق أكتافهم. اجتاحوا بئر زمزم بالقوة، وفرقوا حراسه وقطعوا الحبال وكسروا الدلاء. وأخيراً دفعوا لخدم المعبد بالبارود والرصاص، لا بالقروش والدولارات وفي أفضل الأحوال كانوا يدفعون بالقهوة.

لم يشارك باديا بالكراهية العامة التي ظهرت للوهابيين. وهو يعترف أن انطباعه الأوّل كان سيئاً، لكن بعد التعرف عليهم وجد صفاتٍ جيدةً واعتدالاً فيهم. لم يسرقوا أبداً وكانوا يدفعون ثمن كلّ ما كانوا يأخذونه ـ بالرغم من الدفع بالعملة الشاذة (الغريبة) ـ وكانوا يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء. بدا له أنه لو أتيح لهم الإرشاد المناسب لكان من الممكن أن يكونوا قابلين للتلاؤم مع الحضارة. ومع ذلك فقد كان المواطنون والحجاج يرتجفون لدى ذكر اسمهم، وتمّت محادثات بينه وبين عدة أفراد من طائفتهم على الرغم من تحذيرات الأصدقاء.

يقدم لنا باديا إحدى الصور المتألقة للمراسم في عرفات. كان

هناك تجمع من حوالي 83000 حاج. يقول: «عند عرفات فقط يستطيع المرء أن يكوّن فكرة عن المشهد المهيب الذي يوفره الحج. حشدٌ لا يحصى من الرجال من جميع الأمم والألوان يأتون من أطراف الأرض عبر آلاف المخاطر والمصاعب الكثيرة كي يعبدوا معاً الإله الواحد. ساكن القوقاز يمدّ يد الصداقة إلى الأثيوبي والزنجي الغيني، والهندي والفارسي يتآخيان مع أبناء البربر في شمال أفريقيا ومراكش. يعتبر الجميع أنفسهم أفراد عائلة واحدة. ليس هناك من وسيط بين الإنسان وربه؛ الجميع متساوون أمام الخالق. وفي شخصيته المسلمة يستخلص قائلاً: «يا لسوء الحظ، بالرغم من جميع الميزات، لسنا أفضل من المتدينين من الديانات الأخرى». وعند نهاية الخطبة، اندفعت الزوبعة البشرية نحو الممر الضيق الذي يؤدي إلى منى. هبت سحابة من غبار كان في وسطها رماح وبنادق وسيوف. وفي منى أصيب باديا بالصدمة من الطبيعة الشريرة للشيطان الذي أقام بيته في طريق ضيقة مليئة بالصخور. كانت الفوضى الكبيرة عامة هناك، أفرغ عدده المحدد من الحجارة على حساب جرحين حدثا لساقه اليسرى.

كان باديا أوّل أوروبي يقدم للعالم معلومات منظمة عن مكة، بعكس مذكرات المسافرين الموجزة، مثل بارتيما وبيتس. حدد موقعها بالملاحظات الفلكية ورسم خريطة ذات قياسات للمسجد: وقد نقحها بوركهارت الذي جاء بعده. ووصف حيوانات ونباتات المنطقة بينما اقتصر بوركهارت على أربعة أو خمسة منها وقليل من شجرات الشوك. لم يرَ إلا زهرة واحدة كانت على الطريق إلى عرفات، لكن بعض الحجاج منعوا الخادم الذي أرسله لقطفها من فعل ذلك، قائلين إن فعل ذلك في مثل هذا الوقت خطيئة. وقام باكتشاف يخص بئر زمزم قد

يصيب التقليديين بالصدمة: وهو أن جميع الآبار في مكة وحولها لها المذاق نفسه. وعزا ذلك إلى مزيج من التراب والمواد المفككة. ولكن «شكراً لله ليس لجميعها القوى الخارقة نفسها!» أضاف كمسلم جيد. وللأسف فقدَ مؤشّر مقياس الرطوبة ولم يستطع الاستعاضة عنها. كانت رؤوس الرجال كلها حليقة، وشعرات اللحى لا تتناسب، كما أنَّ النساء ـ بدوافع خرافية ـ رفضن أن يحققن رغبته.

وعن مكة نفسها كمدينة لم يجد إلا قليلاً من الأمور الجيدة يحكيها. فقد بدت له كمدينة ميتة. كان عدد سكانها يتناقص باستمرار. من 100000 في زمن الخلفاء العظام، تناقصت إلى 16000 أو 18000. كانت الشوارع جيدة والبيوت مبنية على نحو جيد، لكن ثلثيها كان منهاراً، ولم يرَ مبنى واحداً جديداً قيد الإنشاء. كانت الفنون والعلوم مجهولة بالكامل. كان من المستحيل أن تتمكن من تصنيع أشياء بسيطة كالأقفال أو المفاتيح. كان صانعو السلاح القلائل بدائيين في طرقهم، كانوا يستخدمون حفرةً في الأرض لتكون كيراً للحدّاد. لم تكن هناك مدارس نظامية أو نظام للتعليم. كان بعض أساتذة المستقبل يجلسون في أروقة المسجد المعمّدة ويقرؤون بصوت عال لجذب انتباه الطلاب المستمعين. كانت المدينة بكاملها تحيى على الوجود غير المستقر الذي يعتمد كليةً على حماسة العالم الإسلامي الخارجي الدينية، وكان هذا يتناقص مثل الشمس التي تستنفد نفسها باحتراقها. لم تكن هناك علامات للحياة والنشاط في شوارع مكة إلا في زمن الحج. وبعد ذلك يصبح نصف عدد السكان أصحاب بيوت للأجرة وحمالين الخ... والنصف الآخر خدماً للمسجد. وبعد انتهاء الحج، كانت مكة تعود إلى سباتها طيلة تسعة أشهر.

كانت الأشباح ـ لا الكائنات الإنسانية ـ تقطن مدينة الأموات هذه. كان خدام المعبد مجموعة من الهياكل العظمية المتحركة. تغطي أجسامَهم جلودٌ كالورق ملتصقة بعظامهم، عيونهم كبيرة غائرة وأنوفهم صغيرة وخدودهم غائرة حتّى العظم، وسيقانهم وأذرعهم ذابلة، عروقهم وأوتارهم بارزة. كان من الأفضل أن يعملوا كنماذج (موديلات) في علم التشريح أو العظام. يقول باديا: إن حدة الطبع الناتجة عن الحرمان كانت تظهر في المعاملة القاسية للعبيد بين المسافرين في الحجاز وحدهم. كان باديا يعزو هذا الفساد والتفسخ البطيئين إلى موقع البلاد المنعزل والتي بقيت، وهي المحاطة بالبحر من جميع الجهات إلا واحدة والمعزولة عن خطوط الاتّصالات السريعة ـ جاهلة للمكتشفات الحديثة وإنجازات الناس وأعمالهم والثورات. كان مدّ الحياة قد اتّجه نحو الغرب ولم تكن الجزيرة العربية بالنسبة للأمم العظيمة المتقدمة سوى أكثر بقليل من جزيرة أطلانتيس التي غمرها المحيط. فالتيار الحضاري الجارف أعاقته الكثبان الرملية والجبال الصخرية. وفي وسط هذه الأصقاع المهجورة تقع مكة مخنوقة في الصحارى مثل رجل مريض عزلوه عن ضجة العالم الخارجي. مرة في السنة كانت حياة الحج الصاخبة تنبض في شوارعها، لكن هذا لم يكن يدلّ على العافية، بل يشبه قوة الحمى أو الهذيان الغريبة.

يتوجب على من يميلون إلى عدم تصديق الصورة الكئيبة التي رسمها باديا لمكة وسكانها أن يتذكروا أنه رآها في ظروف غريبة. كان الوهابيون أسياد مكة الحقيقيين، وفي الوقت نفسه غير الرسميين. لقد منعوا أي ذكر لاسم سلطان تركيا (الخليفة العثماني)، لكنهم كانوا يحترمون الشريف من حيث المظهر. والشريف ـ بالرغم من طاعته لهم ـ

كان يحتفظ بشيء من سلطته السابقة. لم يكن سكان مكة يعرفون أسيادهم الحقيقيين؛ فقد كان هناك اختلاط وسوء إدارة في تطبيق القانون.

في يوم 26 فبراير/ شباط أعلن الوهابيون سلطتهم رسمياً: صدرت الأوامر للحجاج والجنود الأتراك وحراس الشريف بمغادرة المدينة. ومعهم انطلق باديا نحو جدّة.

وفي جدّة وصلت إلى مسامعه أخبار حادثتي تعدٍّ وظلم. وصلت سفينة إنكليزية وعلى متنها شحنة من الأرز. وجد الربان أنَّ السعر قليل جداً، وقرر أن يذهب إلى مكان آخر، لكن الشريف أمره أن يدفع رسوماً كاملة كما لو أنه باع الشحنة. وبعد مشادة حامية، أخذ الربان طريقه إلى خارج المرفأ عنوة. وهناك ربان إنكليزي آخر ـ كانوا قد رفضوا إرسال مرشد له أو السماح له بالرسوّ، وكانت سفينته قد اصطدمت بصخرة وحُجزت جميع بضائعه وأوراقه ـ طلبوا منه شهادة تثبت وقوع الحادثة له. ولكنها رُفضت أيضاً. وبعد أنْ تقدّم بعدة طلبات متتالية للسلطات من دون جدوى، لجأ إلى باديا أخيراً. ومن باديا أيضاً هذا الرجل المميز والكريم ـ لم يكن أحد يطلب معروفاً إلا ويلبّى.

سافر من جدّة إلى ينبع وفي نيته التقدّم نحو المدينة. كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، بسبب الوهابيين. قطعوا له طربق قافلته؛ طلبوا منه فدية، وأخذوا منه عدة أشياء بما فيها ساعته. لكنهم لم يلحقوا الأذى بأدواته الفلكية، لكنه أتلف صندوق حشراته كي يتجنب الشكوك، وألقى بنباتاته ومستحاثاته بعيداً. كان الوهابيون قد انتزعوا الزينة من مسجد المدينة ونهبوا كنوزه من اللآلئ والحجارة الثمينة التي يبلغ ثمنها

300000 دولار. وأنزلوا القبة الخضراء كي يبدؤوا أعمال إتلاف قبر النبي، لكن اثنين منهم سقطا وقُتلا فامتنع الآخرون بسبب المعتقدات الدينية. طُرد خدم المسجد من الجزيرة العربية. وأُجبر باديا في رحلة العودة إلى ينبع على الالتحاق بقافلتهم بعد أنْ منعوه رسمياً من متابعة رحلته إلى المدينة.

ليس هناك ما يقال إلا القليل عن رحلته إلى القاهرة، سوى أنه ـ وهو غير المحظوظ دائماً في البحر ـ قاسى من تحطم سفينته. على مسافة قصيرة من القاهرة قابله رئيس الأشراف ومعه حاشية من المماليك والألبان، وقادوه عبر الشوارع في موكب ظافر.

كانت رحلة باديا إلى أورشليم القدس ـ التي حدثت بعد ذلك بوقت قصير ـ تكملة طبيعية لخبراته في مكة. دخل مسجد الخليفة عمر المبني على موقع هيكل سليمان، والذي يحظر على المسيحيين دخوله. يدعى هذا المسجد ـ مثله مثل مسجدي مكة والمدينة ـ «الحرم» وهو أكثر الأماكن الإسلامية قداسة بعدهما. وهو يحتوي صخرة تدعى صخرة الله Sahhara Allah (قبة الصخرة) ـ وهي باستثناء مكة ـ أكثر الأماكن قداسة للصلاة. يقال إن محمّداً نفسه قد صلّى هناك، عندما أوصله الملاك جبريل (الإسراء والمعراج) إلى أورشليم. ولا يزال أثر قدمه ظاهراً على الصخرة.

عاد باديا إلى أوروبا بطريق دمشق وحلب والقسطنطينية. ولدى وصوله إلى موطنه الأصلي، في أثناء الغزوة الفرنسية أعلن نفسه من أنصار بونابرت، واستلم مهمة تحت رئاسة جوزيف أخي نابليون. وعندما طُرد الفرنسيون، ذهب إلى فرنسا حيث نشر حكاية أسفاره.

يذكر فيها سرابه الخادع أنه مسلم وكانت الفقرة الأولى منها صلوات وأدعية.

ومرة أخرى عادت أفكاره إلى الشرق. خامر ذهنَه مشروع استكشاف وسط أفريقيا. وكان الخدام الذين اهتموا به في الحج سيرافقونه الآن، كي يثبت أنه مسلم. وبهذا الهدف في ذهنه، انطلق نحو دمشق في عام 1818، لكنه أصيب هناك بالزحار ومات. وليس للزعم بأنه مات مقتولاً أساس قوي. دفن في قلعة البلقاء (Castle of Balka) على طريق الحج بين دمشق ومكة. هناك حكاية أخرى تقول إنه تمّ العثور على صليب تحت قميصه الداخلي فرفضوا أن يعطوه قبراً.

ليس هناك من شكّ في أهمية شخصية باديا. يضاف إلى مديح شاتوبريان له ـ والذي تمّ ذكره سابقاً ـ مديح فيكتور هيغو. فقد جرى بينهما لقاء في إسبانيا ووصفه هيغو بالمبدع والذكي. كانت لديه شجاعة كبيرة وهدوء أعصاب أثناء الخطر ومهارات علمية ولغوية ملحوظة. ومع ذلك ذكر بوركهارت في 1816 أن معرفته باللغة العربية لم تكن تامة، وأنه لم يفرض على أبناء اللغة أنه كان مسلماً بل كانوا متأكدين من ذلك. ونعت أيضاً طريقة سفره بغير الحكيمة، وقدرته على إجراء الملاحظات الممتعة محدودة بسبب الأبهة التي كان يتنقل خلالها. وبالرغم من خبرة بوركهارت الكبيرة وشخصيته غير الحسودة، فقد تكون المنافسة هي التي أملت هذه الشهادة به، وخصوصاً أنه يضيف أن حكايات باديا عن مكة قد منعت انتشار حكايته هو، لكنه كان يأمل في أن يعطي معلومات إضافية. في الواقع كان باديا بالنسبة لبوركهارت مثلما كانت المسيحية لهيوم Hume ـ الفيلسوف الاسكتلندي ـ الشيء

الوحيد القادر على أن يزعج هدوء الإنسان البهيج. لكن الحقيقة الجديرة بالذكر هي أن باديا، بينما كان راكباً على حصانه بين جبال أورشليم (القدس)، أوقفه وأساء معاملته رجل عجوز لأنه كان مسيحياً، لكي يهدئ من غضب أولئك الذين أعلن أمامهم شهادة الإيمان. وقد ظهرت دلائل احتماله الصعاب في رحلته إلى مكة. لم تستطع الثروة والشهرة أن تنقذاه من دوار البحر وتحطم السفن والمعاملة السيئة من الوهابيين. لكن منافسة بوركهارت لم تكن من دون تأثير، وللسبب ذاته الذي سافر من أجله كرجل ثري مع حاشيته من الخدم وله أصدقاء في المراكز العليا، يدهشني بشخصيته كمسيحي في مكة، لأنه أقل أهمية من بعض الحجاج من أصول أكثر تواضعاً ممن أتوا بعده. لكن علينا أن نكون شاكرين للفكرة البسيطة التي كان والتر بيجهوت (Walter Bagehot) قد دعاها واحدة من أكثر المفاتن الأدبية ندرة؛ السيرة الذاتية النبيلة.

أولريخ جاسبر سيتزن

Ullrich Jasper Seetzen

(حاج موسى)

1225هـ - 1810م

ولد سيتزن في سوفينغرودن في جفر **Jever** في عام 1767. وعندما انتقلت الإمارة إلى الإمبراطورة كاثرين في عام 1793 أصبح أحد رعايا روسيا. كان والده مزارعاً غنياً علّم جميع أبنائه تعليماً عالياً؛ وأبدى سيتزن في عمر مبكر ميلاً ملحوظاً نحو الميكانيك والطبّ بعلومه الأساسية. نال شهادته في الطبّ من جامعة غوتنغن Gottingen، وأثناء سفره في ألمانيا وهولندا لم يدرس علم الحيوان والنبات والتعدين فقط، بل المناجم والصناعات والاختراعات التقنية أيضاً.

بهذه المواهب العقلية الممتازة خطط للسلسلة الأولى من أسفاره إلى الشرق في عام 1802. أفلح في جعل كثير من الأشخاص المميزين يهتمون بمشاريعه. فقد زوّده البارون فون زاخ Baron von zach بأدوات فلكية، كما أنَّ الأمير أغسطس أف غوتا Augustus Of Gotha كلّفه بالحصول على عينات للمتحف الذي كان ينشئه، وحتّى الإمبراطور ألكسندر Emperor Alexaner ساهم بالدعم المالي. ولكن بالرغم من

ميل عقله نحو التطبيق العملي للعلوم، فقد كانت عادات سيتزن غير عملية، وفي أثناء رحلاته غالباً ما كان بحاجة للمال.

رافقه جراح يدعى جاكوبسن، وهو رجل رياضي قوي البنية، لكن صحته اعتلت في سميرنا واضطر للعودة إلى الوطن. كان سيتزن نفسه قصير القامة وذا مظهر غير مميز، لكنه كان يمتلك قوة تحمل كبيرة. كان يعاني كثيراً من جهازه العصبي المتوتر جداً. يصف لنا في مذكرته كيف أنه لم يجرؤ على استكشاف كهف كبير على نهر الدانوب، خشية أن يغتاله مرافقه الصربي. لكن هؤلاء الصربيين أنقذوا حياته عندما رمى نفسه في النهر أثناء نوبة من الكآبة. يصفه بوركهارت الذي أوحت له معلومات منقولة باحترام كبير لشخصيته، برجل الحقيقة الواضحة، الموهوب بالخيال الحيّ وحتّى المهارات الشعرية الكبيرة.

بقي ستة أشهر في القسطنطينية ومن هناك رحل إلى قلب آسيا الصغرى، وأمضى سنةً في حلب، وسنةً في دمشق وفي نهاية عام 1805، استكمل تدربه على اللغة والعادات العربية، وانطلق في سلسلة من الرحلات التي كوّنت شهرته. في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني 1806 سافر إلى البحر الميت مستكشفاً، متنكراً في هيئة متسول. رسم أوّل خريطة دقيقة ووزع المجموعة الحالية من الحكايات. ومن فلسطين سافر إلى القاهرة عبر شبه جزيرة سيناء. بقي هناك حتّى مارس/ آذار 1809، حيث تنتهي مذكرته. ونظراً لفقدان مذكراته اللاحقة، ليس من الممكن ترتيب إلا الخطوط العامة لأسفاره في الجزيرة العربية من رسائله إلى زاخ وأصدقاء آخرين.

كان ينوي استكشاف أجزاء من الجزيرة العربية وزيارة المدينتين المقدستين. كان لقب حاج سيكون ذا نفع كبير له في رحلات أكثر تبقى

عبر البلاد الإسلامية. انطلق نحو الجزيرة العربية بطريق البر، وفي طريقه تفحص آثار قناة السويس القديمة التي حفرها سيثي الأوّل Sethi I. وبعد عدة مرات من التأخير وتغيير الخطط انطلق في سفينة من السويس بين خمسة عشر حاجاً من جنسيات مختلفة إلى ينبع في 27 أغسطس/آب. كانت خيبة الأمل تنتظره. فقد أخبره تاجر من المواطنين، كان قد جلب له رسالة تعريف، أنَّ البلاد أصبحت حينذاك في يد الوهابيين، ومن الأفضل ألا يحاول الوصول إلى المدينة. لذلك تقرر أن يتجه إلى جدّة. وعندما مرّ في قرية ربيخ Rabigh على الساحل، وارتدى الإحرام، وسمع صيحات «لبيك»، فكر في العصور ما قبل الإسلامية، عندما كان الناس يبتهلون إلى باخوس إله الخمرة Bacchus بحماسة مماثلة.

بقي في جدّة حتّى أكتوبر/تشرين الأوّل في بيت تاجر صديق هو عبد الله (السقه) السكات Abdallah El Sukkath، يستكمل مبادرته للدخول إلى غوامض الإسلام. وأخيراً انطلق إلى مكة مرتدياً الإحرام. سافر سيراً على الأقدام ووجد الطريق آمنة وسهلة. كانت الساعة الثانية من صباح 10 أو 11 من شهر أكتوبر/تشرين الأوّل عندما وصل إلى مقصده. وعندما حلّ ضوء النهار، دخل المسجد يرافقه دليل. «تخيّلْ منطقة مستطيلة طولها 300 خطوة وعرضها 200 خطوة، محاطة برواق معمّد يتألف من ثلاثة أو أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية، وارسم لنفسك صورة وأنت في هذه المنطقة لحوالي ستة أبنية غير كبيرة جداً، كي تصبح لديك فكرة صحيحة عن هذا المسجد المقدس. وعلى جميع جوانبه تقوم بيوت المدينة في طبقات وفوق كلّ هذا تنتصب التلال، بحيث تظن نفسك في مسرح مدرج هائل، حلبته ساحة المسجد الكبيرة. وكل هذا يترك انطباعاً لم أكن أشعر به ولو قليلاً، في أي مسجد آخر».

وبعد قضاء شهر في مكة وتلقي تعليمات من عالم مقيم، عاد إلى جدّة واستغل فترة ما قبل الحج في زيارة إلى المدينة. غادر مع إحدى القوافل يرافقه خادم، وركب الاثنان في محفة. كانت المدينة تحت سلطة الأمير الوهابي، ولما كان الوهابيون يمنعون أي حج إلا إلى مكة، كان من الضروري زيارة قبر النبي خفية. وصف سيتزن القبر بالمبنى الهائل الحجم فيه عدد كبير من الأعمدة، وبعضها (تلك التي في الحديقة) ملبّسة حتّى ارتفاع تسعة أقدام، بالرخام واليشب والرخام السماقي الأحمر والخزف الإيطالي Majolica ومزخرفة بأحرف من ذهب. زار الأماكن داخل وخارج المدينة، لكنه استدعي فجأة إلى حضرة الأمير وخضع إلى استجواب دقيق. من أنت؟ ومن أين جئت؟ ولماذا بقيت هذه المدّة الطويلة، ولماذا اشتريت هذا العدد الكبير من الكتب؟ استرعت الحادثة الأخيرة الانتباه وسرت شائعة أنه تركي. وعندما سمع الأمير أنه لم يكن تركياً، بل معتنقاً جديداً للإسلام، أطلق سراحه. أفلح سيتزن في أن يضع ـ دون أن يلاحظه أحد ـ خريطة للمدينة وجوارها، وأن يرسم مخططات لها وللمسجد الذي يحوي قبر محمّد، أثناء صلواته، على ما يظهر.

كان قبل الآن يتطلع بشوق لزيارة مدائن صالح. وقد فشلت محاولتان للوصول إلى هناك. والآن يحاول للمرة الثالثة. كتب تاجر جدّة ـ عبد الله السكات ـ إلى أصدقائه في المدينة يشجعهم على منعه من القيام بهذه الرحلة التي قد تكون خطرة. كان البعض يرون مبرراً للشكوك في صدق تحوّله إلى الدين، وانتقدوه بأنه يتبع أهدافاً متطرفة. كانت مجموعة النقوش الشهيرة في مدائن صالح هي التي تجذب الرحالة الأوروبي.

عاد سيتزن مرة أخرى إلى جدّة ومكة (11 يناير/ كانون الثاني 1810)، للحج. كانت جموع الجمال كبيرة بحيث لم تستطع قافلته أن تدخل المدينة إلا بصعوبة. كان أكثر من ألف شخص يقومون بالطواف، وكان الكثيرون في خطر أن يُسحقوا حتّى الموت عند التدافع لتقبيل الحجر الأسود. وكان الشارع الرئيس محتشداً أيضاً بمن يركضون بين الصفا والمروة Safa and Marwa. كان هناك أعراب من جميع المناطق، ووهابيون من نجد ومراكشيون وزنوج من أعماق داخل أفريقيا، وفرس وأفغان وهنود وجاويون وتتار، ولكن لم يكن هناك من الأتراك سوى القليل. كان بعضهم يحملون أطفالاً على أكتافهم اليسرى، وكان مع أحد البدو زوجتاه الاثنتان، يضع ذراعاً حول عنق كلّ واحدة منهما كي يتجنب الافتراق عنهما في الحشد. وكانت مجموعات من خمسين أو مئة شخص يمسك بعضهم بأيدي أو ثياب البعض الآخر كي يشقوا طريقهم. وفي أماكن متفرقة، كان لا بُدَّ أن ترى رقبة جمل طويلة تترنح وتتمايل فوق الكتل البشرية المتراصة.

كان عبد الله السكات (السقه) قد استأجر بيتاً كبيراً في منى. وهناك في يوم 14 يناير/ كانون الثاني، راقب سيتزن من إحدى الشرفات الموكب اللامتناهي المتوجه إلى عرفات من جمال وخيول وبغال وحمير ومشاة. وفي اليوم التالي توجه إلى عرفات؛ «سلسلة من التلال الغرانيتية التي كانت تُرى من فوقها قمم لتلال أكثر ارتفاعاً من بعيد». كانت سفوح عرفات مغطاة إلى نصفها بالحجاج، لكن الحشد الكبير كان متجمعاً عند الأسفل. والجميع كانوا ينظرون بثبات إلى الجبل ويصرخون «لبيك» حتّى غروب الشمس. أمضى ليلة باردة في مزدلفة. كانت منى أثناء عودته تبدو مثل المسلخ. كان ذلك مهرجاناً كبيراً للفقراء

من الحجاج، إذ رأى عبيداً يجففون قطعاً من اللحم والأمعاء على النار، لتكون زادهم في رحلة العودة.

من المحتمل أن سيتزن قد عاد إلى نجد أو أبعد من ذلك مع القافلة الوهابيّة. كانت قافلة كبيرة، يحرسها مئة فارس مسلحين بحراب ثقيلة من الخيزران مزينة بريش النعام. لكن أصدقاءه العرب كانوا يمقتون الوهابيين. وكان سيفقد اعتباره عندهم، وربما يعرض نفسه للمضايقة.

بقي شهرين في مكة بعد نهاية الحج. وحمل معه مذكرات لا تنتهي. وبالرغم من أنه لم يكن رساماً متمرساً، فإنه أفلح في رسم خريطةٍ للمدينة والأراضي المجاورة، ومخططاً للمسجد وستة عشر رسماً لأجزائه المنفصلة. وقد شجب كلّ الرسوم الموجودة بما في ذلك رسوم نيبور (Niebuhr) ونعتها بأنها غير جديرة بالانتقاد. كما أنه عمل ملاحظات فلكية من بيت صديق متعدد الأمزجة جمع صفات الأستاذ وعالم التنجيم وواضع التقاويم والمؤذن وتاجر التوابل والحكَم في قضايا الضمير. وبالرغم من كلّ هذا كان لا يكاد يكسب عيشه. هذا الرجل خدعه: كان يقرأ له أرقاماً خاطئة، ويسفّه ملاحظاته.

تذوق سيتزن للمرة الأولى طعم الجراد في مكة، ووجده مقبولاً إذا كان مقلياً بالزبدة. وغالباً ما كان يأكله بعد ذلك في اليمن.

غادر مكة يوم 26 مارس/آذار وفي جدّة قابل الشيخ حمزة. ومنه كان قد تلقى التعليمات عند دخوله للمرة الأولى إلى مكة. كان حمزة هذا عالماً مثقفاً، لكن مقالاته في الحماسة الدينية جعلت سيتزن يقبل بتردد عرضه بمرافقته في رحلته إلى اليمن. قد يثبت لاحقاً أنه جاسوس، لكنه حتّى الآن كان رجلاً مخلصاً دون رياء، وقد يُستخدم من أجل

الأهداف العلمية في المستقبل. أقنعه سيتزن أن يحتفظ بمفكرة باللغة العربية للرحلة، ولأنه لم يكن قد رأى أي كتاب أسفار، لفت انتباهه إلى ما كان جديراً بالكتابة. كانت النتيجة مفكرة ممتازة. كان سيتزن يأمل أن يقارنها مع مذكراته.

وصل المسافرون إلى الحديدة بالبحر وبدأوا رحلتهم عبر اليمن. في جوار صنعاء أصيب سيتزن بمرض خطير بسبب البلل في عاصفة رعدية. كان مريضاً جداً بحيث كان يجب أن يُحمل عبر الجدول، لكنه أفلح في الوصول إلى صنعاء.

من صنعاء سافر إلى عدن، ومن هناك بالطريق البرية التي لم تُستكشف قبلاً إلى منى. جرى إرسال رسالتيه الأخيرتين في 14 و17 نوفمبر/ تشرين الثاني من منى. انطلق من ذلك المكان وهو ينوي أن يصل مسقط ومن هناك يسافر إلى البصرة، لكنه لم يكن قد أكمل أكثر من يومين من الرحلة عندما اغتيل. يلفّ الغموض مصيره، لكن يعتقد عموماً أنه مات مسموماً بأمر من إمام صنعاء. برزت شكوك حول صدق اعتناقه الإسلام، وحامت شكوك حول ممارسته السحر، وخاصة أنه كان يُنظر بعين الريبة إلى مجموعة من الأفاعي محفوظة في قنينة خمر. كان من المعتقد أنه كان من خلالها يستطيع التأثير على الطقس، وأنه في إحدى المناسبات سبّب فترة من الجفاف.

ظهرت الحقائق القليلة المعروفة فيما يخص وفاته إلى النور من قبل الرحالة جيمس سيلك باكنغهام (James Silk Buckingham)، وهو صحفي مؤسس صحيفة (Athenaeum). يذكر باكنغهام في رسالة إلى بوركهارت من منى يوم 9 فبراير/ شباط 1815 أن سيتزن أخذ معه في

رحلته الأخيرة سبعة عشر جملاً، ولم يكن متأكداً من طبيعة حمولتها، ولا السبب الذي جعل سيتزن يغري الأعارب بهذا العرض الكبير. وفي ظنه «أن لحية سيتزن الطويلة ومظهره العام ومعرفته باللغة العربية» لم تكن لتثير الشكوك. تبين أن مجموعته النباتية والمعدنية ذات قيمة تجارية قليلة وأرسلت إلى إمام صنعاء على أنها سحر. كان قد أودع مذكرته ومفكرته وخرائطه في عهدة إيطالي في مخا اسمه بنزوني (Benzoni). لكن هذا الرجل مات وتركها لسمسار هندي من شركة الهند الشرقية. ولدى وصول أخبار موت سيتزن احتجزتها الدولة.

لكن من أجل هذا السبب يمكن أن يكون سيتزن قد نافس على مكانة الشرف في استكشاف مكة مع بوركهارت. بعض كلامه الأخير جدير بالتسجيل. فهو يكتب؛ «لأنّني مسلم، سأحمل القرآن معي وأتبع كلّ تعليماته، تماماً كما في شخصية عابد الأصنام، وأعلق التعاويذ على جميع أنحاء جسمي. لا أظن أنّني سأشوه شخصيتي في عيون الناس المتنورين بسبب هذا الاعتراف، أو أن أفقد احترامهم الذي أقدره عالياً، لأنّهم يعرفون تماماً كيف يميزون الرسميات عن الأخلاق العالية، والقشرة عن اللب». تحوي الرسالة الأخيرة التي كتبها فقرة فيها إشارة كئيبة، على ضوء ما تلاها؛ «إذا عشت واحتفظت بصحتي فإنّني سأسرع ـ بعد انتهاء رحلتي في الجزيرة العربية ـ بأقصى لهفة إلى هدفي في جميع رحلاتي في أفريقيا، حيث آمل أن يفعل لي قناع الإسلام خدمة عظيمة بالقدر نفسه أيضاً».

يوهن لودفيغ بوركهارت

John Ludwig Burckhardt

(الشيخ الحاج إبراهيم)

1230هـ ـ 1815م

إن الشهرة التي سرقها الموت وضياع الأوراق من سيتزن، كانت من حسن حظّ بوركهارت. يشكل كتابه القاعدة لكلّ المعرفة الصحيحة عن مكة. ووصفُه للمسجد بشكل شامل. يعترف برتون أنه لا يمكن أن يجري عليه تحسينات، وينقله بالكامل إلى صفحاته. والمظهر العام للحج قد يتغير من عام إلى آخر، لكنه يتمسك بالأساسيات. ونادراً ما يتطرق إلى ملاحظة المغامرة الشخصية. ويستعيض عن ذلك بجمع وتنسيق الحقائق. لا نشعر بأي توتر أعصاب عندما يدخل المدينة المقدسة، ولا نشعر بالراحة عندما يغادرها. وانتحاله للشخصية الشرقية دقيق بحيث إننا ننسى وضعه المزيف. ومثل سقراط في زيون (Zion) ـ إذا استعملنا أقوالاً غير أقوال كارلايل ـ يشعر بوركهارت بالاطمئنان في مكة.

ولد في كيرتشغارتن في 1784، ودرس في جامعتي لايبزيغ وغوتنغن، وأصبح متأثراً بحب غير متحيز للمعرفة. هناك كثير من الأدلة

على طيب شخصيته وحسن تصرفه. في عام 1806 زار إنكلترا. كانت البلاد الوحيدة غير الخاضعة لفرنسا، واختارها بسبب نجاة أبيه بأعجوبة من الموت في عام 1796 من تهمة كاذبة بأنه جاسوس نمساوي. درس العلوم واللغة العربية في لندن وكامبريدج، وفي 1809 بينما كان في خدمة لجنة المنظمة الأفريقية، انطلق في رحلته الأولى. من المهم أنه قرأ في مالطا رسالة من سيتزن إلى تاجر إنكليزي يتحدث فيها عن خطّة أسفاره. قضى سنتين ونصف في سوريا من السنوات الخمس، وكان يضيف خبرة يومية إلى معرفته باللغة العربية، وقضى الفترة الباقية في رحلة إلى النوبة والإقامة في صعيد مصر.

في يوم 15 يوليو/ تموز 1814، وصل إلى جدّة يرافقه عبد أفريقي. تنكر بزي شحاذ، وكان منظره رثاً بحيثُ إنَّه عندما قدم كتاب اعتماده رفضوا أن يأخذوا منه مالاً. وبعد أنْ اتّخذ له مكان إقامة في خان عام، أصيب بحمى شديدة، وعند شفائه غير التام باع عبده لحاجته إلى المال. وكان السعر الذي حصل عليه ثمانية وأربعين دولاراً، وهذا كاف لدفع نفقات رحلته إلى النوبة التي دامت أربعة أشهر. وانفصل عن عبده الذي كان راضياً عن رفقته، بأسف. ارتدى الآن زيّ سيد مصري غير ثري، وكتب إلى القاهرة يطلب مبلغاً من المال. ومضت عدة أشهر قبل أن يستلم المبلغ، وكان من دون أية موارد مالية في ذلك الوقت، لذلك خطرت له فكرة تقديم نفسه إلى محمّد علي، باشا مصر الذي كان قد تحدّث إليه في القاهرة. كان محمّد علي وقتها في الطائف على وشكّ القيام بحملة ضدّ الوهابيين. أرسل بوركهارت رسالة إلى بوصاري ـ وهو طبيب الباشا الأرميني ـ متوسلاً إليه أن يشرح وضعه السيئ إلى سيده. وبينما كان ينتظر الرد، ذكر مراسل بوصاري في جدّة الذي أرسلت

الرسالة عن طريقه، اسم بوركهارت إلى يحيى أفندي، طبيب طوسون، ابن محمّد علي. تعرف يحيى أفندي على بوركهارت واستمع إلى قصته، وقدم له مالاً مقابل سند تدفعه القاهرة. وبعد وقت قصير جاء الرد من الطائف. سمع محمّد علي من بوصاري على نحو موضوعي، أن بوركهارت كان يتجول في جدّة بثياب رثة، فأرسل له رسولاً يستدعيه إلى الطائف، وأمر له ببذلة و500 قرش؛ وفي رسالة قصيرة، أمر الرسول أن يسير في الطريق إلى الطائف شمال مكة، وليس الطريق العادية التي تمر عبر المدينة. ولعلمه بعادات الشرق أنَّ من يتلقى هدية سينظر الناس إليه بازدراء ما لم يردها مضاعفة مرتين قَبِل بوركهارت كرم محمّد علي باشا. كان معنى الرسالة واضحاً له، لكنه لم يسبب له إلا القليل من القلق.

كان الوقت القصير الذي قضاه بوركهارت في جدّة كافياً للتحقق من أسباب ازدهارها. وعزا ذلك إلى كونها المرفأ، ليس لمكة وحدها أو لكلّ الجزيرة العربية، بل لمصر والهند أيضاً. كانت جميع السفن التي تبحر بين هذه البلدان ترسو في جدّة بأمر من شريف مكة الذي ازداد دخله من الرسوم الجمركية. في عام 1814 بلغت هذه الرسوم 400000 دولار. كانت تجارة القهوة وتجارة الهند الفرعين الرئيسيين للتجارة. وفيما يخص الاستيراد، كانت المدينة تعتمد بالكامل على مصر وجزر الهند الشرقية وصولاً إلى السلع الأكثر بساطة. كان أغنى رجلين في ذلك الوقت يملكان ما بين 100 و200 جنيه إسترليني، وبالرغم من ذلك لم يكن هذان الرجلان يستحيان من البيع بالتجزئة. وقد رأى بوركهارت منظراً غير لائق لأحدهما يتجادل مع أحد الباعة المتجولين بشأن سلعة يساوي ثمنها خمسة عشر شلناً.

في يوم 24 أغسطس/آب انطلق نحو الطائف. وبالرغم من الرسالة الهامة، كان الجزء الذي اختاره دليله من الطريق يقوده عبر الشوارع في الطرف الشمالي من مكة. كان القسم الأكبر من المدينة غير ظاهر بسبب تعرجات الوادي، لذلك كان منظرها غير كامل. بعد ذلك تقدّم في طريق منحدرة بين التلال والجبال إلى سفح سلسلة تدعى جبل كورا. ولقد دهش من رؤية واحة رأس الكورا على نجد في هذه الجبال، بدت له أجمل بقعة في الحجاز. كان الكثير من الأشجار المثمرة الأوروبية ينمو هناك بين حقول خضراء ترويها جداول. جرى القسم الأكبر من الرحلة في الليل وهذا ما كرهه بوركهارت، لكنه كان محظوظاً أن مرّ في هذه الواحة عندما كانت الشمس مشرقة. كانت كلّ ورقة نبات أو عشب مغطاة بالندى المنعش، وكانت الأشجار والجنبات تنشر عبيراً عذباً. من هذه البقعة البهيجة نزل مع مرشده إلى الطائف (24 أغسطس/آب). وكانت المسافة من مكة إلى الطائف 72 ميلاً.

ذهب فوراً إلى منزل بوصاري الأرمني. ورداً على بعض الأسئلة أجاب أن سبب وجوده في الحجاز هو نيته القيام بالحج. ومن ثمّ سيعود إلى القاهرة. لكن بوصاري سأل، بالرغم من جميع التأكيدات على النية الطبّية، إذا كان يفكر في زيارة الهند؟ فكان الجواب النفي الأكيد.

اجتمع بوصاري بمحمّد علي وقدم له هذه المعلومات، ولدى عودته استشهد بملاحظة هامة للباشا: «ليست اللحية وحدها ما يثبت أنَّ الإنسان مسلم حقيقي». وأجاب بوركهارت أن مشاعره قد جُرحت من التعليمات بأن يحضر إلى الطائف بدلاً من مكة. وأنه لن يذهب إلى الاجتماع بالباشا علناً ما لم يستقبله كتركي.

جاءت الأوامر إلى بوصاري كي يأتي ببوركهارت إلى حضرة الباشا. أزعجه هذا التصريح. لكنه أفلح في تسوية الأمور وتم تعريفه على بوركهارت. كانت المحادثة مع محمّد علي تتركز بصورة رئيسة حول السياسة الأوروبية. كان قد تلقى معلومات عن دخول الحلفاء إلى باريس وعن نفي نابليون إلى إلبا (Elba). وساورته شكوك أن إنكلترا، بعد أنْ عاد السلام إلى أوروبا، ستبسط سلطتها في الشرق وتغزو مصر. كان بوركهارت متعوداً على التنقل باسم إنكليزي، وأصبح من الواضح أنه كان يعتبر جاسوساً إنكليزياً جرى إرساله كي يتأكد من الأوضاع في مصر والجزيرة العربية، وكي يرسل لهم التقارير من الهند. كانت خطوته الأولى لتبرير نفسه نجاحه في نفي تهمة الهرطقة. تولى اختباره اثنان من أقدر أساتذة الفقه في الجزيرة العربية في القرآن، وصرحا أنه لم يكن مسلماً فقط بل كان مسلماً مثقفاً جيداً.

لم يسمح له حتّى الآن بدخول الطائف. كان يومياً له اجتماعات ودية مع الباشا، لكنه لاحظ أنه مراقب مراقبة دقيقة. وجهوا إليه يوماً سؤالاً عما إذا كان يحتفظ بمذكرات. فقد كانت تهمة الجاسوس الإنكليزي لا يمكن نزعها بسهولة. لكن فكره الثاقب اخترع علاجاً لهذا السجن المهذب. بدأ يتصرف بطريقة تجعل مضيفه بوصاري تواقاً إلى التخلص منه. فاستولى على أفضل غرفة في المنزل وكان يطلب وجبات الطعام في أوقات غير عادية، ويبقي الخدم على نحو دائم معه. صرح أنه مرتاح جداً وأن مناخ الطائف كان يفيد صحته كثيراً بعد الحمى التي أصابته في جدّة. وأنه كان يأمل في إقامة طويلة. لكن بوصاري الذي منعته قواعد الضيافة الشرقية أن يبدي انزعاجه من هذا التصرف، أقنع محمّد علي أنَّ هذا الغريب ليس جاسوساً ودبر أمر مغادرته إلى مكة فوراً.

كان في مجلس الباشا قاضٍ من اسطنبول، اعتقد بوركهارت من تصرفاته أنه ينوي اتّهام محمّد علي أمام الباب العالي بالتخطيط كي يزور رجلٌ مسيحيٌ المدنَ المقدسة. هل أفلح في إقناع محمّد علي أنه مسلم حقيقي، أم لم يفلح؟ بقي هذا الأمر سراً. وعندما التقيا في القاهرة لاحقاً، أكّد الباشا أنه لم يكن مقتنعاً تماماً، لكن صداقته للأمة الإنكليزية جعلته يغض النظر. ربما كان يخشى أن بوركهارت، ـ مثله مثل باديا ـ قد يعلن في أحد كتبه للعالم هذه الخدعة وأن محمّد علي كان مسلماً سيئاً وليس غبياً.

وفي يوم 7 سبتمبر/أيلول غادر بوركهارت الطائف إلى مكة. كان مرافقوه على الطريق ثلاثة جنود من الأرناؤوط التقى بهم بالمصادفة. وفي المكان المعين ارتدى الإحرام. وبعد ذلك بقليل، وبينما كان يعبر وادياً يسمّى وادي نعمان، هبت عاصفة مطر وبرد عنيفة يرافقها رعد وبرق. وفوراً أصبح الوادي يعجّ بالماء حتّى عمق ثلاثة أقدام، بينما الجداول التي كان عرضها خمسة أقدام صارت ترغي وتزبد على الطريق وصار من المستحيل عليهم التقدّم، فلجؤوا إلى جوانب الجبل وكانوا في خطر دائم من أن تجرفهم الشلالات النازلة. وبعد حوالي ثلاث ساعات توقف المطر وخفت السيول فاستطاعوا التقدّم، يسوقون حميرهم أمامهم على الأرض الزلقة. جعلت الغيوم الليل بهيمياً بحيث لا يمكن السير فيه، وكادوا يتجمدون من البرد. وأخيراً، في جوار عرفات، اكتشفوا وجود مقهى صمد أمام الماء. قضوا ليلتهم هناك بعد أنْ أشعلوا ناراً بكثير من الصعوبة. وفي اليوم التالي دخل بوركهارت مكة. هجره مرافقوه فوراً فأصبح وحيداً.

عند بوابة المسجد، بادره عدة مرشدين بالكلام. وبعد أن اختار

واحداً منهم شرع في الطواف وتقبيل ولمس الحجر الأسود، والشرب من زمزم: كان مرشده يجري في أثره، وهو يتلو الصلوات اللازمة. وبعد ذلك ركض سبع مرات بين الصفا والمروه وأدى العمرة. يصف لنا هذه الطقوس ويسجلها بأدق التفاصيل.

لم يجد مكاناً للإقامة فوراً، لكنه اكتشف أخيراً مرشداً فقيراً أجّره غرفة مقابل خمسة عشر قرشاً في اليوم. كان هذا الرجل أحد أفراد طبقته السيئي السمعة. ولم يفاجأ بوركهارت عندما سرقت بضعة أشياء من كيس رحلاته، لكنه شعر بالسخط بسبب شيء من الوقاحة والدجل لا مثيل لهما. ففي يوم العيد دعا المرشد أصدقاؤه إلى عشاء فاخر في غرفة بوركهارت الذي كان مدعواً أيضاً. وفي اليوم التالي قدم له فاتورة.

كان ذلك شهر رمضان وكانت آلاف المصابيح تضاء كلّ يوم في المسجد وكان جميع الأجانب في المدينة يلجؤون إلى هناك يستريحون ويسيرون ويتحدثون. كان هذا المشهد يبدو لعيني بوركهارت مشابهاً للقاء أوروبي إلى حدّ بعيد.

في يوم 15 سبتمبر/ أيلول انطلق مرة أخرى إلى جدّة ليستكمل الاستعدادات لرحلته. لكنه اضطر للتأخر مدّة ثلاثة أسابيع بسبب التهاب في ساقيه بسبب قرص البعوض. وفي ذلك الوقت التقى مصادفةً بـ: ج. س. باكنغهام وبمرتدٍ (يقصد بذلك من قام بتغيير دينه من المسيحية إلى الإسلام) اسكتلندي شاب، اسمه عثمان. بعد عدة أشهر كتب إلى باكنغهام من مكة يقول: «إن محاولاتي حقيرة ومهينة لأنها تجبرني على الاختلاط والعيش على نحوٍ حصري تقريباً ولسنوات كثيرة مع من يتصفون بسوء السمعة والدناءة والسفالة في طبيعتهم الإنسانية. حقاً إنني آمل أن أنتزع إكليلاً من أيدي الشهرة».

وفي حوالي منتصف أكتوبر/ تشرين الأوّل عاد إلى مكة، يرافقه عبد اشتراه مؤخراً. ولم تتكرر تجربة الإقامة مع المرشد. استأجر بيتاً في حيّ غير مطروق من المدينة. كانت هناك عدة أشجار أمام نوافذه، وكانت خضرتها، في ذلك المكان القاحل، تبهج النفس أكثر من أي منظر طبيعي آخر في ظروف مختلفة. وبعد أنْ انتحل شخصية مملوك، اختلط مع الحجاج الأجانب. لم يكن يخشى سوى القليل لو أنه اكتشف أمره. كان من الشائع في مكة أثناء الحج انتحال شخصية مزورة لتجنب الخداع. ويذكر أنه لم يستمتع في أية رحلة شرقية أخرى أكثر مما استمتع في رحلة مكة.

استغل بوركهارت الوقت ما قبل الحج لإجراء البحوث. وصف مكة بالمدينة الجميلة طولها حوالي 1500 خطوة. كان الحاجز الطبيعي من التلال المحيطة يعوّض عن عدم وجود الأسوار. كانت الشوارع أكثر عرضاً مما هي في معظم المدن الشرقية وذلك لتسهيل تدفق الحشود في وقت الحج. كانت البيوت مبنية بالحجارة الرمادية الكئيبة بخلاف بيوت جدّة البيضاء اللامعة. كانت كثير من النوافذ (من الطراز الشرقي) تطل على الشارع وكانت هذه النوافذ تبرز من الجدران، وكانت منقوشة بإتقان وذات ألوان مبهرجة. كانت المنازل شامخة وكان لكلّ منها مصطبته، ولأن النسوة كن يمضين وقتاً طويلاً على هذه المصاطب فقد كن يحتجبن عن الرؤية بواسطة حواجز. كان الكثير من الدمار قد حدث بسبب الأمطار الغزيرة، بحيث لم يكن هناك أي عينات هامة للفن والعمارة أو أي بقايا من الهياكل الإسلامية العربية. كانت الشوارع معتمة بصورة كلية ليلاً والعناية بها رديئة، فقد كانت النفايات من البيوت ترمى فيها لتصبح إما غباراً أو وحلاً تبعاً للموسم.

يصف بوركهارت مختلف أحياء المدينة بدقة متساوية. الشارع الرئيس هو Messai (شارع المسعى)، وقد سمي هكذا على اسم السعي أو الركض بين الصفا والمروة الذي كان يتمّ هناك؛ يعبر هذا الشارع مكة من طرف إلى آخر، ماراً عبر بوابات المسجد. وفي هذا الوقت من الحج كان يشبه أحد أسواق بازار القسطنطينية. كان في الشارع الكثير من المقاهي، وكانت «الخمرة الممنوعة» تباع في اثنين منها علناً. وهنا كان أيضاً صانعو الزجاجات من الصفيح، يحمل فيها الحجاج ماء زمزم إلى منازلهم. كان شارع (المسعى) (Messai) أيضاً مكاناً للإعدام نظراً لاتّساعه وكبره.

كان سكان المدينة ـ كلّ حسب عمله ـ يتبعون قانون العزل. كان هناك الحيّ الرخيص والوسخ قرب المسجد، يؤمه الحجاج الأتراك كثيراً. كانوا ينهضون ليلاً، عندما تقلقهم أحلامهم، ويقومون بالطواف، ويشربون من ماء زمزم ويعودون للنوم. وكان هناك حيّ المرشد (المطوفين) (المرشدين)، وحي المحلات التجارية التي تتاجر بالحبوب والزبدة والتمر وحي الحمامات. وفي أحد الشوارع كان الحجاج الزنوج قد أنشؤوا سوقاً للحطب، وفي آخر كانوا يحتفظون بالجمال والأبقار. كان الخصيّ الذين يحرسون المسجد، والنجارون ومنجدو الأثاث والبقالون وباعة الأدوية يتبعون القانون نفسه. قبل سبع سنوات شكا باديا أنه كان من المستحيل صناعة قفل أو مفتاح. لكن بوركهارت يتحدث عن الحدادين وصانعي الإقفال. كان الذهب والفضة موجودين في «الشارع الصيني»، كان هناك حيّ للعرب الأغنياء والبدو والتجار الهنود. كان واحد من هؤلاء يملك ثروة تبلغ بضعة آلاف من الجنيهات الإسترلينية، ساوم بوركهارت مدّة ساعة ونصف على شال من الموسلين

[نوع من القماش كان ينتج في مدينة الموصل] لا يسوى سوى أربعة دولارات، وهذا تكرار لما حدث معه في جدّة. كان هناك شارع للنساء العموميات (بائعات الهوى)، وكذلك طبعاً سوق العبيد. كان البدو الذين يتاجرون بالقمح والتمر والمواشي يسكنون في بيوت كالخيام. وكان في الحيّ الجنوبي الغربي قافلة من السماسرة وبدو يقومون بعملية النقل بين مكة وجدة. ومن هنا أيضاً كانت تنطلق قافلة من الحمير لتوصل الرسائل يومياً بين المدينة وميناءها، وتكمل رحلتها في خمس أو ست عشرة ساعة. كان عدد من سكان المدينة الثابت ما بين 25 و30 نسمة. وكان التناقص الحديث في عدد السكان يعود للغزو الوهابي.

كان سكان مكة من الأجانب نسبياً. قد نجد بعضاً من أفراد قبيلة قريش التي كانت مسيطرة في زمن محمّد. وفي كلّ سنة كان يبقى فيها بعض الحجاج. والذين يفعلون ذلك كانوا يتزوجون أو يتعايشون مع عبدات من الحبشة. وكان اللون المصفر الشاحب المائل للبني لأهالي مكة يعود للسلالة الحبشية. وبالرغم من الأصول المتعددة، اختار سكان مكة العادات والثياب العربية. في الواقع كان اللباس موقراً جداً. فالغني قد يمتلك أربعين بذلة. وفي كلّ عيد كانت كلّ طبقة ترتدي زيّ الطبقة التي تفوقها. «كان الشخص يفضّل أن يدعى سارقاً على أن يسمح لمن هم في منزلته أن يتفوقوا عليه في الثياب والحلّي المبهرجة». كانت العائلات ذات الموارد المالية المتوسطة تمتلك عبيداً من الزنوج. وكانت الخليلات في معظمهن من الحبشة. «ليس هناك أحد من أبناء مكة يفضل الهدوء العائلي على إرضاء شهواته».

كانت التجارة مهنة سائدة. وكانت مكة تعتمد على البلدان الأجنبية

على نحوٍ كلي من أجل الحصول على السلع اليومية. كان الحرفيون نادرين وذوي مهارات متدنية، فباستثناء بعض مصانع الفخار، لم يكن هناك مصنع واحد. لذلك كانت التجارة قائمة على مقياس واسع وبخاصة في زمن الحج. كان شارع المسعى (Messai) وقتئذٍ يشبه معرضاً، يتبادل فيه التجار الأغنياء منتجات بلدانهم، فيما بينهم أو مع أبناء مكة مقابل بضائع الهند التي كانت تباع بالجملة وبربح يبلغ 30%، وبالتجزئة 50%. كانت أرباح الاحتيال تجنى من حجاج يجهلون اللغة العربية عبر اللجوء إلى السماسرة أو المترجمين. أما أبناء مكة الذين لم يكونوا يستطيعون الاتجار بالبضائع الهندية، فقد كانوا يخزنون القمح والأرز والبسكويت. عند اقتراب موسم الحج كانت أسعار المؤن ترتفع بسبب الحاجة لتقديم الطعام للألوف من الرجال والجمال، وكان كلّ شيء يباع بسعر فاحش.

يمكن توجيه الانتقاد إلى سكان مكة أنّهم بحقّ شعب من أصحاب المتاجر. كان أكثر العلماء ثقافة ينغمسون في التجارة كما هي الحال عندنا؛ فكثير من الأشخاص غير العمليين يضاربون في أسواق البورصة. كانت خدمة المعبد (الحرم المكي) مهنة بديلة. كان الخصي ومَن يرتبطون بالمسجد يتلقون أجوراً ليس من الحجاج فقط، بل يقبضون رواتب نظامية من عائدات المسجد. وكانت هذه العائدات كبيرة لأنه كان يمتلك أراضي وبيوتاً في كثير من البلدان البعيدة، كما كانت تحوّل مبالغ كبيرة من سلطان تركيا وباشا مصر سنوياً.

كانت مهنة المرشد أو (المطوف) تشمل الأفراد الأكثر كسلاً ووقاحة وسوءاً في مكة. وقد ذكرنا سابقاً الحيلة التي لعبها أحد هؤلاء

الرجال على بوركهارت. وبعد عودته إلى مكة، لسوء حظه الكبير التقى بالمطوف غير الأمين في الشارع. أصبح هذا الرجل فوراً زائراً منتظماً لمكان إقامته الجديد، ولم يكن يتقاسم معه الوجبات فحسب، بل كان يأخذ معه بعض المواد الغذائية في سلته.

كانت أعمال غريبة تحدّث لصالح هؤلاء المرشدين. فهناك قانون يستثني النساء من الحج، يقضي أنَّ المتزوجات يجب أن يكون أزواجهن برفقتهن. لكن قد يتصادف أن ترغب أرملة غنية في رؤية الأماكن المقدسة. لذلك ترتبط بعقد زواج اسمي مع المرشد، فيرافقها إلى مكة وعرفات بصفة زوج. وفي نهاية الطقوس يتوجب على المرشد طلاقها. فإذا رفض فإن الزواج يكون ملزماً.

كانت المبالغ الكبيرة التي تتدفق إلى داخل مكة سريعاً ما يبددها السكان على اللباس والمساكن والأثاث والتسلية وإشباع الشهوات. وحتّى في بيت صاحب المتجر الصغير قد ترى السجاد الفخم والمساند والأرائك المطرزة، والخزف الصيني الغالي والنراجيل المطعّمة بالفضة. يأكل اللحم الفاخر كلّ يوم ويدخن التبغ الغالي، وإناء قهوته متواجد دوماً. لكن ابن مكة في أيام بوركهارت لا يخلو من الصفات الحسنة، كان نشيطاً ذكياً ومهذباً. كان مولعاً بالنكتة، ويمزج الأحاديث في الأمور الهامة بالضحك ويطلق التوريات والأمثال الشائعة. كلّ هذا ـ مضافاً إليه الكبرياء الفطري ـ كان يجعلُ التعرّفَ عليه أمراً بهيجاً وعرضياً. كان مهذباً بامتياز مع أبناء وطنه والغرباء. وكان حسه بحسن الضيافة يستيقظ لأقل الأسباب. «متى ستشرفني إلى بيتي وتتناول العشاء معي؟» كانت هذه طريقة حديثة. وهي صفة ربما ورثها من أسلافه البدو.

وكان سبب كبرياء ابن مكة انتماءه إلى مدينة تحت رعاية خاصة من الله ما ضمن له الأمان من العبودية المذلة لكثير من سلالات الشرق الأوسط. لم يكن مثقفاً. «لا يمكن أن تتوقع أن يزدهر العلم والمعرفة في مكان كانت العقول فيه مشغولة في البحث عن الربح والجنة». ومع ذلك كانت اللغة نقية وأنيقة. كانت تشبه اللغة العربية القديمة المكتوبة، وكانت تعتبر الدراسة الأكثر أهمية من أي دراسة أخرى بعد الشريعة.

مكة فردوس الشحاذين. فهم يعتمدون على نحوٍ كلي على إحسان الغرباء لأن ابن مكة يعتبر نفسه مميزاً بالاستغناء عن هذه الفضيلة. تحكي كثيراً من الحكايات عن إلحاحهم وغطرستهم. فعندما كانت تلبّى طلباتهم، كانوا يقولون؛ إن الله، ليس أنت، هو من منحني هذا.

بينما كان بوركهارت منشغلاً في هذه البحوث، وجد أنَّ الوقت يمضي على نحو مرضٍ. كان قد تعرف على بائع عطور، وكان يمضي ساعتين من اليوم جالساً على المقعد أمام محلّه يدخن النارجيلة. هنا كان يسمع آخر الأخبار. وصول حاج عظيم، تحرّكات جيش محمّد علي، الدعاوى، التجارة أو السياسة الأوروبية، وأقدار نابليون: كانت المواضيع التي تناقش. كان يكرس بعض أقسام النهار للمقاهي، حيث كان يتحادث مع البدو ويقضي الأمسيات في فناء المسجد الكبير. وبينما كان يجلس على سجادة، يتمتع بالنسيم الذي كان دائماً يهب هناك، كان يطلق العنان لذاكرته في البقاع البعيدة.

كانت الجموع تتقاطر إلى المسجد عند المغيب من أجل صلاة المغرب، كانوا ينضمون إلى الستة أو الثمانية آلاف حاج حول الكعبة في حلقات تزداد اتّساعاً، ثمّ يأخذ الإمام مكانه قرب بوابة الكعبة،

وكانت الجموع كلها تقلد سجداته. كان هذا المنظر والذكريات الماضية البعيدة تطبع نفس بوركهارت بمزيج من العجب والرهبة.

لم يكن المسجد وحده مضاءً بألوف المصابيح، بل كان كلّ حاج يملك فانوساً خاصاً. «كان تألق هذا المشهد والنسيم البارد الذي كان يعم الساحة، هما السبب في جعل الجموع تتريث هنا حتّى منتصف الليل. كانت الساحة ـ وهي المكان الوحيد الواسع المكشوف في المدينة كلها ـ تسمح بدخول النسيم العليل عبر جميع بواباتها، لكن أبناء مكة يعزون ذلك إلى رفرفة أجنحة الملائكة التي تحرس المسجد». وفي إحدى المرات جاء حاج وحيد من دارفور فجأة ورأى هذا المشهد، أصابه منظر الكعبة وسط هذا الخضم من الأنوار بالرهبة فخرّ ساجداً. وبعد أنْ نهض بعد فترة قصيرة، نادى ربه صائحاً «يا إلهي! خذ روحي الآن، فهذه هي الجنة».

كانت روح القداسة تعمّ المسجد في أوقات الصلاة فقط. وفي الأوقات الأخرى كانت تتردد فيه أصداء محادثات الناس قليلي الأشغال وضحكات الأولاد. كان الهنود الفقراء يمضون كلّ أوقاتهم تحت الأروقة ذات الأعمدة. وكان التجار يتقابلون هناك لمناقشة أمور العمل. وكان وجود المرضى يضفي على المكان جو المستشفى. لم يكن الطبخ مسموحاً ـ طبقاً لبوركهارت، لكن الحجاج الأوروبيين الآخرين لاحظوا وجوده. كان الخدم الذين يحملون الأمتعة إلى مختلف أقسام المدينة، يعبرون المسجد لاختصار المسافة. كان هناك الكثير من حوادث قلة الاحتشام التي لا توصف، والأعمال الإجرامية ترتكب في حرمه.

في مناسبتين فريدتين زار بوركهارت داخل الكعبة. جعلت جموع الناس من المستحيل إتمام الركعات الثمانية التقليدية والسجدات الست عشرة داخل الحرم المكي. «بينما يكون أحدهم يصلي، يسير آخر فوقه». كانت الأنّات والولولات تملأ الغرفة، وبدا له أنه يرى المشاعر الصادقة والندم المخلص في وجوه كثير من الزوار. كانت الحرارة شديدة جداً بحيث حَمَلَ بضعة أشخاص من فقدوا وعيهم إلى الخارج. سمع بوركهارت كثيراً من الحجاج يدينون جشع المسؤولين في أقدس بقعة على الأرض. وكان هو نفسه يرى أن أهل مكة لا تهمهم هذه التوبيخات، لاحظ هراوات الخصي عند المدخل تهوي بعنف على من لا يضعون لهم في أيديهم بعض الأجور. وفي وقت زيارته الثانية، كان قد تمّ تزيين الكعبة بستارات جديدة جلبها محمّد علي معه من مصر. وبيعت الستائر القديمة بسعر دولار واحد لكلّ قطعة مربّعة ضلعها ست بوصات.

كانت أشهر أغسطس/آب وسبتمبر/أيلول وأكتوبر/تشرين الأوّل التي قضاها في مكة حارة على نحوٍ زائد. كانت الصخور التي تحيط بالوادي تصدّ الريح وتعكس أشعة الشمس بحرٍّ مضاعف. ونادراً ما كان يتمتع بصحة جيدة، لكن لحسن حظه كان قد خلا من أي مرض خلال أيام الحج الخمسة. كان قد عانى من الكلل والكآبة، وجعله تأثيرهما قليل الجرأة، وملأ عقله بالخوف من التعب والأخطار.

وأخيراً وصلت قافلة الحج الكبيرة. قد تكون الحرب مع الوهابيين وحالة الفوضى في البلاد مسؤولة عن الانحطاط بالمقارنة مع السنوات السابقة، لكن بوركهارت قرأ تناقصاً في الحماسة الإسلامية. جاء الكثيرون بحراً كي يتجنبوا صعوبات الرحلة البرية. في الأزمنة الغابرة

كان يقال إن هذه الصعوبات تزيد من ثواب الحج. في رأيه كانت التجارة الدافع الرئيس لتأديته.

قادت القافلة السورية الطريق إلى عرفات. وجاءت بعدها المصرية. ويليها الحجاج الباقون ثمّ عامة الناس من مكة. كانت الشوارع تكتظ بالناس بحيث كانت تمر ساعات قبل أن ينتهي سيل الحجاج من المدينة. كان بعض الحجاج يقرؤون القرآن وهم على ظهور جمالهم، والآخرون يصلون وغيرهم كانوا يلعنون السائقين أو يتخاصمون مع جيرانهم لأنّهم سدوا الممر.

في عرفات كان هناك شارع طويل من الخيام المنصوبة يشكل أسواق بازار لتقديم المؤن. كان الحجاج يخرجون من الوادي ويتفرقون على السهل، ويبحثون عن خيامهم. «كنت ترى عدداً لا يحصى من النيران موقدة على امتداد من الأرض يبلغ طوله ثلاثة أو أربعة أميال، كانت مجموعات عالية ولامعة من المصابيح تحدّد الأماكن المختلفة لمحمّد علي، أو سليمان باشا، وأمير الحج في القافلة المصرية». كانت الصلوات والتراتيل تُسمَع طيلة الليل، تختلط مع الأغاني البهيجة لأبناء مكة وتصفيقهم. وكانت المقاهي المنتشرة على السهل تعجّ بالجموع تدخل إليها وتخرج منها.

وفي صباح اليوم التالي، نزل بوركهارت من الجبل ونظر إلى السهل تحته: بدا أبيض بسبب خيام الحج بطول ثلاثة إلى أربعة أميال وعرض ميل أو اثنين. كنا هناك 70 حاجاً وأثناء النهار كنت تسمع أربعين لغة. بدأت الخطبة في الموعد المعتاد ـ الثالثة بعد الظهر ـ ربما حدثت حركة مفاجئة في الطقوس أزعجت المتمسكين بالتقاليد. لم

يستطع الخطيب أن ينيخ جمله الذي حرن، لذلك ترجّل وألقى الخطبة وهو واقف. أحياناً كان يمدّ ذراعيه كي يستمطر البركات، كما تقضي الشريعة. كان الحجاج يصرخون رداً عليه «لبيك» ويلوحون بإحراماتهم فوق رؤوسهم فيصبح الجبل أشبه بالشلال. وكان الذين في السهل، الجالسون على جمالهم، يحملون مظلات خضراء تعطي كلها مظهراً أخضر للسهل. وبينما الخطبة مستمرة، كان بعض المستمعين يضربون حيواناتهم ويصرخون معلنين أنّهم أثمة، وكان الآخرون يقفون في عبادة صامتة وعيونهم تترقرق بالدموع. وعلى مسافة، كان أبناء الحجاز والجنود الأتراك يتحدثون ويتمازحون، أو يسخرون بإيماءات عنيفة من شكليات التلويح بالإحرام.

وبعد وقت بردت حماسة الحجاج ونزل الكثير منهم عن الجبل. لكن لم يحدث أي تحرّك عام قبل ختام الخطبة. بعدها اندفعوا في الطريق إلى مزدلفة وسط رشقات من طلقات المدافع، وإضاءة المشاعل وإطلاق شرارات النار الطائرة.

ولدى الوصول إلى منى، وجدوا أن شارعها الوحيد قد تحوّل إلى سوق بسبب تعدد البائعين والمنتجات الوطنية المحشورة في مكان صغير، فاق شارع المسعى (Messai). وفي الليل كان الوادي كلّه يشع بالأنوار. كانت البيوت والخيام مضاءة، وكانت خيام الباشاوات تتلألأ بتألق، والنيران التي أضرمها البدو تنير أعالي السماء. واستمرّ إطلاق البنادق والصواريخ حتّى الفجر. وبعد الأيام الثلاثة التي قضوها في منى والقيام برمي الشيطان بالحجارة، والتضحية، عاد بوركهارت إلى مكة. وجد أنه لا يمكن المرور في الشوارع الرئيسيّة. كان الحجاج يشترون

المؤن لرحلة العودة، والمتسولون يطلبون الصدقات بإلحاح أكثر من العادة كي يستطيعوا العودة إلى أوطانهم.

كانت أروقة المسجد ذات الأعمدة تعطي منظراً يختلف عن منظرها السابق المملوء بالحيوية. كان التوتر بسبب رحلة القافلة الطويلة التي تلتها طقوس (مراسم) الحج المتبقية، يُحدث أثراً قاسياً على الحجاج الأكثر فقراً. فقد ملأ الجوع والمرض والإقامة غير الصحية والتعرض للعوامل الجوية القاسية أثناء ارتداء الإحرام، الأروقة المعمدة بالجثث. والذين كانوا يشعرون أنَّ الموت يقترب منهم كانوا يجرّون أطرافهم المنهكة نحو الحرم المكي، كي يلقوا نظرتهم الأخيرة على الكعبة. بوركهارت الطيب القلب نفسه لطّف من اللحظات الأخيرة لأحد هؤلاء الفقراء المنسيين وأغمض له عينيه.

كان ينوي التقدّم نحو المدينة، لكنه اضطر للتأخر شهراً آخر في مكة. ترددت القوافل في الانطلاق، بسبب إشاعة تقول إن محمّد علي باشا كان على وشكّ النزول إلى ميدان المعركة شخصياً ضدّ الوهابيين. فإذا هزم فستكون مكة المكان الآمن الوحيد في الحجاز. أشيع أيضاً أنَّ الباشا ينوي حجز بعض جمال تخص الحجاج كي يستعملها لمصلحته الشخصية في الحرب.

وجاءت أخبار انتصار محمّد علي الباهر في بيسل في الوقت المناسب وانتهت الشكوك. تحررت مكة من القوافل وأصبحت مدينة مهجورة. ولم يبدُ أن بالإمكان رؤية أحد من الحجاج في الشوارع سوى القليل من المتسولين الكئيبين. غادر بوركهارت إلى المدينة (المنورة) يوم 15 يناير/ كانون الثاني 1815، في قافلة صغيرة من خمسين جملاً.

اتّبعوا الطريق الأقرب إلى الساحل. في البدء قادتهم الطريق عبر وديان من الرمل الثابت، حيث كانت الجمال تسير في صف منفرد بين سلاسل غير منتظمة من التلال المنخفضة. ثمّ سارت بعد ذلك في سهل صخري فيه كتل حجرية عبر الطريق. غاصت بعض الجمال في رمل متحرك غير ثابت، وناضلت للخروج فوق صخور منفصلة. وفي إحدى المرات، وفرت له رؤية شجرة النخيل والمناطق الخضراء تبايناً بهيجاً مع الجبال القاحلة ذات القمم الحادة على الجانبين. وقرب المدينة ـ وعندما نزلوا عبر وديان صخرية ممتلئة بأشجار الشوك ـ هبت عليهم عاصفة وعبرت السيول الطريق.

هناك حادثة واحدة من هذه الرحلة تستحق الذكر: وهي تظهر طبيعة بوركهارت الطيبة. التقط البدو مالاوياً فقيراً، وقد تاه عن طريق القافلة، وطلبوا منه عشرين قرشاً فدية. رفض مواطنوه أن يدفعوا. وكانت القافلة توشك أن تتقدّم وتتركه يُسلب ويؤسر، عندما تدخل بوركهارت. أمسك بقائد الجمل وجعله يقرفص. ثمّ بقوة المجادلة والتعنيف أخذ منه تبرعاً، وفعل الشيء نفسه مع الرجل الثاني وهكذا حتّى آخر رجل في الصف، حتّى أصبح المبلغ كاملاً. حمل المال إلى البدو، وأقنعهم أن يرضوا بنصف المبلغ، وسلم الباقي إلى المالاوي.

وصلوا المدينة حوالي منتصف ليل 27 يناير/ كانون الثاني. كانت البوابات مغلقة، فخيمت القافلة حتّى شروق الشمس. نام بوركهارت بحماقة على الأرض الرطبة. كان سابقاً قد تبلل من المطر الغزير. كان الليل شديد البرودة واستيقظ في الصباح محموماً. ولدى دخول المدينة وجد مكان إقامة في الشارع الرئيس على بعد حوالي خمسين ياردة من

المسجد، وفوراً قام بزيارة قبر النبي. لكن تلا ذلك انهيار كامل في قوته. كانت المدينة وقتها تحت حكم طوسون باشا، وكان معه يحيى أفندي الذي أخذ فاتورة بوركهارت إلى القاهرة. كان من سوء حظّ بوركهارت أن يحيى أفندي قرر أن يقوم بزيارته، لأنه كان قد سمح له أن ينقل معه نصف رطل من لحاء شجر قيّم جداً. جعلت عودة الحمى بوركهارت يندم على كرمه، لكن يحيى أفندي كان قد تخلص من اللحاء حتّى آخر ذرة منه. سيطر القنوط الشديد على بوركهارت. فحبس نفسه في غرفته ولم يرَ أي كائن بشري سوى مرشدته. لم تكن زيارتها لهذا الشخص من دون أهمية: في حال وفاة بوركهارت كانت تخطط للاستيلاء على أمتعته. كان يجد قليلاً من التخفيف في التحدّث مع هذه المالكة العجوز وفي قراءة ميلتون: فقد كان الكتاب الوحيد الذي بحوزته، والذي يعادل الآن مكتبة كاملة.

دام مرض بوركهارت شهرين من الأشهر الثلاثة التي بقيها في المدينة. لذلك كان وصفه للمدينة وسكانها أقل إسهاباً من وصفه لمكة. كانت المدينة تتألف من مدينة داخلية ومن الضواحي. كانت المدينة الداخلية بشكل بيضاوي محيطها 2800 خطوة، ومحاطة بسور حجري سميك، على جوانبه أبراج. ويحيط به خندق. كانت الضواحي إلى الغرب والجنوب من المدينة، يفصلها عنها ساحة مكشوفة. ووراء هذه تمتد حقول وحدائق ومزارع نخيل.

كانت المدينة كما رآها قد بنيت في القرن السادس عشر. والبيوت ـ التي بني معظمها من الحجر ـ كانت على الأغلب من طابقين وذات سطوح منبسطة. أعطى لونُ الحجارة القاتم للمدينة مظهراً كئيباً، يزيد من كآبته عدد البيوت المهجورة أو الخَرِبة. كانت الشوارع ضيقة لكن

أهمها كان يتمتع بميزة وجود الأرصفة. كانت الدكاكين القليلة موجودة في الشارع الرئيس الذي يؤدي إلى المسجد. بدت المدينة لناظري بوركهارت كمدينة سورية لا عربية (بدوية).

كان هناك القليل من المباني العامة، لكن هناك كثير من البيوت الخاصة الجميلة ذات الحدائق الصغيرة وفيها آبار. كان سكان الضواحي في معظمهم من الطبقات الأدنى، والبدو والذين ينخرطون في الأعمال الزراعية، وبالرغم من هذا كان لبعض العائلات الهامة بيوت ريفية هناك. كانت كميات الماء الكبيرة تجلب الخصب للسهول المجاورة، حيث كان البدو الذين يزودون المدينة بالمواشي والزبدة يسكنون في الخيام. لكن الصناعة الرئيسة للمدينة كانت التمور التي كانت تشتهر بجودة نوعها في الشرق، وكان إخفاق المحاصيل يسبب قنوطاً عاماً.

وكان السكان ـ كما هي الحال في مكة ـ في معظمهم من أصول أجنبية. وكان عدد السكان يتجدد سنوياً من الزوار. ولم يحوّل الحج المدينة إلى سوق. وكانت التجارة تمارس للاحتياجات الداخلية فقط، لذلك كانت على مستوى صغير ولم يكن هناك تجار كبار. كانت تجارة المواد الغذائية مع ينبع هي الأكثر ربحاً وبالتالي الاستثمارات في الأرض التي كان يزرع عليها النخيل لإنتاج التمور. كانت الحاجة لعمال الهتيم ملحوظةً أكثر من الحاجة إليهم في مكة. وعزا بوركهارت ذلك إلى المكانة الوضيعة التي كان العرب يضعونهم فيها. قال إن الكبرياء كان أقوى من الجشع وهو الذي كان يمنع الأب من تعليم أولاده أي مهنة. كانت تلك خصلة ورثوها من البدو الذين كانوا لا يحترمون أصحاب المهن الذي يعيشون مع قبائلهم. وعندما كان المسجد يحتاج

إلى إصلاحات، كان العمال يُرسلون من القاهرة أو اسطنبول. كان قسم من سكان المدينة يعتمدون على المسجد لكسب عيشهم؛ على الرواتب التي يرسلها السلطان، والهدايا من الحجاج... الخ.

وعن الخصي المرشدين رسم صورة تشبه الصورة التي رسمها باديا لخصيّ مكة. كانت أجسامهم نحيلة ومعالمهم غائرة لدرجة لم يكن يمكن تمييز شيء إلا العظام فيها. وكانت أيديهم كالهياكل العظمية، ومظهرهم العام مقرفاً. كانوا يرتدون ثياباً سميكة لإخفاء نحولهم، ولكن كان يمكن معرفتهم من بعيد. كان أبناء المدينة أقل بهجة وحيوية من أبناء مكة، وكانوا يراعون اللياقة العامة أكثر منهم، ولكن أخلاقهم كانت من المستوى نفسه؛ «المستوى نفسه من التزلف والنفاق». كان حجم الممتلكات أقل لكن الناس كانوا يبدون أكثر غنى لأنّهم كانوا يرتدون ألبسة أكثر فخامة. كان هناك نقص كامل في الثقافة. كانت المهنة الوحيدة كسب المال وإنفاقه على إشباع الشهوات الجسدية.

يجب أن نذكر أنه ليس هناك مدينة عانت من غزوة الوهابيين أكثر مما عانت المدينة (المنورة). تناقص عدد السكان ليصبح ما بين 10,000 و12,000 نسمة.

تحرر بوركهارت نفسه من الأوهام عند قبر النبي. «كانت الألوان المبهرجة المنشورة على كلّ جوانبه، والأعمدة المتلألئة، والسجاد الفخم، والأرضية الغنية، والكتابات المذهّبة على الجدار من الناحية الجنوبية، ودرابزين الحجرة اللامع في الخلفية، تبهر الأنظار في البدء، ولكن بعد مسافة قصيرة يصبح من الواضح أنَّ هذا ليس إلا عرضاً من المهرجان المزين وليس ثروة حقيقية». قارن التناقض الكبير لقبر النبي مع شهرته كواحد من أقدس البقاع في الإسلام. إن ضريح أقل القديسين

الكاثوليك أهمية يفوقه في الرونق والبهاء. وخلص إلى القول إن المسلمين ـ مهما كانوا متعصبين ـ كانوا لا يرغبون تقديم التضحيات المالية.

غادر بوركهارت المدينة كئيباً وقانطاً ـ يوم 21 إبريل/ نيسان. وصل ينبع دون أي حوادث سيئة، سوى عودة الحمى، وكان تواقاً كي يبحر إلى مصر. لكن ينبع كانت ممتلئة بالجنود، ولم يكن يسمح لغير الجنود بصعود السفن، فجعلته حالتهم المَرَضيّة يمتنع عن التغلب على هذا القانون بوسائل الرشوة الممكنة. وبينما كان جالساً في المقهى، لاحظ عدداً غير عادي من الجنائز لكنه لم يستطع أن يستوضح حقيقة الأمر إلى أن أصبح وحيداً في الليل في غرفة في خان استطاع تأمينها بصعوبة، حيث سمع صرخات الحزن من كلّ جهة. لقد كان الطاعون منتشراً في ينبع. انتقل هذا البلاء من السويس إلى جدّة على السفن المحملة بالمواد القطنية، ومن هناك إلى ينبع. وصل معدل عدد الوفيات إلى خمس وفيات في يوم. هرب كثير من العرب إلى البلد المجاور، لكن الوباء لحقهم فغادروا. «لقد دعاهم الله برحمته إلى حضرته، لكن بعد أنْ شعروا أنّهم لا يستحقون عادوا». كان المرضى الذين يعانون من سكرات الموت يصطفون في الشارع الكبير، يطلبون الإحسان.

في يوم 15 مايو/ أيار غادر بوركهارت إلى القصير في قارب صغير مكشوف. دفع خمسة دولارات بدلاً من ثلاثة، عنه وعن عبده ـ لقاء مكان خاص صغير. لكن عندما انطلق القارب، وجد الربان وأخاه والمرشد والخادم مقيمين في مقصورته. لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يحيط نفسه بحاجز من أمتعته الخاصة. كان على السفينة أيضاً طاعون، فقد كان ستة رجال مستلقين في العنبر، وكان اثنان منهم

يهذيان. وكانت الوفاة تحدّث يومياً. كان العرب لا يبحرون ليلاً ولا يغامرون في البحر الواسع ولذلك أضيف إلى الحزن الجاثم على متن القارب، مللُ الرحلة الطويلة قرب الشاطئ. كانت المسافة التي يقطعونها لا تتجاوز أكثر من خمسة وعشرين إلى خمسة وثلاثين ميلاً في اليوم. وغالباً ما كانوا يضطرون إلى الرسو في منتصف النهار لأنه لا يمكن الوصول إلى أي مرفأ قبل حلول الليل. في هذه المضايق، وعندما كان بوركهارت في حالة صحية سيئة، كان يعاني من الحمى. أصبحت جميع أنواع الطعام مقرفة له ما عدا الحساء الرقيق. في كلّ مرفأ كان يشتري خروفاً، ويطبخ حساء ثمّ يعطي اللحم إلى الطاقم. مقابل ذلك ملؤوا له قربه بالماء من البر. وأخيراً بدت له شرم (Sherm) الشيخ؛ ولما كانت أقرب إلى القاهرة من القصير، دفع خمسة دولارات كي ينزلوه على البر.

والحادثة الرئيسة على القاهرة كانت مشادة مع جندي تركي أدّت إلى تبادل إطلاق النار. كان الجندي يحثّ جملاً بطيئاً على تسريع خطوته بواسطة سيف، وعندما رأى بوركهارت على رأس القافلة أمره بالترجّل ليتبادل معه الجمال. بالطبع رفض بوركهارت وكانت النتيجة ما ذكرنا. تلا ذلك اجتماع وشرح في طور. أكّد الجندي أنه أطلق النار بهدف استدعاء مرافقيه. أجاب بوركهارت أنَّ الطلقة كان لها هدف آخر، وأنه كان أسفاً لأنه أخطأه. والجندي التركي ـ حسب ظنه ـ كانت له صفات الكلب الموجودة في قصة آبيوس كلوديوس لماكولي؛ «الذي يعوي ويعض من يهربون، ويهرب من الذين يضربون بقوة».

وصل بوركهارت إلى القاهرة يوم 24 من يوليو/ حزيران. لقد غاب عنها أكثر من سنتين. يمكن إضافة الاهتمام المؤثر إلى الكلمات

المتفائلة الخاصة بصحته التي تنتهي إليها كتبه: الحجاز والرحلات العربية. أنهكت صحته ـ فأصبح عرضة لهجمات الحمى والزحار التي لم يشفَ منها أبداً. قام برحلة أخيرة إلى سيناء في 1816 وكان على وشكّ الانطلاق نحو بلدان النيجر في السنة التالية، لكن أعراض الزحار ازدادت عليه وفي 15 أكتوبر/ تشرين الأوّل وافاه الأجل. وبينما كان على فراش الموت تحدّث عن كلّ شيء سوى أمرين اثنين؛ والدته والرحلة التي لم ينجزها أبداً.

حوّل رسائله ومذكراته إلى إنكلترا، لكنه بالرغم من أنه لم يتعلم اللغة الإنكليزية حتّى سنّ الخامسة والعشرين، فإنه كتب بهذه اللغة فيما بعد. وبالنظر لذلك وللصعوبات التي كتب فيها مذكراته، فإن أسلوبه يمتلك صفات ملحوظة من القوة والصدق. والطريقة التي دوّن فيها انطباعاته عن مكة غير معروفة؛ لكن مذكرات رحلته إلى النوبة، كانت تُكتب في زاوية باحة مكشوفة بجانب أحد جماله، تعيقها رياح الصحراء الحارة ومعاناته من الرمد.

ليس هناك إلا القليل من الرجال الذين نالت شخصيتهم وإنجازاتهم تقديراً كبيراً كما نالت شخصية بوركهارت وإنجازاته. لا يمكن لصفحة واحدة أن تحتوي على ألقاب المديح التي منحت له. لقد كتب رحالة آخرون قصصاً شخصية أكثر بريقاً، وأضيفت وقائع أخرى إلى صرح المعرفة الذي أقامه، لكن أساساته لا يمكن أن تتزعزع. فهو يبقى حتّى الآن كجيبون = Gibbon المؤرخ الإنكليزي بالنسبة للحجاز ومدنه المقدسة.

جيوفاني فيناتي

Giovanni Finati

(حاجي محمّد)

1229هـ ـ 1814م

لم يكن بوركهارت الأوروبي الوحيد الذي كان في مكة في 1814. كان الحجُّ الحادثةَ المتوجة للمغامرات التي قام بها جيوفاني فيتناتي.

ولد في فيرارا في الولايات البابوية (إيطاليا) من أبوين محترمين دون غنى، وتربى ليكون كاهناً. لم يُستشر في ذلك، وكان ينظر إلى هذه المهنة التي كان على وشكّ أن يدخلها مكرهاً باشمئزاز كبير. وقد زاد من ذلك تعليمات تلقاها في طقوس على انفراد من عمّ له كان كاهناً متعصباً. لكن احتجاجاته وتوسلاته لم تلقَ آذاناً صاغية، بل ألحقت به العقوبات.

عندما أصبح في الثامنة عشرة من عمره، وقعت إيطاليا في أيدي فرنسا. وأصبح نير المحتلين قاسياً كما ظهر في قوائم التجنيد التي لم تكن تقبل التأجيل. وشدّ ما كان رعب والديه عندما ظهر اسم فيناتي على إحدى قوائم التجنيد. لكنه دفع بدلاً مقابل أن يذهب أحد غيره مما أعاد الهدوء إلى البيت، فبقي فيناتي بصمت في أحضان عائلته، لكنه

كان دائماً تحت رقابة عمه الصارمة، عندما حدث تطور مفاجئ، هرب البديل، وصدرت مذكرة بحقّ فيناتي. بقي فترة مختبئاً، لكن عند احتجاز أملاك والده واعتقال والده شخصياً مع أخيه الأصغر سلّم نفسه، مصرحاً أنَّ تلك الخدمة الإجبارية لم تكن أبغض إليه من الكهنوت.

تجند وأرسل إلى تيرول ومن هناك هرب. بعد اجتياز غابات وبراري ليلاً، وصل البيت. وحاول مرة أخرى الاختباء. وتبع ذلك مضايقات لعائلته، لكن أخيراً ألقي القبض عليه. أرسل إلى البندقية بحال من الخزي، لكن بالرغم من التوبيخ والتهديد كان دائماً يتمتع بنوع من مرونة الروح الطبيعية. وفي باريس نجا من الإعدام بعفو صدر بمناسبة زيارة نابليون.

بعد شهرين من السجن أرسل بالباخرة إلى دالماشا Dalmatia (على الأدرياتيك). وحالاً عاوده ولعه بالفرار من الجيش. وترك الجيش الفرنسي في سكوتاري (Scutari) مع خمسة عشر من الإيطاليين وساعدهم في ذلك قبطان تجاري ألباني. استقبلهم الأتراك استقبالاً طيباً. لكن نشأت خلافات دينية بينهم. وبعد رفضهم الارتداد عن دينهم أُرسلوا للعمل في مقالع الحجارة. وأخيراً بناءً على نصيحة واحد من جماعتهم أشار إلى أنَّ المسلمين يعتقدون بالله، أعلنوا إسلامهم. أصبح فيناتي حامل صفارة أحد الضباط وعُمِل بتساهل كبير وسمح له ـ من بين الامتيازات الأخرى ـ بدخول بيت الحريم وهي ميزة نادراً ما كانت تُمنح لأحد. وردّ هذا المعروف بالدخول في علاقة غرامية مع واحدة من زوجات سيده ـ فاطمة الجورجية ـ وهذا ما أثار حفيظة أهل البيت، وسرت إشاعات وافتراءات فأحيل إلى مهنة قطع الحطب. لكن العلاقة

استمرت، إلى أن أصبح اكتشافها محتوماً. عندئذٍ قرر فيناتي الفرار. كان يخشى من الإعدام أو إيقاع عقوبة المذهب المالكي التي نجا منها حتّى الآن. لقد كان لفراق فاطمة غصّة حارقة في قلبه، لكن لم تكن لديه الجرأة لوداعها. فرّ إلى الإسكندرية بمساعدة القبطان الألباني التجاري الذي كان قد ساعده على الفرار سابقاً.

وصل فيناتي إلى القاهرة وتطوع جندياً ألبانياً. كان محمّد علي قد أصبح باشا مصر في 1805. وكان فخوراً في أن يكون في خدمة هذا الرجل الاستثنائي، وكان أيضاً توّاقاً كي ينال شهرةً وشرفاً. كان يعتبر محمّد علي مجدّداً لمصر، ويمدح أفكاره الكبيرة وفهمه المتنور، وباستثناء سلوكه مع المماليك، مدح كلّ أعماله. لم تكن دلائل المستقبل مشرقة. كان الوهابيون قد أعاقوا كلّ التجارة والحج في الخارج، وفي الداخل سادت الخلافات بين الجنود الأتراك والألبان. وفي المقاطعات، فرض المماليك ـ الذين كانوا يعتبرون محمّد علي مغتصباً للحكم ـ الضرائب على السكان ونهبوا البلاد وبالذات حتّى أبواب القاهرة. وحول الباشا قواته ضدهم أوّلاً.

خدم فيناتي في الحملة ضدّ المماليك الذين أبدوا مقاومة شجاعة. لكن لم تكن لديهم الوسائل لتجنيد القوات، وتناقصت أعدادهم باستمرار. بعد أنْ طردوا إلى ما وراء أسوان ـ المدينة الحدودية المصرية ـ إلى الجنوب في النوبة، اتّخذوا لهم موقعاً قوياً في أبريم فوق الشلال الأوّل بـ 145 ميلاً. استدعى محمّد علي الأكثرية إلى القاهرة، تاركاً عدداً كافياً من القوات ليتدبروا أمر العدو اليائس.

كان فيناتي بين الذين استدعوا. أبحروا في النيل في مراكب كبيرة،

وفي مكان يدعى أبو سويف حدثت حادثة غريبة ومأساوية. كانت مجموعة من حوالي أربعين جندياً قد نزلوا إلى البر كي يتناولوا الطعام في أيكة من النخيل. وتلا العشاء لعبٌ بالورق والنرد. كانت المراهنات كبيرة ولم يكن لدى الخاسرين رغبة في التوقف عن اللعب. وعندما حلّ الليل، كانت الفوانيس تتدلى من الأشجار، وكان الجنود ـ وكل أمامه كومة صغيرة من الذهب ـ منهمكين في اللعب، ولم يلاحظوا بعض الغرباء ذوي المظهر المريب يحومون في الظلال المعتمة خلف حلقة من المصابيح. أطفأ هؤلاء اللصوص الأعراب ـ الذين كانوا يتسللون قريباً منهم ـ المصابيح وسرقوا الأموال ورموا رملاً في أعين اللاعبين ولاذوا بالفرار. نشأ عن ذلك شجار؛ كان كلّ واحد يظن أن رفيقه قد سرقه وأهانه. ولسوء الحظ كانت أسلحتهم في متناول أيديهم، وبدأ هؤلاء الجنود ـ وقد أصابهم الجنون ـ يطعنون ويجرحون. ولم يتوقفوا عن ذلك حتّى سقط منهم على أقل تسعة قتلى، وكثير من الجرحى. وبعد ذلك، شعروا بالخجل وتأنيب الضمير عندما علموا من بعض المتفرجين ما حدث. كانت حصة فيناتي من الجروح؛ جرحاً من سيف في ذراعه. قال: «لم يكن هناك مخرج مما حدث. لقد حزنا على زملائنا ودفناهم».

في تلك الأثناء أصدر محمّد علي عفواً عاماً وشاملاً بسبب خوفه من المماليك ودعا الزعماء والأشخاص ذوي الأهمية ليعيشوا في القاهرة تحت حمايته. فاستغل ما بين خمسة وستة آلاف شخص هذا العرض. لكن وصلت إلى مسامعه أخبار سرية بأن مؤامرة تُحاك للإحاطة به. لذلك ـ وكما فعل هاملت ـ حفر مسافة ياردة واحدة تحت أنفاقهم كي ينسفهم عند طلوع القمر.

كان همه الأوّل دعوة صايم بيه - زعيم المماليك - لمقابلته. وتناقشا معاً بشأن الدور الذي سيلعبه المماليك في الحملة القادمة ضدّ الوهابيين. وكان حديث صايم بيه مكشوفاً جداً بحيثُ إنَّ محمّد علي تأكد من هدف آرائه. وتلا ذلك دعوة عامة لكلّ قادر على حمل السلاح إلى القلعة يوم الجمعة التالي. لكن أحد المماليك كان يمتلك حدساً أدق من حدس صايم بيه، صاح قائلاً: «لقد خُدعنا!» لكن نظرة من صايم بيه أسكتته. حان يوم الجمعة، وسار موكب مؤلّف من 500 من الضباط المماليك إلى القلعة. وتمّ استقبالهم بالترحيب والكياسة. قدمت لهم القهوة والغلايين وعقد مؤتمر طويل بينهم وبين الباشا. وعندما انسحب محمّد علي أخيراً، أمر بإغلاق البوابات وأعطى أوامر أخرى شرسة. ولما وجد صايم بيه واثنين من القادة المماليك أن محمّد علي لم يعد، سألوا عن السبب، همس لهم أنه دخل إلى بيت الحريم. لذلك استعدوا للذهاب إلى مساكنهم. خرج صايم بيه إلى الساحة ممتطياً حصانه عندها أطلق الحراس وابلاً من الرصاص عليه. وفي الوقت ذاته، صوّب كلّ جندي من حرس القلعة رصاصة نحو المملوك الأقرب إليه. أفلح صايم بيه في الترجّل، وبالرغم من أنه كان يترنح في سرجه، همز حصانه إلى أقرب بوابة. لكنّها أُغلقت بسرعة في وجهه وسقط بعد أنْ اخترقت رصاصات كثيرة جسمه. وكان لرفاقه المصير نفسه باستثناء واحد قفز وهو على ظهر حصانه من فوق حاجز ونزل عن صخرة بعمق أربعين قدماً. تمزق جسم الحصان إرباً لكن راكبه نجا وفر. انتشرت الأنباء في القاهرة. ووُضع سعر عال لرأس كلّ مملوك. فقتلوا وطعنوا بلا رحمة. وحتّى البيوت التي كانوا يختبئون فيها أحرقت. عمّ النحيب

والحزن المدينة وكثيرون ممن لم يكونوا من المماليك، ألقي القبض عليهم وقتلوا بالخطأ أو من الحقد أو السرقة.

لم يسفك فيناتي أي دم. كان مركز حراسته في طريق لم يحاول أحد ممن حُظر مرورهم أن يمرّ. كانت حصته من الغنائم سرجاً مطلياً بالفضة، وجَلبت له أمة من بيت الحريم حلياً صغيرة وبعض المال خبأته في جسمها، وتزوجها فيما بعد. بعد أنْ تخلص محمّد علي من المماليك، فكر في إنهاء النزاعات بين الأتراك والألبان بتوحيدهم في حملة ضدّ الوهابيين. وكان الدافع الموحي بهذه الحملة إنقاذ مكة. كان آمر الحملة ابن الباشا الثاني ـ طوسون ـ وهو شاب في السابعة عشرة من عمره، لكنه كان يمتلك ميزات كثيرة. كريم طيب إنساني دمث وقادر على فعل الخير حتّى لأعدائه: هذه كانت شهادة فيناتي فيه. في هذه الأثناء، عندما كان لا يزال كثير من المماليك المتسللين يلاحَقون ويُلقى القبض عليهم ويقتلون، وضعت عائلاتهم نفسها تحت حمايته. ولم يرفض أي حالة من هذا النوع. كان يعيل الأرامل ويصبح أباً للأطفال. ولدينا الشهادة الأكثر من بوركهارت بأنه كان الوحيد في العائلة الذي يمتلئ صدره بالعاطفة النبيلة، وأنه كان أدنى من أبيه وأخيه إبراهيم ثقافة وأعلى منهما طيباً وأخلاقاً.

وبعد فترة قصيرة حانت فرصة لاختبار طيبه وكرم أخلاقه. كانت كتيبة فيناتي تخيِّم إلى الشمال من القاهرة. وفي صباح أحد الأيام كان في نوبة حراسة قبل الفجر عندما لاحظ شخصاً مقرفصاً يتحرك أحياناً. كان هذا الشخص رقيباً، وكان من عادته أن يصلي قبل شروق الشمس بساعة. لكن فيناتي لم يعرفه وظنه لصاً فأطلق النار عليه وأرداه قتيلاً. وعندما اكتشف طبيعة عمله ألمّ به ذعر شديد. وفي أثناء ذلك، سرت

حكايات مختلفة عن الحادثة في المخيم، وكان يظن البعض أنه اقترف الجريمة متعمداً. وهذا يشكّل مأزقاً كبيراً له، قصد خيمة طوسون واعترف بما فعل بالكامل. لكن طوسون لم يغفر له فعلته فحسب، بل دفع عنه الفدية لعائلة القتيل. فتحرر فيناتي من خوفه من الانتقام.

كانت السفينة التي سافرت فيها كتيبة فيناتي من السويس غير مريحة، ذات هيكل ضخم وصارية واحدة، وكانت العارضات والأشرعة ذات أشكال مختلفة تبعاً للريح. كان طاقمها أناس كسالى. كان موقع أحد البحارة عند رأس الصارية كي يراقب سلاسل الصخور والأماكن الضحلة، وينادي بالتعليمات فيما يخص المسار الذي يجب التوجه فيه. كانت الرياح هادئة وكان الماء رائقاً. في الأماكن الضحلة كانت الأعشاب والمرجان تنمو إلى ارتفاعات كبيرة وكانت منتظمة بحيث كانت تظهر كأنها أيائك أو حدائق. كانت أصداف ضخمة جميلة مستلقية على الشاطئ تزود الجزيرة العربية وفلسطين باللؤلؤ؛ وفي مكة كانت تستعمل للمسابح وفي القدس لتماثيل القديسين وترصيع الصلبان. كان الجو صافياً بحيث إنَّ المنظر كان يمتد إلى ما خلف القطاع المزروع المحدد بمحاذاة الساحل، ويغطي الوجه القاحل وغير الجذاب للقسم الداخلي. لم تحدّث أي حادثة مشؤومة بين السويس وينبع، سوى أنَّ السفينة اصطدمت بضفة رملية، لكن أفراد الطاقم الشديدي الحذر تراخوا، وبذا سمحوا للمدّ أن يرفع السفينة فعامت وتابعت.

ولدى الوصول إلى قبالة ينبع، بدأ الجيش المصري يقصف أوّلاً ثمّ يهاجم المدينة. تمّ الصعود إلى الأسوار بواسطة السلالم الخاصة بالتسلق، وقتلت طلقةُ مدفعية المهندسَ الوهابي الرئيس، وبذا صارت

كتيبة المدفعية غير ذات جدوى. قرر العدو أن يتراجع بدلاً من الاستسلام. حملوا كلّ ما غلا ثمنه وخفّ حمله خارج بوابة المدينة. وأصبح طوسون سيداً لمدينة خاوية. بعد عدة أشهر ألحق بالوهابيين هزيمة ثانية في قرة لمبي متخذاً من ينبع قاعدة له. أثناء تراجعهم نحو المدينة، اتّخذوا موقعاً قوياً لهم عند جديد بوغاز، وهو ممر ضيق بين جبلين عاليين ومنحدرين، ليس بإمكان أكثر من عشرة جمال أن تمر جنباً إلى جنب. وكان هذا الممر يتحكم بالطريق إلى المدينة المقدسة.

كانوا يزيدون من قوة الموقع يومياً، يبنون متاريس مرتجلة بدائية من حجارة مفككة على جانبي الجرف. وفي السهل تحتهم كان طوسون يخطب في رجاله ويحثّهم على أن يكون خلاص مكة على أيديهم. وبعد عدة أيام من المناوشات أمر بالتقدّم العام ضدّ الأعداء الذين ظهروا بأعداد كبيرة على كلا الجبلين. واندلع حريق كبير دائم فرمى طوسون بنفسه في هذا الخضم، يدعو الكثيرين منهم بأسمائهم. واقتداءً به، زحفت القوات واحتلت بعض متاريس الوهابيين. لكن هذه كانت تشرف عليها متاريس أخرى مبنية في أعلى الجبال. وصبّ عليهم العدو وابلاً من الرصاص. وعند الظهر بدأت هدنة دامت عدة ساعات. كانت حرارة الشمس تنعكس من الجبال القاحلة وتجعل القيام بأي عمل مستحيلاً. استلقى كثير من الجنود تحت أشجار النخيل على المستويات الأدنى وشرعوا يأكلون التمر. ولم يعثروا على أي ماء، وأصبحت الرغبة الملّحة للماء لا تطاق بحيث استقبل إعطاء الإشارة لتجديد العمل عند الساعة الرابعة بيأس يشبه الفرح. ونشب قتال أكثر حرارة، وبعد مغيب الشمس بوقت طويل كانت النتيجة غير محسومة. وبعد ذلك ـ لسبب لم

يعرفه فيناتي ـ انقلبت الموازين لغير صالح الجيش المصري. ولد الاشمئزاز ذعراً، وأدى الذعر إلى هزيمة منكرة وكارثة.

بعد أنْ عادوا إلى خيامهم، وجدوا أنه من غير المجدي أن يحاولوا المحافظة عليها من غير خنادق أو تحصينات. تقدّم الوهابيون المنتصرون عبر السهل، وفي هذا الموقف الخطر أمر طوسون أن تحرق الخيام، وتركوا الثمائن العسكرية وانطلقوا نحو مُبرك وهي أقرب نقطة على الساحل إلى جديد بوغاز حيث كانت السفن من ينبع راسية. نجا فيناتي بأعجوبة بعد أنْ طوقه العدو. وحالما استطاع تحرير نفسه، تسلق ربوة منفردة ومعه زميل له. وهناك رأيا منظراً شبيهاً بالجحيم. كان الوهابيون قد أشعلوا النيران على المرتفعات المجاورة لإنارة طريق المطاردة. وفي حِزَم الضوء والظلّ التي كانت تتراقص فوق الصحراء، كانت فرق البحث والتنظيف تجوب المكان للتخلص من الهاربين. في المنخفض كان هناك امتداد من لهب المخيم المصري. عند منتصف الليل نزل فيناتي وزميله يرتجفان ويزحفان على أيديهما ورُكَبِهما. مرّا قرب مجموعة من الأعداء لكنهما استطاعا الوصول إلى المخيم الذي كانت لا تزال ناره تتوهج تحت الرماد. كانا محظوظين إذ وجدا بعض الطعام، وبئراً على مسافة قريبة، فأطفآ ظمأهما. وبعدها انطلقا إلى مُبرك، ولحقا ببعض التائهين في حالة يرثى لها من العطش والجوع والبؤس. كانت مجموعة منهم جالسة حول بئر وكان الماء فيه عميقاً لا يستطيعون الوصول إليه. وأخيراً رمى أحدهم من شدّة اليأس نفسه في الماء وقضى نحبه. وعندما وصل فيناتي إلى مُبرك سبح إلى السفينة التي تصادف أن كان طوسون على متنها.

عاد الجيش إلى ينبع وقد نقص عدده إلى النصف. كان فيناتي

متهوراً بحيث سبح في البئر التي كان قد شرب منها في تلك الليلة الرهيبة في جديد بوغاز. وبدأ يشعر بالآلام المبرحة من الروماتيزم. وبالرغم من أنه في مثل ذلك الوقت، لم يكن يستطيع أحد أن يسلم إلا بصعوبة، فقد كان كرم طوسون عليه كبيراً بحيث سمح له بالعودة مع المرضى الآخرين إلى القاهرة. وهناك عندما وجد أن زوجته تصرفت تصرفاً غير أخلاقي، طلقها. وفي ذلك الوقت أيضاً، وصلته رسالة من فاطمة تخبره أنها أنجبت صبياً.

في تلك الأثناء، غادر محمّد علي شخصياً إلى الجزيرة العربية. وجد الطريق إلى جديد بوغاز محروساً حراسة ضعيفة فافتتحه عنوة. ثمّ أرسل كتيبة لاحتلال المدينة وأبحر بنفسه إلى جدّة. فتحت مكة أبوابها له وكان أوّل عمل له أن أرسل الشريف غالب إلى القاهرة أسيراً، مداناً بالنفاق.

أثارت أنباء هذه النجاحات ورؤية القوات الكبيرة رغبة فيناتي في العودة إلى الخدمة. فتطوع مرة أخرى في الفيلق الألباني وأرسل إلى كونفوتا، وهي قرية إلى الجنوب من جدّة، قريبة من البحر. كان على أحد الجانبين قلعة بنيت من الطين، ضعيفة في مظهرها ومتداعية، لكنّها لا تزال صامدة. بعد أنْ طُرد الوهابيون من القرية لجؤوا إلى القلعة. كانت قنابل المهاجمين تغوص في الجدران والمعاقل الطينية، فيما كانت النيران الغزيرة تُوجه إليهم من كوى الرمي الكثيرة الخفية في الجدران. وتحوّلت هذه العملية العسكرية إلى حصار تام، ولكن الوهابيين تمكنوا أخيراً من إيجاد مخرج. بعد أنْ فتحوا ممراً بالقوة عبر الخطّ الأوّل من الجيش المصري، أصبحوا محاطين بنارين. احتُلت بوابة القلعة واستمرّ الوهابيون يقاتلون بشراسة. وبسبب ضيق المكان

والالتحام المباشر كان هناك الكثير من المناظر الوحشية للقتلى والأشلاء. لم تستعمل السيوف والسكاكين فقط بل الأسنان والأظافر أيضاً. تمزق الكثير من المقاتلين إلى أشلاء، وأُبيد الوهابيون عن بكرة أبيهم.

انقلب ميزان الأمور انقلاباً كبيراً. وعلى بعد ثلاث ساعات من كونفوتا كان هناك نبع من ماء يحتاج إلى حراسة. أُرسل أربع مئة جندي بمن فيهم فيناتي لهذه الغاية. وفجأة سرت إشاعة باقتراب قوة من الوهابيين. ولم يمكن الحصول على النجدة في الوقت المناسب، فجرت معركة منيت فيها القوات المصرية بخسائر فادحة. وهرب الباقون إلى الساحل، ونشروا تقارير مضخمة عن هزيمتهم وعن أعداء الوهابيين. وحدث تزاحم نحو السفن. بقيت كونفوتا مهجورة. لكن الوهابيين الذين لاحقوا العدو المهزوم، احتلوها ثانيةً. وأبحر الجيش المصري إلى اللد وهي قرية أخرى على الساحل، مثل كونفوتا. وبدأت الإشاعات تسري بين القوات، وتفشت روح العصيان، ووقع اللوم على القائد. وأحاط الوهابيون باللد، وجعلوا الخروج منها أمراً محفوفاً بالمخاطر. وحصلت معاناة شديدة من نقص الماء.

أرسل أربعة ضباط إلى محمّد علي في مكة، ومعهم رسائل تقلل من الخسائر في الجيش المصري. راقب الجنود مغادرتهم بأسف، وحدثت عدة حالات من الفرار. كان فيناتي قابلاً للتأثر بأعمال من هذه الطبيعة. وليس من المدهش أنه حذا حذوهم. كانت رحلة أحد الأجانب بمفرده في بلاد العدو تعتبر قراراً دافعه اليأس. لكنه عندما بدأ استعداده للرحلة، لم يكن واعياً إلا للبؤس الذي كان يخلفه وراءه. كان يفكر في إيطاليا وهو يدوس أرض الصحراء متعباً، ويشعر بالحنين لوطنه. لم

يمض وقت طويل حتّى بدأت غصّات الظمأ، لكن الوهابيين كانوا قد لوثوا الآبار. كانت تنتشر من كلّ واحدة من هذه الآبار رائحة الوباء، وكان مشهدٌ مقرف لجثث جنود تطفو فوق سطح الماء. وأخيراً عُثر على بئر عميقة جداً لم يتمّ تلويثها بعد. رمى حزامه وعمامته وجميع ملابسه ولفها ليجعل منها حبلاً وربط قُربةَ الماء فيه فأفلح في ملئها بعد ساعتين من العناء. بعد العطش جاءت عضّات الجوع. واستمرّ طيلة الليل لا يستطيع أن يسكّنها. ولكن قبل الفجر مباشرةً رأى نيراناً تشتعل في المرتفعات. كانت تلك خيام بدو. استقبله أبناء الصحراء بلطف، وقدموا له الطعام، وأركبوه على واحد من جمالهم، وقادوه إلى ضواحي مكة.

كان فيناتي هذا ـ المبتهج بفراره ـ في وضعه هذا سريع التأثر بالانطباعات القوية. لم تظهر له مكة جميلة ولا كبيرة، لكنّها كانت تسبب بعض الرهبة. كان موسم الحج آنئذ. كانت قافلتا دمشق ومصر قد وصلتا، وكان 40000 حاج يحتشدون في المدينة أو حولها. أدّى فيناتي مختلف الشعائر، ولاحظ أن سطح الحجر الأسود قد أصابه التآكل من قبلات المؤمنين. وعزا سبب العدد الصغير من المرشحين للدخول إلى الكعبة إلى الحَزم في التنظيمات التي يجب مراعاتها بعد الدخول. يقول: «ليس من السهل أن تجد في الشخص نفسه المقدرة والصبر الكافيين لتلبية هذه الشروط». وفي عرفات أحاطت بالحجاج قوة من الجنود لمنع الهجمات المحتملة من الوهابيين.

كان هدف فيناتي في مكة مقابلة محمّد علي. كان يريد أن يخبره أنه نجا في الهزيمة التي حدثت في كونفوتا، وأنه الآن يبحث عن حمايته والتطوع في جيشه. ولهذا السبب كتب لافتة باللغة التركية ووقف يحملها بمواجهة نافذة مكان إقامة محمّد علي. وفي اليوم السادس

استطاع أن يلفت نظر الباشا. قرأ محمّد علي اللافتة واغتاظ عندما سمع بالكوارث التي وردت في التقارير الرسمية على نحوٍ غير كامل، وطلب تقريراً. أعطاه فيناتي التقرير وأرسل إلى الطائف ومعه هدية 500 قرش ليسجل نفسه، على ألا يخبر عن الهزائم.

في تلك الأثناء، لم يحدث أي توقف في الأعمال العدائية. لحقت الهزيمة بذلك القائد الشهم والعاثر الحظ ـ طوسون ـ في طَرَبا. أُرسل الآن فيناتي مع قوة تبلغ ألف شخص لإنقاذ باروتشي وهي حصن احتله ضابط ألباني. وبينما كانت القوة تزحف، وصلت أخبار أنَّ الوهابيين قد طردوا المدافعين في ذلك الحصن. وانتشر نبأ تقدّم الطابور الذاهب للإنقاذ، وتمت مهاجمته في أحد الوديان من قبل الأعداء الذين تجمهروا على المرتفعات وانهالوا بالطلقات من كلّ جانب. جرى انسحاب بخسائر كبيرة. بعض الذين وقعوا في أيدي الوهابيين لم يقتلوا مباشرةً، بل بُتِرت بعض أعضائهم: قُطعت أذرعهم وأرجلهم وتركوا للموت.

لكن الحزن الذي سبّبته هذه الهزائم، والأخبار المثيرة عن التعاون بين قوات الوهابيين في طربا وباروتشي، بددتها الأخبار بأن محمّد علي سيستلم زمام القيادة. كانت مقدرته على بعث الروح المعنوية في الجنود واستمالة مشاعرهم بكرم لا حدود له، فريدةً من نوعها. استقبلوا يوم وصوله بإطلاق البنادق، وزحفت كتيبة من الجنود مدّة ساعتين على طول الطريق إلى مكة للقائه.

جرى القتال الحاسم في هذه الحملة البائسة عند بيسل. كان الوهابيون قد جمعوا كميات كبيرة من الذخيرة والأمتعة فوق سهل

محاط بسلسلة من التلال. كانت هناك فتحات ضيقة عليها حراسة شديدة تفصل بين التلال. وكانت المدفعية متمركزة على المرتفعات المحيطة، لكن القاعدة الخارجية للحاجز الجبلي كانت مخصّصة للفرسان. غادر الجيش المصري مخيمه عند سيدلا عند منتصف الليل، وبعد خمس ساعات وصلوا بيسل عند الفجر. كشفتهم الشمس المشرقة أمام العدو، وجرت الاستعدادات للمقاومة فوراً. ألقى محمّد علي خطبة مثيرة. أكّد لجنوده أن عيون العالم الإسلامي بأسره تتطلع إليهم، وأن أمن مكة كان يتوقف على جهودهم. وأنه هو نفسه لن يتحمل الهزيمة. وعندما تقدّم الجيش مسافة معينة، أمر أن ىنشر سجادته على الأرض واستدعى حامل البوق وأعلن أنه ينوي الانتظار هناك: النصر أو الموت.

ظن الوهابيون بالخطأ هذا التوقف تردداً. نزلوا من الصخور واتّخذوا مواقعهم في السهل، ودفعوا الحرس الجزائري إلى الأمام. لكن جناحهم الأيسر لم يُهزم من قبل الفرسان المصريين وحسب، بل فُصل عن الجسم الرئيس وعن قاعدتهم في الجبل. استمروا في القتال بشجاعة طوال خمس ساعات. لكن قيادة محمّد علي الخبيرة أكسبته النصر، وحدثت مجزرة رهيبة، واحتُلّ موقع الجبل ووقعت الغنائم بأيدي المنتصرين.

استولى الذعر على الوهابيين وتركوا موقعاً بعد آخر وهم ينسحبون. وعند بيتشة في وادٍ ضيق أنشؤوا جداراً من طين وحاولوا أن يكبحوا الهجوم. لكن قذيفة سقطت داخل حاجزهم أضرمت النار في بعض المواد القابلة للاشتعال وطردتهم إلى الخارج. وبعد بعض المناوشات البسيطة وصل الجيش المصري إلى كونفوتا وأقام اتّصالاً مع القافلة. تمّ الاتّفاق الآن أن يعود الفرسان إلى جدّة بطريق البحر.

كان فيناتي بين المشاة، لكن أسباباً مختلفة أخّرت الرحلة مدّة خمسة عشر يوماً. وصلوا جدّة، وعندما وجدوا أن محمّد علي قد غادر مكة لحقوا به. كان بانتظار كلّ جندي، شارة مميزة يرتديها في عمامته.

لكن مشاعر الفرح أوقفتها أخبار تقول إنّهم لن يعودوا إلى القاهرة، وأملوا ألا يعملوا شيئاً سوى القيام بمهام الحامية العسكرية في طربا. وصلت شكواهم إلى مسامع محمّد علي ووعدهم أنَّ المدّة لن تزيد عن ثلاثة أشهر. لقد كانت هذه الأشهر الثلاثة مضنية، وقد زاد من مرارتها المرض ورداءة الطعام. وبعد انتهاء هذه الفترة، عكرت الفرحَ الطبيعيَّ لجنود يعودون إلى أوطانهم غمامةٌ من أخبار سيئة. كان الطاعون في جدّة، وكان الموكب الذي انطلق من طَرَبا حزيناً. كانت مكة على طريق مسيرتهم، لذلك وطئت قدما فيناتي شوارع المدينة المقدسة للمرة الثالثة. لكن الهمسات التي سرت عنه «الخطر المكشوف والذي لا مبرر له» الذي أُرسلوا إليه، شددت من عزمهم لدى اقترابهم من الشاطئ. قال أحد الضباط: «كم كان من الأفضل أن يموتوا في ميدان القتال من الذهاب إلى الهلاك كالقطعان النتنة». وجدوا شوارع جدّة خالية والمحلات مغلقة. كانت الجثث متعفنة في كلّ جانب. وكانت الشفقة واللياقة غائبتين. لم يكن هناك أي اهتمام بدفن الجثث أو نقلها. أصاب الطاعون فيناتي، لكن معنوياته ـ التي كانت من طبيعتها الابتهاج والتفاؤل ـ ساعدته، فشفي. وغادر سواحل الجزيرة العربية للمرة الأخيرة.

أهلك الطاعون والازدحام والمصاعب الأخرى أكثر رفاقه، ومن بين 550 رفيقاً لم يصل إلى السويس إلا 190. وانطلقوا في مسيرة صحراوية أخيرة. واستقبلوا منظر مآذن القاهرة بفرح عظيم.

انتهت مهمة فيناتي في أعمال المغامرات. استلم مستحقات متأخرة من رواتب له عن ثمانية عشر شهراً وترك الخدمة. والتقى برجل إنكليزي، اسمه ويليم جون بانكرز (William John Bankers) رافقه كمترجم عبر الجزيرة العربية وسورية وفلسطين وأخيراً إلى إنكلترا.

يمتنع برتون عن كيل أي مديح إلى فيناتي إلا كونه رحالة إلى أبعد الحدود. وسواء أوافقنا مع هذا الحكم أم لا، فإنه من المستحيل إنكار أنه من نموذج ساحر حقاً. يتمثل مصدر هذا السحر في سلوكه في طيب قلبه والأخلاق الجيدة العادية تكمن في اتباع المؤشرات الخارجية للنزعة الطبيعية لفعل الخير. والشخص الذي لا يكسب إلا هذه بنجاح، تكون لديه خصال تشبه خصال الممثل. وفيناتي هذا قد يكون أو لا يكون امتلك هذه المؤشرات الخارجية فحسب، ولكنه امتلكها إلى درجة كبيرة. إنني لا ألمح إلى طيب فاطمة المسكينة، بل إلى الفضل الكبير الذي أظهره له سيده التركي، والمعاملة الكريمة من شخص محترم مثل طوسون باشا وحتّى محمّد علي بالذات.

يعزو برتون أيضاً السرد التفصيلي لفراره المتكرر، وخيانته لفاطمة، إلى فقدان الحس بالعار بدلاً من الإخلاص. ومن هذا نستخلص أنه أبلى بلاءً حسناً كرجل في كثير من المعارك البائسة التي شارك فيها. ولو أن فيناتي كان بوسول Boswell (كاتب سيرة ذاتية اسكتلندي) نفسه لكانت لديه الروح المعنوية والقوة التي لا تكل للتمتع بحياة نموذجه الأصلي الخالد.

ليون روش

Leon Roches

(حاج عمر)

1257هـ ـ 1842م

«إنّك تستحق أفظع العقوبات إن توقفت عن السير على دروب الرب، بعد العلامات المباشرة التي أراك إياها لحمايتك». هذا ما قالته امرأة من طبيعة تقية. ولا يمكن لوقائع سيرة حياته، بما فيها النجاة مرتين من الموت بأعجوبة، إلا أن تجعلنا نغرق في بحر التأمل في كلامها.

ولد روش في غرينوبل (جنوب شرق فرنسا) في عام 1809. توفيت والدته عندما كان عمره عدة سنوات. وهاجر أبوه إلى الجزائر حيث استثمر ماله في الأرض. قضى طفولته مع إحدى عماته. كانت والدته بالتبني هذه دليلاً مرشداً له في أوقاته العصيبة. بالرغم من أنه لم يكن في جميع فرص حياته الغريبة دون أصدقاء، فإنه ـ بفضل طبيعته المُحبة والكريمة ـ لم تتوقف روابطه الأولى من أن تكون الأقوى.

كان للدراسات القانونية التي انخرط فيها روش بعد تركه الجامعة

قليل من السحر عليه. لقد انجذب نحو التجارة والفرص التي تتيحها للسفر، لكن مسيرة حياته تغيرت فجأة عند دعوة أبيه له للالتحاق به في الجزائر. كان في الثالثة والعشرين من عمره، وقد شعر بالمرارة عندما غادر فرنسا. بقي حنينه للوطن يرافقه مدّة طويلة، وكانت له أسباب أخرى للقلق. لقد كانت رؤى أبيه وشركائه للمستقبل تبدو لعينيه قليلة الخبرة، لا تعد بالنجاح. كان أبوه وشركاؤه يمكن أن يكونوا «أي شيء ما عدا مزارعين».

اقترح أحدهم على روش أن ينخرط في التسلية الاجتماعية علاجاً لضعف معنوياته. أُرسل لزيارة سيدة مراكشية، أرملة داي الجزائر السابق (حاكم تحت السلطة العثمانية). عاد مفتوناً بحديثها وسمّو أخلاقها. وتكررت الزيارة، وهذه المرة لم تكن وحيدة. كانت رفيقتها فتاة جميلة في الرابعة عشرة من عمرها. كانت خديجة هذه من النموذج القوقازي، ذات عينين زرقاوين وحاجبين أسودين مقوسين. كانت خجولة ومرتبكة أثناء حضور روش؛ فقد كانت المرة الأولى التي ترى فيها مسيحياً.

تقابلا في السنة التالية مرة أخرى، وأصيب بالذهول من تطورها السريع. عاتبته بخجل لأنه لم يتعلم العربية. لكن حصل ما لا بُدَّ منه. أصيب بنوبة حمى وصار ينادي اسمها وهو يهذي. وعندما نهض من فراش المرض وجد أن خديجة اختفت. فقد نقلها والدها. كان عزاؤه الباقي أنها علمت بحبه.

دفعته هذه المواقف العاطفية ومشاعر الخيبة إلى حياة العمل. أصبح ضابطاً في الحرس الوطني الذي أنشأه الدوق دو روفيغو Duc de Rovigo، الحاكم العام للجزائر ودخل خضم الملذات الاجتماعية التي

يقدمها له هذا المركز. فجأة ومضت أمامه ذكرى الماضي. ففي إحدى حفلات العشاء التي كان ضيفاً فيها، كان عذر إحدى السيدات عن تأخرها في المجيء حضور حفل زفاف في إحدى العائلات المراكشية البارزة. ومن ملاحظتها الأخرى أدرك بالتدريج أنَّ العروس كانت خديجة وعرف أيضاً أنها تزوجت ضدّ إرادتها، وأنها تحب شاباً فرنسياً. والآن صمم على تعلم اللغة العربية، وعلى التغلب على نفوره في البدء من أصوات هذه اللغة التي تخرج من الحلق. واستأجر أستاذاً لهذه الغاية. ولأن طبيعة روش كانت من النوع النادر الذي يجد خيراً في كلّ شيء وفي كلّ شخص، أصبح الأستاذ في فترة قصيرة صديقه، واعترف له بسره بشأن خديجة. بعد ذلك حصلت له زوجة الأستاذ على مقابلة مع مسعودة، وهي زنجية كانت ممرضة خديجة، في الحمام. وبالرغم من أنَّ الاثنين وافقا على أنَّ اللقاء كان مستحيلاً، إلا أن مسعودة تعهدت أن تكون المرسال بين العشيقين. وأخيراً كان من الممكن إجراء لقاء لمدّة خمس دقائق. عبْر الشارع الضيق الذي كان يفصل رصيف قصر خديجة ورصيف أحد المنازل استطاع روش أن يدبر أمر الدخول إليه، تبادل العشيقان مصافحة حارة. قالت خديجة: أجرك على الله لأنك تعلمت لغتنا». ومنذ ذلك الوقت، صارت تراقبه بالنظارات من كشك على الرصيف وهو يركب حصانه في إحدى الطرقات البعيدة التي تؤدي إلى البلدة. وبعد أنْ يترجل، كان يجلس في ظلّ شجرة تين ويبادلها النظرات، وكذلك عبر النظارات. كان ذلك حباً روحانياً، ممكناً عند رجل ذي قلب نقي ومثلٍ عليا مثل روش.

وبفضل تقدّمه غير العادي في اللغة العربية، استلم وظيفة مترجم في مناسبات مبيعات الأراضي بين السكان الأصليين والأوروبيين. لم

يمنعه هذا العمل من أداء واجباته العسكرية. التحق بالحملة الذاهبة إلى مديه Medeah من أجل تنصيب باي (منصب حكومي عثماني). ومما لا شكّ فيه أنه كان يأمل أن ينال المفخرة في عيني خديجة، ظناً منه أن لا شيء في العالم يمكن أن يسيطر في تزكية رجل عند امرأة، أكثر من شهرة البسالة، كما يقول السير توبي بلتش، Sir Toby Belch (في إحدى مسرحيات شكسبير). ولدى عودته تمكّن من تدبير عدة لقاءات مع خديجة في قصرها، أثناء غياب زوجها. كان هذا العمل يتسم بالخطورة الكبيرة إذا استمرت ممارسته فترة طويلة. أثيرت شكوك الزوج فأبعد خديجةِ إلى ميليانه، Milianah.

كانت ميليانه هذه معقل ذلك الرجل البارز عبد القادر، الشخصية المركزية في تاريخ المقاومة العربية للهيمنة الفرنسية. كان الحكم التركي الذي أصابه الضعف منذ زمن طويل، والمعتمد في وجوده المستمر على إقطاعات شيوخ القبائل العرب، قد انهار قبل الغزوة الفرنسية في عام 1830. وبالرغم من أنَّ الجزائر ووهران وقسنطينة والمدن الأخرى على الساحل كانت خاضعة لفرنسا، فإن سكان الداخل والجبال والصحراء، كانوا لا يزالون يحافظون على حريتهم. أحيت معاهدة طنطا في عام 1837، الآمال في سلم دائم. في فرنسا اشتهر عبد القادر بأنه رجل ذو عبقرية يود أن يمّدن البلاد ويبعثها من جديد، مثل محمّد علي في مصر الذي كان يحلم بالاندماج بين العنصر الوطني والأوروبيين.

وجد روش فرصته. كان من عادته أن يلبس لباس المسلمين في السنتين السابقتين. لقد عرفته وظيفته كمترجم بالعادات العربية. وعرّفه أستاذه وصديقه إلى آلاف التفاصيل التي لا يعرفها الأوروبيون. لماذا لا

يحاول الوصول إلى عبد القادر في لباس فرنسي اهتدى إلى الإسلام، ونيل ثقته، ويصبح الوسيط في برامجه لإعادة البناء؟ إنه لن يرتد رسمياً عن دينه، فمثل هذا العامل أحدث الاشمئزاز في نفسه، بالرغم من أنه لم يكن من طبيعة متدينة. وإذا نجح في كسب ودّ عبد القادر، فإنه سيحاول أن يقنعه أنَّ السلام مع فرنسا سوف يُحدِث بالتأكيد إيقاظاً للإيمان في عقول الناس الذين أسيئت معاملتهم أثناء الحكم التركي السيئ. وأخيراً، وبعد أنْ يصبح ذا سلطة غير محدودة بسبب صداقته للأمير، فقد يحسّن شؤون والده ويحصل على الطلاق لخديجة ويتزوجها.

يمكننا أن نصور هذا الفرنسي الشاب على النحو التالي: «جريء في الحب غير هياب في الحرب.». يدير ظهره للحضارة راكباً حصانه وحيداً بين الممرات الجبلية في براري الجزائر. مرّ بعض الوقت قبل أن يصل إلى مخيمات الشيوخ الأقل قدراً، معلناً أنه مسلم، وأصبح خبيراً في شخصيته الجديدة. لم تكن مهمته قليلة الأهمية. لم يؤنبه ضميره عندما قام بالشعائر الإسلامية والصلاة والصيام وحسب، بل تضايق حسه الوطني كثيراً بسبب تعليقات زملائه الجدد. كانوا يتفاخرون بقتل شخص فرنسي. قالوا إنه بمجرد نشوب الحرب المقدسة ثانية فإنه سيكون بين صفوفهم ويجب أن يقتل حتّى أباه. قالوا إن الفرنسيين جبناء لا يقاتلون إلا عندما يكونون سكارى. وفي إحدى المرات اغتاظ من أقوالهم بحيث طلب عشرين من محدثيه إلى المبارزة حتّى الموت. لكن هذا العمل الطائش اعتُبر تهوراً وغفروه له بسبب إسلامه الحديث في الدين، لكن كانت له نتائج هامة لاحقاً.

كان عبد القادر المولود في 1808 أكبر سناً من روش بسنة واحدة.

كان المبدأ المرشد له في كلّ عمل من أعماله الإيمان بما هو غير منظور. قال إن نجاح جميع المشاريع الجديدة يعتمد على إيمان القائمين عليه. كان يدّعي النسب إلى فاطمة ـ ابنة محمّد. وأخيراً عندما دخل روش مخيمه وقابله للمرة الأولى، صعق من مظهره الشخصي: بشرة الأمير الشقراء وعيناه الزرقاوان بأهداب سوداء وحاجبين جميلين مقوسين، وأنف كالنسر، وشفتان رقيقتان. كانت يداه صغيرتين وتظهر فيهما العروق الزرقاء. كان طوله أكثر من خمسة أقدام بقليل، لكنه كان قوي البنية نشيطاً.

كان في مخيم عبد القادر 15000 رجل و12000 حصان و1000 جمل، إضافة إلى البغال والحمير. كانت الخيام المخروطية الشكل موزعة في دائرة واسعة. كان الأمير وقتها يقوم بحرب ضدّ الكولوغلي ـ Coulouglis وهم عرق نشأ من التزاوج بين رجال أتراك وعربيات أو مراكشيات ـ على أساس أنه كانت لهم تعاملات مع المسيحيين. كان الأتراك أسياداً للجزائر منذ ثلاث مئة سنة، لكن بالاستثناء السابق لم يكن هناك أي اندماج بين الغالبين والمغلوبين. لم تستقر أي امرأة تركية في الجزائر، ولأن العرب والأتراك ينتمون إلى مذاهب مختلفة في الإسلام، فقد كانت خلافاتهم يذكيها الدين. جرى استقبال روش استقبالاً طيباً من الأمير عبد القادر وسمح له أن يشارك في المعارك ضدّ الكولوغلي، وأبلى بلاءً حسناً. وارتفعت منزلته بسرعة عند الأمير. كان عبد القادر بنفسه يوجه تعليمه الديني.

لم يمرّ إسلام شخص مثل روش وهجرته لبلاده دون ملاحظة. لقد كانت روح عبد القادر السامية خالية من الشكوك الضئيلة، لكن كان

هناك عدد كافٍ من مختلقي الأقاويل والهمسات في الزوايا المعتمة. وأصيب روش بالدهشة عندما جرى توجيهه من هناك إلى تلمسان، بينما كان في مهمة إلى مسكرة، ظاهرياً كي يكمل دراسة القرآن. أدرك أنه كان مشكوكاً في أنه جاسوس. أصبح مقر إقامته غرفة صغيرة في خان بمساحة عشر أقدام مربّعة. وفي مساء يوم وصوله، بينما كان يفتح بابه لشخص يقرعه، رأى رجلاً نحيلاً طويلاً هزيلاً أبيض اللحية. كان هذا الحاج بشير معلمه.

كان روش يملك إحدى الطبائع المتفائلة التي تجعل كلّ من يأتون إلى داخل دائرتها يذوبون في الطيبة. في وقت قصير أصبح على علاقة ودية وثيقة مع الحاج بشير. ولم يكن التغيير نحو الأسوأ بالكامل؛ فقد تحرر من نظرات العرب الفضولية. لكن الشبكة ضاقت حوله: إذ اتّهم الحاج بشير بالتحيز الشديد وأُبعد. وبدأت مشاعر الحزن تتملك روش، وتلا ذلك الحمى. ولأنه كان وحيداً ومريضاً بين ناس غرباء، لجأ للصلاة للمرة الأولى في حياته.

وفي هذه المرحلة الحرجة التحق به خادمه الفرنسي ايزيدور الذي تنكر بزي عربي دون أن يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية. ولما شعر روش أن وضعه الحالي لا يطاق فكر في الهرب إلى وهران. ركب حصانه وركب خادمه الحمار وانطلقا. ولكن بعد أنْ عبرا غابة تعيش فيها الأسود، ألقى القبضَ عليهما مئةٌ من الخيالة وأعادوهما بالقوة. ولم ينقذ روش من الإعدام سوى سرعة بديهته؛ لقد طلب أن يرى أمراً من السلطان.

كان عبد القادر حينئذٍ في مديه (Medeah)؛ حيث أرسلوا روش. شقّ طريقه بالقوة إلى الغرفة وأنّب الأمير بعنف. أقسم اليمين أن سلوكه

كان سلوك مؤمن حقيقي، وأنه عُمِل بقسوة من قبل من كانوا مسلمين بالاسم فقط. ذكّر الأمير أنه ترك بلاده وعائلته وراحة البال كي يخدمه. ظهرت علامات الخجل على وجه الزعيم العربي. وطلب منه السماح ووعد أن يعوض له هذا الظلم الذي أصابه.

كان عبد القادر غير مرتاح في مديه. لم يكن تبديل خيمته بأربعة جدران وسقف أمراً ساراً. أمضى وقتاً كثيراً يسأل روش عن السياسة الأوروبية ولم يكن مسروراً من الإجابات الصريحة التي تلقاها؛ وخصوصاً ما يخص موقف فرنسا من الجزائر. جدد روش مرة أخرى إلحاحه على أنَّ السلام الدائم سيكون الأفضل. أجابه الأمير أنه لا يزال يحاكم كمسيحي. شعر روش في قرارة نفسه أنَّ الحرب ستندلع قريباً وقرر أن يعود إلى مواطنيه من الإشارة الأولى.

وفي تلك الأثناء لم يهمل دراسة القرآن وكان لذلك تأثير غريب. لم يكن روش يدرك أبداً جمال المسيحية الرائع بالكامل. لقد شعر بالفرح الذي لا يوصف عندما صلّى للإله المسيحي في المسجد. كان المسلمون يحولونه إلى مسيحي متدين.

حدثت حادثة جديرة بالذكر في مديه وهي اجتماع تمّ بين روش ووالده. اقترح عبد القادر أن يكون روش الأب وكيلَه في الجزائر. كان وجود الابن معه ضمانة للحماسة والتفاني. كان روش قد اعتاد كثيراً على إخفاء أفكاره وتظاهر بالفرح للاجتماع المحتمل. وقد فعل الشيء نفسه عندما حدث الاجتماع علناً. ولم يطلق العنان لمشاعره المكبوتة إلا بالسرّ. رأى والده تجسيداً لبلاده وعائلته ولكل أحبائه. كان هناك منظر مؤلم أثناء حضور عبد القادر. تحدّث الوالد عن وحدته وعن

الحزن الذي سببه غياب ولده. أجاب عبد القادر أنه لو أقسم أن يعيش كمسلم صالح فإنه سيعود. لكن روش الذي كان يعمل مترجماً بين الاثنين غلبته مشاعره. وتلا ذلك صمت، قطعه نشيج بكاء العجوز. فجمع روش كلّ شجاعته ورفض. أثر رفضه تأثيراً كبيراً على عبد القادر الذي بدت مشاعره نحوه قد تضاعفت عشر مرات منذ ذلك اليوم.

جرت مناقشة موضوع آخر ذي أهمية بين الأمير وروش في مديه. فكر عبد القادر أن ينظم بعثة إلى فرنسا بالكنز الذي استولى عليه من الكولوغلي. كان يأمل أن يرشو المندوبين، أو حتّى أحد الوزراء، لكي يتحدث في المجلس ضدّ الاحتفاظ بالجزائر. أقنعه روش أنَّ هذا الأمر عقيم، وأشار إلى أن هناك خطباء غير مأجورين يصرخون بصوت عال ضدّ الإلحاق (الضم). إن هذا سيتم تصديقه بسرعة من قبلنا نحن الذين رأينا ظاهرة تأييد حرب البوير.

لم تكن طبيعة السلم غير المستقرة عند روش السببَ الوحيد للقلق. لم تصله أي أخبار من خديجة. كان زوجها من الكولوغلي وكان عبد القادر قد نفاهم من ميليانه، وأجبرهم على الدخول إلى داخل البلاد كي يصبحوا أبعد ما يمكن عن التأثير الفرنسي.

وعبد القادر الذي كان تواقاً لأن يمدّ سلطته فوق البلاد الواقعة بين تونس ومراكش، كان يخطط لحملة ضدّ المرابط القوي الذي يدعى سيدي محمّد التيجاني (Sidi Mohammed Èl Tedjini). كانت أم مضي (Am Madhi) معقل التيجاني في الصحراء. تجاهل عبد القادر قوة مقاومة هذا المعقل ضامناً خضوعه، ولم يقم بأي استعدادات ضرورية لحصار البلدة المحصنة. وعلى بعد مسيرة يوم من أم مضي (Am Madhi)

توقف محتاراً. عندئذٍ تقدّم روش وعرض أن يتقدم نحو البلدة بصفة مبعوث للسلام، وعندما يدخلها يجمع أي معلومات يمكن أن تكون ذات نفع للهجوم. عارض عبد القادر ذلك لأنه سيكون ذاهباً إلى موت مؤكّد. أجاب روش: «ألم تعلّمني أن ساعة موتنا مكتوبة في كتاب الله وأن المرء لا يستطيع أن يقدّم أو يؤخر الأجل المحتوم؟» عندئذٍ سلمه عبد القادر رسالة وفوضه بالتعامل مع التيجاني.

انطلق روش نحو أم مضي (Am Madhi)، وقبل أن يكون على بعد عدة ساعات في الطريق إلى هناك استطاع أن يرى للمرة الأولى في حياته آفاق الصحراء الواسعة مكشوفة أمامه. وبعد فترة قصيرة كانت الواحة أمامه، تلك التي كانت نباتاتها تقف قبالة الأرض الشاحبة ذات اللون الواحد والتي كانت تحيط بها من جميع الجهات. كانت البلدة مبنية على تلة صغيرة، يحيط بها سور بارتفاع حوالي خمسة عشر قدماً وبعرض قدمين ونصف، وعلى جوانبه حصون. كانت البوابة الشمالية مغلقة. ورداً على نداءاته، أُجيب أنه غير مسموح للغرباء الدخول؛ ومن الأفضل أن يسلم رسالته. وبينما كان يستدير لكي يعود، حدث شيء غريب. صرخ له صوت بالفرنسية: «انتظر يا سيد، سأحصل على إذن من المرابط لك بالدخول». وفي اللحظة نفسها رُميَ حبل من فوق السور. أمسك روش به، وارتفع ونزل في البلدة. وعندئذٍ انكشف سرّ الصوت. كان فار فرنسي أقنع سيده بالسماح لروش على أساس أنه سوف يفرّ أيضاً. لم يكن هناك وقت يسلم فيه المواطنان أحدهما على الآخر، لأن حشداً أحاط بروش وحملوه إلى القصر.

وبعد أنْ تركوه وحيداً في الساحة، لاحظ حاجزاً من القضبان المتصالبة في الطرف البعيد. كانت هناك نساء من الحريم. وفجأة دخل

ولد ووضع سبحة بين يديه. كانت ـ كما قال ـ هي التي يرسلها والده المرابط إلى من يعطيهم الأمان، ومن يحملها عليه ألا يخشى شيئاً. راقب روش مغادرته، وهو منذهل من تسلسل الأحداث الغريب، عندما دخلت مجموعة من الزنوج ـ أقوياء وذوو ملامح شرسة، اقتادوه إلى حضرة التيجاني. وعند الطرف البعيد من قاعة واسعة زينت بزخارف عربية، رأى أريكة اتكأ عليها رجل في الخامسة والأربعين من عمره، بين وسائد من ذهب. كان الوقار والتميز يظهران في وجهه البرونزي. أخبر روش أنه يخدم سيداً ناكراً للجميل، أرسله للموت. ومن المؤكّد أنه سيموت ما لم يوافق على ترك سيده ويدخل في خدمته، وعندها ينال الثروة والتكريم. أضاف صراخ الجموع الذين تجمعوا في الخارج مطالبين برأس الجاسوس، أهمية فظيعة لهذه الكلمات؛ «لا الترهيب والترغيب سيجعلانني أخون سيدي. دعوا خدمكم يقتلون رجلاً جاء إليكم دون شبهات ويحمل الضمانة التي أرسلتموها علامة للأمان». وبهذه الكلمات رفع السبحة فوق رأسه.

كان لهذه الكلمات تأثير تجاوز كلّ توقّعاته. صُعق التيجاني، وبعد وقت تلعثم سائلاً من أين أتيت بهذه السبحة. كان الجواب «طلبتها من ابنك ولم يجرؤ على الرفض». أكّد له تيجاني أنه قد نجا بحياته طالما أنَّ تلك إرادة الله، لكنه كي يثبت استخفافه بتهديدات عبد القادر، دعاه إلى إلقاء نظرة على البلدة وتفقدها.

رافقته زمرة من الجنود الزنوج لهذه الغاية. قدر أن عدد السكان كان 800 نسمة. جعلته مخازن الطعام داخل الأسوار يقتنع أنَّ البلدة تستطيع تحمل حصار طويل. أثناء جولاته التفقدية كان يتبعه جيئة وذهاباً

الجمهور الذي كان يصرخ أو يحملق به ويندفع نحو المتراس الأسود من حماته غير المتحمسين. عادوا به إلى القصر ثمّ بعد هبوط الليل إلى المكان الذي تسلق منه الجدار. تجمعت كثير من الأفكار في عقل روش بينما كان يتابع طريقه إلى مخيم الأمير. كان مقتنعاً أنه مدين بنجاته لخديجة، بالرغم من عدم ما يثبت هذه القناعة.

كان التيجاني قد رفض التفاوض، لذلك استعد عبد القادر لحصار أم مضي (Am Madhi). رافق الفشل جهوده الأولى. لم يحدث القصف أي تأثير. وكانت القذائف غير المتفجرة تعاد من قبل المحاصرين بازدراء. حاول المهندسون التلغيم، لكن وجود خندق داخل السور جعل جهودهم دون جدوى. بدأت هيبة عبد القادر تخبو، وكانت القبائل المجاورة تسلب مبعوثيه. كما أنَّ سوء طعام جنوده كان السبب في انتشار الحمى والزحار. أصيب روش بجرح وكانت الحمى قد أنهكته وقد شَفَى جرحَه وضعُ زبدة مقلية عليه. وقد عزا سبب شفائه تقريباً إلى صلوات عبد القادر، لم يرَ من قبل تعبيراً عن نشوة دينية مثلما رأى على وجه الأمير وهو وحيد في خيمته.

وأخيراً سقطت أم مضي (Am Madhi) بعد عدة أشهر، بفضل الخبرة الهندسية لفارٍّ هنغاري. اخترع لغماً تجنب فيه الخندق الموجود حول الاستحكام. والحصار الذي بدأ في 1 يوليو/ تموز 1838، انتهى في ديسمبر/ كانون الأوّل من العام نفسه. لم يكن روش بحاجة لتذكّر حدسه الغريزي أن خديجة كانت من أنقذه من عواقب عمله البطولي المحفوف بالمخاطر. في خلال جميع أشهر الحصار المضنية كان الخوف يساوره أن تكون داخل المدينة. وبعد الاستسلام استطاعت

زنجية عجوز أن تجري مقابلة معه. كانت مسعودة. باختصار أخبرته تاريخ خديجة منذ أن تركت ميليانه مع زوجها. انطلقا نحو مراكش لكنهما جعلا أم مضي (Am Madhi) موطنهما المؤقت. كانت خديجة من رأى روش من شباك قصرها يتسلق السور واخترعت الخدعة التي أنقذت حياته. كان السؤال القلق؛ «أين هي الآن؟» جمّد صمتُ مسعودةَ الدم في عروقه. هل حصل الأمر الأسوأ؟ نعم كان ذلك. فقد ماتت من القلق أثناء الحصار وتركت لروش دعواتها بالبركات.

قضى روش الأشهر التي تلت هذه الحادثة المأساوية في السفر في الصحراء مع عبد القادر. وفي إحدى المرات عاد إلى أم مضي (Am Madhi) ليصلي على قبر خديجة. وكتب رسالتين باسم عبد القادر إلى ملك وملكة فرنسا وإلى رجل الدولة ثيير (Theirs) وإلى المارشال جيرار، لكن من دون نتيجة. بعد ذلك أعلن عبد القادر أنه ينوي أن يعيش في تاغديمت (Tagdempt)، وأن روش يجب أن يسكن هناك وأن عليه أن يتزوج. وقد اختار له زوجة وهيأ له بيتاً.

لكن هذه الأخبار السيئة انتقلت إلى المقام الثاني من حيث الأهمية بسبب حدوث أمور أكثر سوءاً وترويعاً. فقد انتهكت فرنسا هدنة تافنا (Tafna) وغزت القوات الفرنسية سهول ميتيدجا. عبر جيش بقيادة دوق أورليان (Duke of Orleans) والمارشال فالي (Marshal Valee) ممر بيبان من قسنطينة، زاحفاً نحو الجزائر. اعتبر عبد القادر مرور الجنود الفرنسيين فوق أراضيه إعلاناً للحرب. وعبّر عن سروره أنَّ الكفار هم الذين خرقوا المعاهدة، وعنّف روش بسبب منظره الحزين. اعترف روش بكرهه للقتال ضدّ أبناء وطنه، لكن عبد القادر أخبره أنه تفوه بكلام عاق.

قال عبد القادر بتهجم: «في اليوم الذي اعتنقت فيه دينك الجديد، حطّمت كلّ الروابط التي تربطك بالكفار». لكن روش اليائس والمنزعج انفجر مجاهراً بكلام مشؤوم: «حسناً إذن، لا، أنا لست مسلماً». كان حدسه التالي أنه كان مديناً بحياته إلى العاطفة التي حركها في عبد القادر، والبراهين التي قدمها على ولائه، صحيحاً. في هذه اللحظة، ظن أن عبد القادر على وشكّ أن يستدعي جنوداً ويأمر بإعدامه. لكنه كان مخطئاً. رغب الأمير أن يؤكّد لنفسه أنه لم يسمع أحد غيره هذه الكلمات الرهيبة. فقال: «أغرب عن وجهي. اذهب واحذر أن تكرر أمام المسلمين الكفر الذي نطقت به أمامي. لأنّني وقتئذ لا أستطيع أن أضمن لك حياتك. انصرف». هرب روش من المخيم يرافقه ايزيدور. كان قد عاش بين العرب مدّة سنتين. وهو الآن في شوق لأبناء وطنه. لم تجرِ أي محاولة للحاق به. تخيل أنَّ الأمير الذي تأثر من اعترافه الشجاع، تظاهر بعدم معرفته بهروبه. وبعد عدة أيام وليال من التجول والضياع عن الطريق، رأى فجأة شعاعاً من نور الشمس في قمة الجبل فوق وهران.

وبينما كان راكباً حصانه إلى المخيم الفرنسي، أحدثت ثيابه الكتانية البيضاء الفخمة وأسلحته الجميلة، وحصانه الأسود الرائع ذو الأسرجة الفاخرة، انطباعاً عندهم أنه شيخ قبيلة عربية. لم يصدق الضابط حكايته ووضعه رهن الاعتقال. لم يصبه أي أذى، سوى ان فرحه العارم بالعودة إلى الحضارة توقف. وفي فترة قصيرة نجح في إثبات هويته، وفي يوم 16 نوفمبر/ تشرين الثاني من 1839 غادر وهران إلى الجزائر.

سارت أمور أبيه من سيئ إلى أسوأ. فقد باع أرضه وكان غارقاً في

الدَّين. بقي روش في الجزائر حتّى يناير/ كانون الثاني من السنة التالية، ثمّ قام بزيارة إلى باريس للمرة الأولى في حياته. كانت شهرته قد سبقته. أصبح رجل الساعة. تقاطر الجميع لرؤية السكرتير الخاص الشهير لعبد القادر. تمّ تقديمه إلى دوق أورليان وأجرى مقابلة مع ثيير، ولم يكتمل أي اجتماع للطبقة الراقية من دونه. قدّر روش عملية الحفاوة بقيمتها الحقيقية. لقد استمد الفرح العميق من اجتماع الشمل مع عمته التي كانت بمثابة الأم له. لقد كان تاريخ حياتها عاصفاً منذ افتراقهما. ماتت ابنتها الوحيدة بالكوليرا، ونشأ عن ذلك انهيار في إيمانها وأصبحت وجهاً لوجه مع حالة عدم الإيمان بالله (No Everlasting)، عندما أعادها الراهب لاكوردير (Abbe' Lacordair) إلى ثقتها بالله.

تذوق روش طعم مسرات الحياة العائلية للمرة الأولى منذ أن أصبح في سنّ الرجولة. كان يتطلع بشوق إلى الوقت الذي يتذوق فيه المتعة في أن يصبح له بيت خاص به. فخطب إحدى الفتيات قبل عودته إلى الجزائر. نزل في الجزائر في يوم 4 إبريل/ نيسان بعد تعيينه رسمياً مترجماً من الدرجة الأولى. لكن مركزه في الجيش تغير. تحرّكت ألسنة الشرّ بالقيل والقال في تلك الفترة. يبدو أنَّ التقارير بشأن تعامله مع عبد القادر كانت ذات تأثير مؤذٍ على مهنته. وصفه المارشال أورليان عند الدوق بالمرتد وأجبر على ترك هيئة العاملين عنده. وتلت ذلك علامات على البرود الرسمي نحوه. ولم تؤخذ مشورته في أمور كانت معرفته فيها فريدة بسبب خبرته بتلك البلاد.

عندما تمّ استدعاء فالي، وتعيين الجنرال بوجو (Bugeaud) ـ الذي أصبح فيما بعد مارشالاً ـ بدلاً منه في فبراير/ شباط 1841 ـ بدأت

الغيوم تنقشع. كان بوجو ذا موقف ودي من روش، لكن عندما غادر روش إلى الجزائر في تموز، بعد الحملة، رأى أن سمعته الجيدة لم تُستعَد والإشاعات الشريرة انتشرت. كان تحوّله الديني الزائف، وقبوله مركز المسؤولية عند عبد القادر معروفين. لكن لم تؤخذ دوافعه وهروبه كي يتجنب الحرب ضدّ بلاده بعين الاعتبار، وفي الوقت ذاته جاءت أنباء من عمته أنه يجب ألا يعول كثيراً على مشروع إتمام زواجه. الوداع لآماله في السعادة العائلية!

كان روش حساساً جداً ومتأثراً بآراء الناس الجيدة حول السعادة، بحيث لم يستطع تجاهل هذه الصدمات. بدأ يتمنى الموت. وازدادت الغيوم القليلة على أفق أيام شبابه وتراكمت حتّى أصبحت سماؤه ملبدة بالغيوم الرمادية. لقد انقضى العقد المشؤوم، بين العشرين والثلاثين، وفاتَه قطار الزمن الذي يجلب الحظ والثروة. أمور كثيرة ساهمت في تحطيم ثقته في حظه؛ فشل والده، موت خديجة، فشل مهمته مع عبد القادر، والشكوك الظالمة التي كان هدفاً لها، وفشل خطوبته. وتلا ذلك بشكل حتمي هبوط في حيوية الشباب والظن أنه لا شيء سوى الفشل سيرافقه بعد ذلك. قادته رغبته في الموت إلى طلب مهمات محفوفة بالمخاطر. كان مقتنعاً أنَّ العرب سوف يستمرون في مقاومتهم لأنّهم كانوا يؤمنون أنَّ العقاب الأبدي كان ينتظر الذين يعيشون في سلام تحت حكم الكفار. كان عبد القادر قد اختار آيات معينة من القرآن بهذا المعنى. وكان روش يؤمن أنه لا يمكن توقّع مثل هذه النتائج السيئة إذا احترم الغالبون ديانة المغلوبين. وكان تيجاني ـ عدو عبد القادر ـ يؤيد وجهة نظرة، وكان قد تبادل معه وجهات النظر حول هذا الموضوع. وأضاف تيجاني أنه من أجل إقناع العرب المؤمنين بالغيب

يجب إصدار فتوى (قرار ديني) وتوقيعه من قبل الهيئات العلمية (العلماء).

وافق الجنرال بوجو على الخطّة، وعيّن روش لتنفيذها. قدم له التمويل وأعطى والده مركزاً بلدياً. تنازل روش عن راتبه كمترجم لدائني والده أثناء غيابه. ولم يكشف موضوع مهمته لأحد. وعندما غادر الجزائر في 1837 ليلتحق بعبد القادر، شعر بالحزن عندما فارق أباه وبلاده، وتذكر أوهامه وآماله الماضية بخديجة. لكن الحقيقة القاسية جاءت محل أوهامه وغادر وليس لديه أمل في رؤية بلاده وأصدقاؤه مرة ثانية. لقد كبّلته «واقعية» الحياة ودلالات المستقبل الكئيبة.

انطلق روش يرافقه مبعوث «تيجاني»، المعروف باسم «مقدِّم» إلى قيروان (اسمها القديم Cyrene). حمل رسائل توصية من التيجاني إلى العلماء في الجامعة القديمة والمشهورة التي تأسست في «سيدي عقبة» Sidi Okaba. لعب الذهب الذي قدمه بوجو بسخاء دوره. إن لم يشتر ضمير العلماء فإنه على الأقل يخفف من حدة تعصبهم. كتبت الفتوى على لفافة طويلة من ورق سميك صقيل، وكانت تتلخّص بما يلي؛ «عندما يقاتل شعب مسلم الكفارَ الذين غزوا بلاده طالما أن هناك أملاً بطردهم، وعندما يكون من المؤكّد أن متابعة الحرب لا تجلب إلا البؤس والدمار والموت للمسلمين من دون أي فرصة لهزيمة المحتلين، فإن هذا الشعب يمكن أن يختار العيش تحت حكمهم ـ على أن يحتفظ بالأمل في رفع النير عنه بمعونة الله ـ بشرط واضح أن يبقى لهذا الشعب الحقّ في ممارسة دينه بحرية، وأن يتمّ احترام الزوجات والبنات من هذا الشعب». وأخبر روش أن هذه الوثيقة سيكون لها تأثير بمقدار عشرة

أضعاف إذا وافق عليها العلماء في جامعات الشرق العظيمة. كانت تلك أوّل علامات حدسه لرحلته لمكة.

من القيروان انطلق نحو مالطا. وهناك التقى بروسبر ميريميه (Prosper Merimee) وهو مدين بنجاته لهذا اللقاء. أعطاه ميريميه رسالة توصية إلى قريبة فولجنس فرينزيل (Fulgence Frensel) القنصل الفرنسي في جدة لكنه كان وقتئذٍ في القاهرة. كان فرينزيل مستشرقاً عظيماً من مدرسة سيلفستر دو ساسي (Sylver de Sacy) الذي كان متمكناً من اللغة والأدب العربيين أكثر من أي شخص آخر في عصره أو أي عصر آخر. فقد اعتُمِدت كتبه المكتوبة باللغة العربية في أكثر الجامعات الشرقية شهرة. قال إنه كرّس أربعين سنة للدراسة ويحتاج الأمر أربعين سنة أخرى كي يحصل على المعرفة الكاملة؛ يعني القدرة على استيعاب أعمال الشعراء والكتاب في كلّ الأزمنة استيعاباً كاملاً. كان فرينزيل واحداً من أكثر طلابه تميزاً. لكن للغرض الحالي من المهم جداً الاعتراف أنه كان صديقاً حميماً ومحبوباً عند شريف مكة.

قابل روش فرينزل وكثيراً من المشاهير الآخرين في القاهرة وسرعان ما تطورت هذا المعرفة العرضية ـ كما كانت العادة ـ وتحوّلت إلى صداقة وثيقة ومحبة، وكان يتطلع بشوق إلى طرح آلامه جانباً. تعرف على محمّد علي، وقارن مظهر الباشا المشابه للأسد رمز الإدارة المؤسسة على القوة المادية، مع وجه عبد القادر الزاهد ورمز مصادر القوة فوق الأرضية. تحدثا عن الحرب في الجزائر. عبّر محمّد علي باشا عن استغرابه لمقاومة العرب الطويلة، وقارنها بمعاهدة الصلح السريعة مع مصر. ذكّره روش بالفرق الكبير بين معالم كلّ من البلدين بمفرده.

كانت الجزائر تجتازها جبال يصعب الوصول إليها، تحمي القبائل ممراتها منذ قرون، بينما كان البدو المتصفون بالشراسة والشجاعة يتجنبون التقدّم في الصحراء. وكانت مصر بلداً منبسطاً يسكنها شعب مقيم زراعي. كان حديثه الصريح يهز مشاعر مجالسيه المتوددين. لكن محمّد علي باشا لم يكن يبدو عليه السرور إلا ما ندر، باستثناء عقدة حاجبيه الرهيبين بين الحين والآخر. تخيل روش أنه يرى حالة الغضب التي انتابته عندما أمر بتنفيذ مجزرة المماليك، ظاهرة في عينيه.

كانت مهمة روش في القاهرة إيصال فتوى القيروان إلى علماء جامعة الأزهر. دام الاجتماع من السادسة بعد الظهر حتّى منتصف الليل. جال اثنان من أعضائه على الحاضرين وأخذا آراءهم التي قرأها الرئيس بصوت مرتفع وتمت العودة إلى الكثير من الكتب. كان منظر هؤلاء الرجال الضخمين بلحاهم البيضاء الطويلة ووجوههم الجامدة، وقد أضاءتها أنوار المصابيح المتذبذبة المتدلية من الأقواس المدببة، مؤثراً. وحول الجميع كان المسجد الواسع؛ أقواسه المزينة بالزخارف العربية تتكئ على مئات من الأعمدة ذات التيجان المذهّبة. للمرة الثانية أُعلن لروش أنَّ الموافقة العليا للعلماء في المدينة (المنورة) ودمشق وبغداد المجتمعين في مكة للحج، مطلوبة. لم تعد رغبة الموت ملازمة له. وبالرغم من عدم رغبته في العودة إلى البلاد التي قاسى فيها الكثير، بدا له المستقبل أقل سواداً. فالاستقبال الطيب الذي لقيه في مالطا ومصر واتّصاله بالناس المميزين، كان له التأثير المهدئ على طبيعته مفرطة الحساسية. كان غروره من النوع الذي وصفه ليسلي ستيفن الذي ينبع من توقه للعاطفة والثقة في زملائه. كانت الرحلة إلى مكة تبدو لمعنوياته المتجددة خبرة مثيرة أكثر من كونها طريقة لإزاحة أعباء الحياة عن كاهله.

كانت هناك مهمة أخرى تنتظره، لكنّها أقل أهمية من الفتوى. تحسين ظروف الحجاج الجزائريين الذين كانوا يعاملون كالقطيع على متن سفن البحر الأحمر. سيكون شاهداً على الطرق الهمجية للسلطات المصرية والتركية ويحمل صوراً تدعمها الوقائع تُؤخذ إلى محمّد علي، وإلى القناصل الأوروبيين في مصر وجدة وإلى الباب العالي من خلال ممثليه الدبلوماسيين الفرنسيين.

بعد ذلك تمت دراسة طرق الرحلة ووسائلها. كان هناك أعرابي ذكي من معارف روش، شيخ تونسي أخبره أن صهره سيد الحاج حسن ابن إبراهيم، كان أيضاً على وشكّ الذهاب إلى مكة، مع زوجته وعبيده الأربعة. رحب روش، بفرصة السفر مع الحاج السابق بصفة أوروبي مسلم حديثاً. هذا الحاج الذي كان أيضاً مفتياً (عالم شريعة بارزا). وتمّ الاتّفاق على أن يدفع نصف تكاليف الرحلة.

رغب روش في زيارة المدينة (المنورة) والوصول إلى مكة قبل الحج بعدة أيام. لذلك بدلاً من الالتحاق بالقافلة المصرية اتّصل مع ممثلي قبيلة ولد ابن علي (Ouled - ben - Ali) في القاهرة: وهي قبيلة ابن علي (أولاد عم ولد ابن علي من عنزة) الساحل الشمالي في جوار الإسكندرية. ونُظم اتّفاق أمام قاض مع مقوم لاستئجار اثني عشر جملاً للوصول إلى ينبع بسعر 80 جنيهاً. وفي يوم 6 نوفمبر/ تشرين الثاني 1841، انطلق روش يرافقه مقدم التيجاني، وإبراهيم وزوجته وعبدان زنجيان وزنجيتان والمقوم ـ وهو رجل ضخم مدجج بالسلاح ـ وأربعة مرافقين نوبيين، للالتحاق بقافلة ولد ابن علي. كانت تتألف من 400 حاج، و1000 جمل. استقبل رئيس القافلة روش بحفاوة بالغة.

كانت الحوادث الخارجية للرحلة قليلة. وروش الذي كان منشغلاً في مهمته أحجم عن كتابة أي مذكرات. يعتذر عن الإسهاب الذي وصف فيه الفتوى، على أساس أنها تحوي قيمة تاريخية. فلو أن أحد المدافعين عن الإسلام يهبّ في المستقبل ويهدد السيادة الأوروبية فقد يكون بالإمكان تعلم أفضل وسائل المقاومة الأخلاقية والمادية من الماضي. كانت المناوشات بين الحين والآخر مع البدو، أو في كثير من الأحيان المعالم المذهلة من سهول أو جبال تقطع تأملاته. بين هذه الأخيرة كانت سلسلة العقبة الغربية؛ كان مظهر الصخور يوحي بصور الفوضى.

في ينبع تحادث روش مع أصدقاء إبراهيم من التجار الذين زودوه بمعلومات عن معاملة الحجاج الجزائريين. لقد أصيب بالصدمة من مظهر الذين وصلوا بحراً. كان مئتان منهم يحشرون في سفينة لا تكاد تتسع لخمسين. كان غذاؤهم البسكويت الجاف وما يكفي من الماء لدرء غائلة الموت عطشاً. كان من يموتون من الجوع أو الاختناق يُسلبون ويرمون من على ظهر السفينة.

أنهيت الاتّفاقية مع المقوم الأوّل. وتمّ استئجار آخر بأجر يبلغ 44 جنيهاً لتقديم الجمال إلى المدينة ومكة. عندما بدت المدينة للعين وظهرت الأبراج المسننة الموجودة على جانبي الأسوار من خلال الأشجار، صار روش يكرر باستمرار صلوات إبراهيم نفسها، ويقلد حركاته التي تعبر عن التقوى. دخلا المسجد ليلاً، ومشيا على طول الرواق المعمّد إلى قبر النبي. كانت المصابيح تتدلى من الأقواس، وتلقي نوراً غامضاً على الأعمدة المدببة والكتابات الذهبية والسجادة. كان الشخصَ الوحيدَ الذي أعجب بهذه الزينة الخارجية. لكنه لاحظ

عدم وجود الحماسة عند المتعبدين. ولهذا السبب عزا انحطاط المدينة وحالة الدمار لكثير من المنازل.

بعد ثلاثة أيام انطلق نحو مكة. وفي اليوم التاسع (22 ديسمبر/ كانون الأوّل) تقدّموا في رحلتهم وأصبح يسمح بارتداء الإحرام. وعند دخول مكة تقدّم نحو المسجد وقام بالطواف. ومن بين الطقوس المعروفة لاحظ الحجاج يضغطون صدورهم على الكعبة، بين الباب والحجر الأسود وكانت أيديهم مرفوعة نحو السماء يطلبون مغفرة خطاياهم. بعد الطواف يلي الشرب من ماء زمزم، والسعي بين الصفا والمروة والعمرة فيما بعد.

بقي روش أسبوعين في المدينة. أقام في بيت مبني في الجدار الشرقي من المسجد، وكانت نوافذه تشرف على الفناء. كانت غرفة روش على الطابق الثاني وكان يدفع ثمانية فرنكات أجرة في اليوم. كان منظر الحجاج يمشون حول الكعبة في المساء على أنوار المصابيح، يتلون صلوات بأصوات مرتفعة، يوقظ فيه الأفكار التقية، لولا صراخ وضحكات عشرات الرجال والنساء والأطفال المتجمعين تحت الأعمدة يلعبون الألعاب ويقترفون الأعمال المقيتة. كانت نساء كثيرات يطبخن في الأروقة. وكان يتمّ بيع الخبز والتمر والقهوة، وكان الحلاقون يقومون بأعمالهم بجد ونشاط. يكتب روش: «بمقارنة غنى ورونق المزارات المسيحية المحترمة، بهذه الأماكن التي تعتبر أكثر الأماكن قداسة في العالم الإسلامي، يستطيع المرء أن يأخذ فكرة عن الفوضى التي تعم كلّ فروع الإدارة الإسلامية. ليس هناك من شكّ أن إيمانهم قوي بقدر قوة إيمان المسيحيين، لكنه إيمان دون أعمال». يجب

أن نذكر أن بوركهارت قد استعمل لغة مشابهة تقريباً فيما يخص المسجد في المدينة.

وبعد انتظار ثلاث ساعات، استطاع روش الوصول إلى الكعبة. «عليك أن تدفع وأنت تصعد الدرجات يقودك الخصيّ، وأن تدفع وأنت تغادر، وأن تدفع وأنت تنزل الدرجات، عليك أن تدفع دوماً. من المؤسف أن ترى كيف كان يُعامل الحجاج الفقراء الذين لا يستطيعون أن يدفعوا لمستخدمي المسجد الكثيرين». كانت الأوعية التي يوزع فيها ماء زمزم وسيلة أخرى لابتزاز المال. ولأنها ذات شكل مدبب فكان لا يمكن أن تقف قائمة، لذا كان مطلوباً من الساقي أن يمسك بالوعاء الذي يشرب منه الحاج. كان المرشد المخصي الذي اختاره روش راضياً جداً عن أجره بحيثُ إنَّه تطوع لمرافقته إلى أماكن تقع على الجانب الآخر من الحرم المكي. لكن روش رفض، مدركاً أنه يجب أن يحافظ على شخصية الإنسان الجدي والنبيل.

كان قد قدم إلى شريف مكة في الطائف رسالة التوصية من فرينزيل، لكن لم يصله أي جواب بعد. وفي يوم 1 يناير/ كانون الثاني من عام 1842، أخذ يفكر كيف سيجري الاحتفال «بيوم رأس السنة» في كلّ أنحاء فرنسا والمستعمرات الفرنسية، كيف أن أباه وأمه بالتبني سيذرفان الدمع على ابنهما الضائع، بينما هو ـ الذي ليس لديه أي كائن واحد يستطيع أن يفتح له قلبه ـ كان يسير بين ناس متعصبين مضطلعاً بمهمة محفوفة بالأخطار، كان يرى عواقبها مسبقاً. كان يفكر متأملاً: «هذه المعاناة الأخلاقية يجب أن تكفر لي عن أخطائي».

وأخيراً جاءه الرد من الشريف. في يوم 8 يناير/ كانون الثاني انطلق روش نحو الطائف مع المقدم. بعكس جدب مكة، تأثر كثيراً بخضرة

واحة رأس الكورا في موقعها بين قمم جبلية غرانيتية. ولكونه صديق فرينزيل، كان واثقاً من الترحيب الحار الذي سيستقبله به الشريف. وعمل بنصيحة فرينزيل؛ امتدح في الشريف رغبته في أن يقوم بدور سياسي بارز وأن يلفت نظر الدبلوماسية الأوروبية. وفيما يخص معاملة الحجاج الجزائريين، وعد الشريف فوراً أن يستعمل نفوذه عند السلطات المصرية والتركية ومع ربابنة سفن البحر الأحمر.

وبعد ذلك بدأ يتحسر على تدهور حالة الحج. في الأيام الغابرة كان مئات الآلاف يتقاطرون إلى الأماكن المقدسة. كانت ست قوافل تصل من الجهات الأربع للعالم، وبعد ذلك يأتي ناس كثيرون أيضاً. كان آخر العباسيين قد خيّم عند عرفات ومعه 130000 جمل. إنَّ الحج يعتبر عملاً يأمر به الله نفسه. لم يكن الحجاج يفكرون إلا بالصلاة وتلاوة القرآن. أما الآن فهناك على الأكثر 40000 أو 50000 حاج فقط، وثلاث قوافل من سورية ومصر واليمن. كان الحجاج يكرسون أنفسهم للتجارة. حلت المضاربة محل التقوى. وأي سلوك ذلك الذي يحدث في الفترة المقدسة! ليحمِ الله عينيك من رؤية منظر أعمالهم المشينة. اعترف بأسف أنَّ الأشراف ساهموا في ضعف الإيمان. فقد أثارت رفاهيتهم وجشعهم عداء الوهابيين، ومن أجل مقاومتهم وجدوا من الضروري استدعاء الأتراك الذين أصبحوا مستبدين بدلاً من حلفاء. كان الخضوع للمحميات المسيحية قد أضعف قواعد الإمبراطورية العثمانية. سُمح للمرتدين بالوصول إلى أعلى المراتب. وكان لا بُدَّ من انحطاط شعب يفقد إيمانه.

وحتّى إيمان الشريف نفسه لم يكن قوياً. أجرى روش المقارنة

العادية مع عبد القادر. كان الأوّل مسلماً منغمساً في الملذات الحسية، وكان الثاني مقاتلاً متقشفاً. كان علماء مكة والمدينة ودمشق وبغداد مجتمعين في الطائف، وأثيرت مسألة الفتوى. عارض أحد أعضاء المجلس بغضب، لكن رأيه أُبطل. وضعوا التواقيع والأختام على الوثيقة وسلموها إلى المقدم.

عندما عاد روش إلى مكة وجد آلافاً من الحجاج قد غزوها. وكانوا جميعاً يرتدون الإحرامات على حدّ سواء. لكنه ذهل من تعدد اللغات والأنواع والملامح المختلفة. جلب له التئام شمله مع إبراهيم سروراً كبيراً، لأن عرى الصداقة الوثيقة ـ كما هي العادة عند روش ـ كانت قد توطدت أثناء الرحلة. رفع اللقاء معنوياته المنهارة؛ وعندما ودع الشريف دخلت نفسه هواجس رهيبة بأن شيئاً ما سيحدث.

والآن بدأت القافلتان السورية والمصرية، يتبعهما الحجاج الباقون بالتتالي، وهم يتلون آيات من القرآن، يتحركون نحو عرفات، تضيق صفوفهم وتتسع طبقاً لعرض الوديان. كانت سوق ضخمة تشغل وسط السهل. وكانت ألوف الخيام قد نصبت وكانت النيران الملتهبة أمامها تجعل الحجاج الكثيرين المتأخرين يظهرون كالأشباح وهم يروحون جيئة وذهاباً بحثاً عن خيامهم. كانت أصوات هؤلاء وصلوات المؤمنين وأغنيات الفرح التي يرافقها التصفيق بالأيدي وقرع الطبول والصرخات العالية الصادرة من أصحاب أكشاك بيع القهوة، ورغاء 20000 جمل وصهيل الخيل، ونهيق الحمير تؤلف تناغماً جهنمياً. وشاءت الظروف أن يبقى روش والمقدم ثلاث ساعات قبل أن يعثروا على إبراهيم. كان هناك ثمة امتحان مرير آخر: الليل الشديد البرودة.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي استيقظ روش ولاحظ أنَّ

الخيام كانت في صف واحد كالشارع، حيث تجمع حشدٌ كبير، بينما كانت آلاف الجمال ترعى من الجنبات على التلال المجاورة. حدثت حوادث تنذر بالشؤم في هذا اليوم الذي لا ينسى؛ (22 يناير/ كانون الثاني). فقد التقى بجزائريين اثنين، كان ـ بصفته مترجماً رسمياً ـ سبباً للحكم عليهما بالسجن لمدّة سنة. شعر كمن يدوس على أفعى سامة. وعلاوة على ذلك، لا بُدَّ من الذكر أنه لم يقم بنكران أصوله المسيحية واعتناق الإسلام رسمياً. كان مطلوباً الآن أن يقوم الحجاج بالوضوء الكبير قبل ساعة الصلاة. ولما لم يكن لديه أي خيمة، كان عليه أن يقوم بهذه العادة على مرأى من الناس. وبالرغم من كلّ حيطة وحذر تخيل أنه قد اكتشف أمره.

يبدو أنَّ ما تلا ذلك كان يبرر خوفه. مضى النهار متثاقلاً وحان موعد الخطبة. كان الشريف ممتطياً جملاً وراء الخطيب. كان الزنوج يحيطون به يحملون رايات خضراء مطعّمة بالذهب والفضة جعلتها الريح ترفرف فوق رأسه ورأس الخطيب. لكن كان هناك عنصر ديني قوي مفقوداً. كان لعب الميسر والتدخين والمخاصمات سائدة دون كابح في المقاهي، وكان أصحابها يدورون بين الحجاج ومعهم القهوة والكعك للبيع.

كانت الخطبة على وشك الانتهاء والظلمة تخيم، عندما وصلت تأملات روش إلى نهاية مفاجئة. فجأة ارتفعت الصرخة «ها هو المسيحي ـ اقبضوا على المسيحي. الكافر ابن الكافر». لم يكن هناك من شكّ حول الشخص الذي كانت توجه إليه هذه الإشارات. في وسط هذه الصيحات الفظيعة التي ارتفعت، شقّ ست زنوج أقوياء طريقهم بالقوة عبر الجموع وألقوا القبض على الكافر. رفعوه كالطفل بين أذرعهم ذات

العضلات المفتولة، وكمموا فمه وربطوه فوق جمل وأسرعوا به خارج المكان. ظن أنه قد ضاع؛ لكنه أُنقذ. كان من اعتقلوه مبعوثين من الشريف، عيّنهم كي يحموا خطواته وقد اختطفوه متظاهرين كذباً بإلقاء القبض عليه، وأبعدوه عن غضب المتعصبين.

بعد رحلة ساعة على جمال مسرعة، كاد فيها روش يختنق من الكمامة على فمه، ومن التوتر من وضعه، وقطعة القماش التي كانت تغلف وجهه وتجعل التنفس صعباً، نادى أحدهم بالتوقف. صلّى طالباً الموت. لكننا نستطيع أن نتخيل شعوره المعاكس عندما عرف أنه بين أصدقاء. رفعوه عن ظهر الجمل وحرروه من قيوده وأدخلوه إلى خيمة. وبينما كان يتناول الطعام الذي قدموه له، أخبروه القصة التي أدّت إلى اعتقاله. كان الجزائريان قد أخبرا القاضي عن وجوده في مكة. حمل القاضي القصة إلى الشريف الذي تصرف بقدرٍ كافٍ من الحكمة متظاهراً بالسخط، وأرسل زمرة من العبيد كي يعيدوا روش إلى مكة. وبسبب الجموع الغفيرة عند عرفات، بحثوا ساعات عنه لكن دون جدوى، لكن حوالي المساء عند سماعهم صرخة «المسيحي» وصراخ الجماهير، تدخلوا في اللحظة الأخيرة لإنقاذ حياته.

وبالرغم من ذراع الشريف الحامية له، فقد كان لزاماً عليه أن يغادر البلاد فوراً. لذلك اقتيدت الجمال بأقصى سرعة، وخلال الفترة القصيرة على نحو لا يصدق ـ سبع ساعات ـ من مغادرة عرفات وصلوا جدّة. وفي الليلة نفسها ركب روش السفينة إلى قُصير.

وصلت مغامراته الخاصة بمكة إلى نهاية حسنة، لكن آثارها اللاحقة كانت مملوءة جداً بالمتعة الإنسانية بحيث لا يمكن إهمالها

فجأة. وصل إلى قُصير في 27 يناير/ كانون الثاني وانطلق نحو كنّه مع تاجر مراكشي. واستيقظ في صباح أحد الأيام ليجد جيوبه خاوية ومرافقه قد اختفى. لكن فريقاً من الأعراب التقى والتحق بهم عاملوه معاملة طيبة وقادوه بقية الطريق. وفي كنه باع قسماً من ثيابه وكسب بعض المال من كتابة بعض الرسائل للفلاحين، وقراءة البخت، وكان ذلك كافياً لدفع أجرة رحلته في النيل إلى الإسكندرية.

بعد أن انتهت مغامراته المثيرة، وقع مرة أخرى ضحية للشكوك والكآبة. ومن جديد امتدّت الحياة أمامه كئيبة مملة. وكما في حكاية العجوز في قصة «حكاية بائع الغفران» الذي ضرب الأرض بعصاه وطلب النزول فيها «لن يأخذ الموت حياته». أصابته فكرة العودة إلى الجزائر بالاشمئزاز، لكن إلى أين يذهب؟ كان وجوده سلسلة من المغامرات، لا وحدة متكاملة. بدأ يفكر في اللجوء إلى أحد الأديرة. لكن هذا يقتضي إيماناً، لا شخصاً مؤمناً بالله من دون الوحي والتنزيل (Deist) مثله. ثمّ خطرت له فكرة عمته. يستطيع العودة إليها على الأقل. لم تكن عنده الرغبة في لفت الانتباه إلى مغامرته الأخيرة، لذلك مرّ في القاهرة دون أن يزور فرينزيل. كتب إليه من الإسكندرية وكذلك إلى بوجو مستقيلاً من وظيفته. كانت مغامرته الأكثر غرابة في الإسكندرية لقاء غير متوقع مع إيزيدور. كان هذا الخادم المخلص يعتقد أن سيده سيعود فجأة، ورفض الذهاب إلى الجزائر وحيداً. صعد روش وإيزيدور متن إحدى السفن الإيطالية الذاهبة إلى سيفيتا فيتشيا (Civita Vecchia). من هناك انطلقا مع راهب فرانسيسكاني شاب يدرس القانون، سيراً على الأقدام إلى روما. بعد بالو، انطلقوا في مسيرة مرهقة على طريق جبلي. فجأة شاهدوا صليباً يشع في أعلى قبة هائلة وقد أعطتها أشعة

الشمس المائلة مزيداً من الجمال. كانت تلك قبة كنيسة القديس بطرس. ومنذ ذلك الحين كانت عزيمة هؤلاء تقوى وتضعف تبعاً لظهور الصليب أمامهم أو اختفائه بسبب المنعطفات في الطريق.

حلّ عيد الفصح (مارس/آذار 1842). كانت روما مثلها مثل مكة، ممتلئة بالحجاج، لكن من نوع مختلف! مختلفة أيضاً كانت التأثيرات على روش داخل كنيسة القديس بطرس والكعبة:

«بقيت ضائعاً في حالة من التأمل العميق، عندما شعرت أن حالة من الهذيان استولت عليّ. في لمحة واحدة تخيلتُ الملحمة المسيحية الفخمة. وتخيلت المسيح مسمّراً على الصليب، ميتاً ليفتدي الإنسان. تبعت التلاميذ الذين ينشرون العقيدة المقدسة. رأيت الشهداء يعترفون بإيمانهم بالرغم من التعذيب. وفي الوقت نفسه برز أمام مخيلتي طيف حياتي الماضية. رأيت سواد نكراني للمخلّص. أصابني الرعب الشديد من نفسي. وخنقتني شهقات البكاء. فكرت أنّني يجب أن أموت. وأخيراً استطعت أن أبكي، شعرت بالراحة بسبب سيل الدموع التي أرقتها وأنا منبطح على ضريح التلميذ القديس».

بدا أن ولادة الإيمان قد تُغيّر مسار حياته. فكر في دخول رهبانية اليسوعيين (Jesuits)، وأجرى مقابلات مع الكاردينال ميتسوفانتي والبابا غريغوري السادس عشر. لكن قدره بقي جزائرياً بعناد. رفض بوجو أن يقبل استقالته ومارس الضغط عليه عن طريق السفير الفرنسي في روما. جازف في أن يُتهم بارتداد عن الدين. أضيفت توسلات أبيه إلى المناشدات الرسمية. وأخيراً قرر البابا الموافقة على عودته.

في يوم 3 يونيو/حزيران 1842 نزل في الجزائر واستقبله بوجو

بكلّ علامات الطيبة. فاجأه أن وجد الثياب والأسلحة والكتب والمذكرات التي كان قد خلفها وراءه في مكة سليمة. فقد أحضرها إبراهيم معه إلى القاهرة. ونسيبه الشيخ التونسي أحضرها إلى الجزائر. عندما رأى إبراهيم أن روش قد هبت عليه العاصفة، حزن كثيراً على ما ظنه قدره المشؤوم. لكنه أبقى علاقتهما سرية بالكامل. كم كان سروره عظيماً أيضاً لدى سماعه أخبار سلامة روش.

أدّى نشر الفتوى إلى جعل كثير من القبائل تتوقف عن المقاومة. لكن عبد القادر كان لا يزال مستمراً. لكنه أخيراً ـ بعد أنْ طُرد من الجزائر ـ لجأ إلى مراكش واجبرها على الدخول في حرب مع فرنسا. لكن الهزيمة في إيسلي (Isly) جعلت الإمبراطور يسعى للسلم. وقد تمت الموافقة شريطة أن يتخلى عن عبد القادر. وبعد اتّخاذه ملجأ في الجبال، والاستمرار في حرب العصابات، أُسر أخيراً وأخذ إلى فرنسا (1848). وأودع السجن في باو (Pau) وأمبيوز (Ambiose). أطلق سراحه في عام 1852، لكنه منع من العودة إلى الجزائر، أمضى البقية من حياته في بورصة (Broussa) (عاصمة العثمانيين قبل الاستيلاء على إسطنبول) والقسطنطينية (إسطنبول) ودمشق. ودامت مراسلاته مع روش حتّى 1883.

بعد الحملتين الجزائرية والمراكشية، استلم روش منصبين في طرابلس وتونس، وأصبح سفيراً في اليابان، وأخيراً عاد إلى فرنسا وعاش حياة منعزلة. بقي على قيد الحياة مدّة خمسين عاماً بعد نجاته من حادثة عرفات المرعبة. في عام 1895 سمع من جيرفيه ـ كورتيلمون Gervais - Courtellemont قصة رحلة هذا الأخير إلى مكة.

جورج أوغسطس فالين

George Augustus Wallin

(ولي الدين)

1261هـ ـ 1845م

منع تزامن الظروف المشؤوم رحالة يحبّ الشرق حباً جماً وخبيراً في التخفّي من تسجيل انطباعاته عن المدن المقدسة بدرجة من الدقة تعادل ما استخدم في باقي أسفاره العربية.

ولد فالين في عام 1811 في جزيرة آلاند (Aland Island) في بحر البلطيق في مدخل خليج بوثينا. وبعد ولادته بوقت قصير هاجر والداه إلى أبو في فنلندا، حيث تلقى علومه المدرسية. كان ولداً مميزاً باستقلاليته وبساطته، وبعدم اكتراثه بالتقاليد وبمظهره الخارجي الهادئ الذي يخفي قلباً دافئاً، وبحبه للمغامرة. كان سباحاً ماهراً وبحاراً شجاعاً. انخرط في حياة رفاقه بحماسة وكان قائداً في كثير من حفلات لهو الطلبة. ومن أجل واحدة من هذه الحفلات تعرض لعقوبة الطرد المؤقت من الجامعة.

لم يهمل دراسته وبحلول سنة 1836، كان قد أتقن تسع لغات.

جذبته اللغات الكلاسيكية والشرقية وبشكل خاص الفارسيّة والعربية، أكثر من غيرها. لكنه حاز على معرفة بالآداب الألمانيّة والسويدية والفرنسية والإنكليزية. وطور أيضاً حبه الفطري للطبيعة.

عند وفاة والده في 1837، ذهب إلى سانت بطرسبرغ ودرس في الجامعة والمعهد الشرقي (Oriental Institute) مدّة سنتين، وحاز على معرفة لا مثيل لها في اللغات التركية والفارسيّة والعربية. وبعد ذلك نشأت في ذهنه فكرة رحلة إلى البلاد العربية. وحصل على منحة الجامعة للطلاب الشباب الذين يرغبون في السفر. كان ينوي ـ مثل برتون ـ أن يظهر في الشرق كطبيب. لذلك عاد إلى فنلندا وأتمّ دورة دراسية في الطبّ. ومثل برتون، كانت «البلاد التي تستهويه» هي الجزيرة العربية.

بدأ رحلاته في يوليو/ تموز 1843، لكنه لم يصل القاهرة إلا في يناير/ كانون الثاني 1844 بسبب تأخره في باريس: لأنه كان ضحية لهجوم وسرقة تعرض لهما. وفي القاهرة تنكر في زيّ مسلم، وفي إبريل/ نيسان 1845 انطلق في رحلة صحراوية عبر شمال الجزيرة العربية. كان يرافقه في البداية اثنان من البدو، لكن لاحقاً رافقه دليل واحد. اتبع طريق الحج المصرية وفي النهاية وصل حائل. هناك أُحبطت نيته في عبور صحراء نجد إلى الخليج العربي بسبب قلة الأموال، وبسبب الاقتتال بين القبائل، كما سنرى في حالة برتون. لذلك اختصر رحلته ورافق قافلة الحج من بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين إلى المدينة ومكة.

سجل ملاحظات وافرة ودقيقة حتّى ذلك الوقت عن كلّ ما رأى. وقد أُجبر على تعليق هذا العمل أثناء الحج. كما وصفنا في كثير من

الأحيان، كان الرجل ذو المعرفة الواسعة مثل فالين، سيضيف بعض التفاصيل ذات القيمة بلا شكّ. يخبرنا أن وضعه المحفوف بالخطر مع الحجاج والمسيرة السريعة والمرهقة والنزعة الميالة إلى الكتمان التي شاهدها للمرة الأولى بين العرب، والتي يمكن أن يعزوها إلى هموم وأحزان الحجاج المنفردين وإلى وجود الفرس (الإيرانيين) المقيت «أصحاب المشاكل المتعبة» جداً في رحلات الصحراء، كلّ هذه أمور منعته من توجيه الأسئلة أو تسجيل الملاحظات. تمّت الرحلة بين حائل والمدينة في 85 ساعة: وكانت مسيرة جمال سريعة على نحوٍ خاص. ومن مكة انطلق فالين إلى جدّة. كان على ما يظهر مسلماً تقليدياً يمقت الفرس.

عاد إلى القاهرة وعاش في الحيّ الإسلامي. وفي السنة التالية قام برحلة عبر شبه جزيرة سيناء إلى دمشق وبيروت. ومن جديد في عام 1847 انطلق ينوي عبور صحراء نجد، ومن جديد أيضاً أصيب مشروعه بالفشل. لقد انكشفت حقيقته كمسيحي متنكر وكان من الممكن أن يعرض هذا حياته للخطر. سافر في بلاد فارس وفي النهاية وصل البصرة على الخليج العربي. وهناك نجا من الموت جوعاً بعد أنْ أبرز حوالة لم تردّ القيمة كاملة، إذ أنقذه ربان بحري إنكليزي نقله إلى بغداد. عاد فالين إلى أوروبا وزار لندن، حيث عانى من الكآبة: لا شكّ أنَّ ذلك بسبب صحته المعتلة من جهة، ومن جهة عدم تآلفه مع العادات الأوروبية التي سببها عدم استعمالها لمدّة طويلة، وكذلك من تعطشه الشديد إلى الشرق. وقد زادت قلة موارده المالية من همومه. لكنه عمل بجد، يكتب باللغة الإنكليزية تقارير تصف رحلاته، وكان ذلك على شكل أوراق قرأها أمام الجمعية الجغرافية الملكية (Royal Geographical Society)،

أكسبته الاعتراف الفوري به كرحالة جريء وناجح. وقد توجهت أنظار العالم المثقف إليه عن طريق السير هنري رولينسن (Henry Rawlinson). فقد جاءه التكريم من الجمعيات العلمية في فرنسا وألمانيا، ولدى عودته إلى فنلندا في 1850، تمّ انتخابه لمنصب أستاذ في جامعة هلسينغفور (Helsingfors).

بقي فالين مدّة يقوم بواجباته الجديدة بصورة مرضية، لكنّها لم تكن كافية له. كانت دورة الحياة الأكاديمية المنظمة بديلاً ضعيفاً لآفاق الصحراء الواسعة. وبالرغم من كونه شمالياً فقد كان يتوق لهجر رطوبة وضباب بلده الأم ليذهب إلى روعة وبهاء مناخ الشرق المشمس وطرائق حياة سكانه البسيطة. من هذه الرغبة تنبع الشفقة التي تحيط بوفاته. في عام 1814 تفاوض مع الجمعية الجغرافية في سانت بطرسبرغ بنجاح، كي يقود رحلة إلى الجزيرة العربية ويستكشف تلك البلاد بالكامل. كان قد حصل على إذن كي يسحب رواتبه كأستاذ خلال ست سنوات. لكن المشروع فشل بسبب خطأ جسيم في الوثيقة. لقد تمت المنحة لكن لا لست سنوات، بل لسنة واحدة لا ثاني لها. أقضّت خيبة الأمل المريرة مضجعه وأحدثت له علة في قلبه، مات على أثرها في عام 1852.

السير ريتشارد برتون

Sir Richard Burton

(الشيخ الحاج عبد الله)

1269هـ ـ 1853م

أعظم اسم ارتبط اسمه بحج مكة هو اسم السير ريتشارد برتون. وصلتنا قصة مغامراته منه بالذات في ثلاثة مجلدات ذات أحجام غير صغيرة، ومن كتب سير الحياة المتعددة التي كان هو موضوعها. لكن هذه الحكاية تستحق السرد للمرة الثانية. وعندما توضع جنباً إلى جنب مع سير حياة رجال من أعمار وأعراق وظروف مختلفة، فقد يكون لها بعض البريق.

عندما أعيد نشر كتابه في عام 1893، أعلنت صحيفة (Athenaeum) عن سحر القصة الجديدة غير المحدود. يلمح كاتب حديث في الصحيفة نفسها بشكل عرضي إلى «حج برتون المتبجح» على أنه واحد من أقل الكتب بريقاً من هذا النوع ومن أسوئها. وقد تردد بعض أصدقاء برتون الحميمين في مدح كتابه. ونسب أحد النقاد الثقات المكان الأوّل في هذه الكتب «إلى الحج» مع التحفظ بأنه ليس من السهل قراءته. وليست الثغرة بين هذين الحكمين المتضاربين كبيرة

بحيث لا يمكن سدها. والقارئ العادي يخرج من التمعن في صفحات برتون بشعور من الخيبة. فالأسلوب لا يمكن وصفه «بالساحر». لكن حالما نسمح لاهتمام القارئ أن يتقد في مكان آخر، فإنه سيلجأ إلى برتون للحصول على المنفعة دوماً. وكما في كتاب «الثورة الفرنسية» لكارليل، تكون المعرفة المسبقة لا غنى عنها من أجل المديح والتقدير.

كان عمر برتون اثنين وثلاثين عندما بدأ رحلته الأولى والتي كانت في بعض النواحي الأكثر تشويقاً من جميع رحلاته. وكان قد نوى القيام برحلات أوسع في الجزيرة العربية. وبعد أنْ قام أوّلاً بزيارة مكة وضمن لقب «حاج»، كان ينوي أن يعبر تلك الصحراء الجنوبية المرعبة في الجزيرة العربية، والتي لم يُعرف أن بدوياً قد عبرها. كان رفضُ شركة الهند الشرقية للإجازة المطلوبة لمدّة ثلاث سنوات العائق الأوّل لمشروعه. وأخيراً تخلى عن المشروع عندما وصلته أخبار من مكة أن اضطرابات قبلية جعلت الطريق متعذرة. ومع ذلك لا أستطيع أن أوافق مع السيد هوغارث (Hogarth) أنه لولا مشروعه، لما كان رجل بمثل طموح برتون العلمي يفكر أنَّ من الجدير زيارة المدن المقدسة حيث لم يترك له باديا أو بوركهارت إلا القليل مما يصفه. كانت لبرتون اهتمامات غير الاهتمام العلمي بالأخلاق والديانة الإسلامية. لقد كان مسلماً جيداً في أعماقه في الواقع بحيث يلبي أمر الرسول بالقيام بزيارة واحدة إلى مركز ديانته.

وقائع حياة برتون قبل 1853 معروفه جيداً بحيث لا تحتاج إلا إلى إعادة مختصرة. ولد في عام 1821، وتعلم بطريقة غير منتظمة ومتعددة. كان متجهاً نحو الكنيسة، لكنّها كانت بغيضة له كما كانت بالنسبة لزميله

في الحج الذي ينتقده. وعلى عكس فيناتي لم يكن اختياره للمهنة العسكرية مقرراً بالإكراه. ولكي يحصل على هذه الغاية، أفلح في أن يُطرد من أكسفورد. كانت الحرب الأفغانية قائمة وقتها، وتم الحصول على قبول في الكلية العسكرية في الكتيبة (18) من مشاة بومباي الوطنية. وقد تأسف كثيراً لأنه لم يشهد الخدمة الفعلية. كانت محطته الأولى بارودا، حيث بدأ تعرفه الأوّل على الحياة الشرقية. بعد ذلك انتقلت كتيبته إلى السند، مركز الديانة الإسلامية في الهند. كانت تلك الفترة صانعة لعهد جديد من التغير له، وأثبتت أن لها التأثير الثقافي الأكثر فعالية. لقد اكتسب معرفة دقيقة بالأخلاق الإسلامية، ودرس أوّلاً مشروع الحج. وبعد سبع سنوات انتهت إقامته في الهند بسبب اعتلال صحته بعد خلافات مع السلطات وخيبة أمله من الخدمة في حرب السيخ. عاد إلى إنكلترا في 1849. كان قد نشر عدة كتب ومقالات في صحف الجمعيات الثقافية وأتقن عدداً من اللغات. والآن في بولونيا تدرب على المبارزة بمواظبة كبيرة ووصف نفسه «سيد الجيش». لكن الحضارة سريعاً ما أضجرته وأعادت إلى ذهنه فكرة الحج من جديد. فقد منح إجازة بالغياب بعدد السنوات اللازمة له «بحيث يستطيع أن يتابع دراساته العربية في بلاد يمكن تعلم اللغة فيها على أفضل ما يكون». كان برتون رجلاً طيب القلب وودوداً. كان يكره كلمة «وداعاً». ولم تعرف عائلته بنواياه إلا بعد مغادرته ساوثامبتون. ففي رسالة إلى والدته كتب ملخصاً برنامجه، وطلب أن يقسّم كلّ ما كان يملك من أشياء ثمينة بينها وبين أخته في حال وفاته.

وقبل الانطلاق شعر بالحاجة إلى «صديق صامت». لذلك وجه أسئلة إلى فالين. لكن فالين كان قد توفي. والصداقة الصامتة التي حرم

منها منحها بوفرة إلى الآخرين. فهو يسجل جميع التفاصيل التي يمكن أن تساعد حاج المستقبل. يخبرنا أنه عندما غادر القاهرة أخذ معه 80 جنيهاً. من هذه كان هناك 50 جنيهاً من الدولارات (Maria Theresa Dollars) وهي العملة المفضلة في الجزيرة العربية. والباقي من الجنيهات الإنكليزية والتركية. خبأ الذهب والدولارات في حزام جلدي، واحتفظ بالعملات الصغيرة للمصاريف الفورية في محفظة قطنية في جيبه. وكانت أدواته كما يلي: مسواك تنظيف الأسنان وقطعة صابون ومشطاً خشبياً، هذه كانت أدوات تنظيفه. أما حقيبة ملابسه فقد كانت تتألف من مجموعة أو اثنتين من الثياب. وكانت الاحتياجات الأخرى قربة ماء من جلد الماعز، وسجادة فارسيّة ووسادة، بطانية وشرشفاً. وكانت هناك مظلة ضخمة من القطن من صنع شرقي بلون أصفر لامع تشبه زهرة المخملية، وعلبة خياطة، وخنجر ومحبرة نحاسية، وحاملة أقلام مغروزة في حزامه وسبحة كبيرة. كانت حقيبة ملابسه محزومة في حقائب السرج، والفراش في رزمة، وكان هناك صندوق أخضر يقوم بمهمة الصندوق الطبّي.

يخبرنا أيضاً بالتفاصيل الكاملة كيف كان يسجل ملاحظاته في الرحلة. كان كثير من الحجاج يحملون معهم قرآن جيب في علبة حمراء من جلد ماعز مراكشي، يتدلى من سلك حريري فوق الكتف الأيسر. وذلك ما فعله برتون ظاهرياً، لكن العلبة بدلاً من احتوائها على الكتاب المقدس، كانت مقسمة إلى مقصورات. في إحداها سكين جيب وأقلام رصاص، وقطع من الورق صغيرة جداً بحيث يمكن إخفاؤها في قبضة اليد. من هذه الأوراق صنع نسخة مقبولة الحجم من مذكراته، وهي مجلد صغير طويل يتسع له جيب الصدر. كان يكتب ملخصاته بقلم

الرصاص وبعدها يثبت خطوطاً هامة بالحبر. وعندما كان ينتهي كان يقطع الأوراق إلى مربعات ويرقمها ويضعها في علب التنك التي تحتوي أدويته. كما صوّر مخططاً لداخل الكعبة على إحرامه الأبيض.

قبل مغادرته إنكلترا هيأ نفسه كي يتخيل ويسجل كلّ حادث طارئ قد ينشأ. وقد تعلم ـ مع أشياء أخرى ـ أن يصنع نعال فرس وينعل حصانه. غادر لندن يوم 3 إبريل/ نيسان متنكراً بزي فارسي، واستقبله في الإسكندرية جون توربورن الذي كان مضيف بوركهارت. ولتجنب الشكّ، أُعطي سكناً في مبنى خارجي، وخلال الشهر الذي قضاه في الإسكندرية. كان شيخٌ يعلمه الصلوات والسجود وقراءة القرآن. . . الخ.

وسرعان ما تخلى عن شخصية الفارسي. أعلموه أنه كان يُنظر إلى الفرس كهراطقة، وأنه في الجزيرة سوف يُضرب ويتقاضون منه ثلاثة أضعاف. وبعد ذلك ارتدى زيّ درويش. وكان ذلك قناعاً آمناً يثير عطف الناس من جميع المراتب والأعمار. ثمَّ تخلى عن هذا الزيّ بدوره. فالدرويش الذي يجمع المعلومات قد يثير الشكوك. تنكر أخيراً بزي أفغاني. ولكي يفسر بعض الأمور غير الدقيقة في تصرفه، قال إنه مولود في الهند، حيث أقام طوال حياته، ومن والدين أفغانيين. إضافة إلى أنه «كان يُسمح للرجل من كابل أن يقول ويفعل أشياء غريبة».

كانت المهمة التالية أن يحصل على جواز سفر. ولم تكن مهمة سهلة. أمضى ساعات مضنية مع الراغبين في أن يصبحوا حجاجاً والمنتظرين عند أبواب المسؤولين المتشددين. وأخيراً فكر أنَّ الأمر يجب أن يحصل بطريقة نظامية، فغادر إلى القاهرة. وهناك أقام في خان مؤلّف من فندق ومكان إقامة ومستودع، حيث دفع أربعة بنسات في

اليوم أجراً لغرفتين. كان ذلك شهر رمضان، أحدث انطباعاً معيناً عند من حوله أنه طبيب، ورافق جميع أنواع وظروف الناس من بينهم حاج ولي الدين الكثير الأسفار والوقور الذي رفض أفكار قبيلته، تجول في شوارع القاهرة ليلاً، ووصف مختلف المساجد وزار قبر بوركهارت. وتعرف على شاب أنيق من مكة اسمه محمّد وعمره ثمانية عشر عاماً ومنه اشترى الإحرام والكفن اللذين لا يقوم مسلم برحلة من هذا النوع من دونهما. كان الولد محمّد في طريقه إلى وطنه وعرض على برتون مرافقته، لكن كان قد زار الهند ورأى كثيراً من الإنكليز، وأبدى مظاهر الفهم الكبير، لذلك رفضت اقتراحاته. اشترى برتون أيضاً مؤناً وحزمها في أقفاص (سلال من عيدان النخيل) وصناديق خشبية بقياس 3 أقدام مربّعة. في تلك الأثناء نشأت مشاكل أخرى بشأن جواز السفر. كان جواز السفر الذي يصعب الحصول عليه من الإسكندرية يحتاج إلى تأشيرة مضاعفة؛ في مركز الشرطة والقنصلية. تجاهل الأمر، لكن بعد أنْ طرق عدة أبواب دون جدوى، صحح له الأمر مدير الكلية الأفغانية، مقابل أجر بسيط. وهكذا مرّ شهر البركات.

حدثت حادثة مضحكة عجلت من مغادرة برتون للقاهرة. كان ينزل في الخان ضابط لمجموعة جنود ألبان غير نظاميين. كان يقال إن طيش هؤلاء الرجال يسبب الخوف حتّى للبدو في الحجاز. فعندما يتخاصم اثنان منهما، كان كلّ واحد منهما يستل مسدسه ويضعه على صدر خصمه: وإذا أطلق أحدهما النار قبل الآخر فقد كان المتفرجون يقتلونه. لم يجد هذا الشخص في برتون إلا طبيباً مسالماً. كتب برتون: «أمال قبعته على جانب رأسه رمزاً للعدائية الكبيرة، وأنا فتلت شاربي لأظهر له عواطف القُربى». وبعد ذلك حاول الألباني اتّخاذ وضعية

المصارع لكنه بذلك عرض نفسه لضربة على قفاه، ولم ينقذه من كسر رأسه سوى تدخل حشية فراش في الوقت المناسب. وبعد أنْ فشل في إخافه برتون كما كان سيفشل أي قاطن على هذا الكوكب، رأى أنه يستحق التعرف عليه. فتم تنظيم مجلس شراب. وهذا الألباني الذي لم يره برتون غير ثمل من قبل، تفوق عليه. أصبح بدوره جياش العاطفة على وشكّ البكاء وشرساً. حاول أن يغري الحاج ولي الدين ـ الذي لا ذنب له ـ بشرب الخمرة. ولما كان ممنوعاً على الراقصات دخول الخان، اندفع إلى الخارج منذراً أنه سيجعل الباشا نفسه يأتي إلى الرقص لتسليته. ويتابع برتون قائلاً: «تبعته إلى الفناء الخارجي أسحبه وأرجوه كما ترجو زوجة يائسة زوجها الثمل أن يعود إلى البيت». وأخيراً تمّ التغلب على الألباني وحملوه إلى داخل غرفته. لكن في صباح اليوم التالي استفاق برتون ليجد أنه لم يعدّ شخصاً خطيراً. ولم يتمّ التحدّث لأسبوع إلا عن نفاق الطبيب الهندي الوقور.

لم يستطع أن ينكر شعوره ببعض الانقباض عندما بدأ رحلته وحيداً في الصحراء إلى السويس. كان الشيخ نور ـ خادمه الهندي ـ قد سبقه بالأمتعة. وفي منتصف الطريق بين القاهرة والسويس انضم إليه الولد محمّد: وفي هذه المرة لن يرفض، وفي الواقع نادراً ما كان يترك برتون في جميع مغامراته القادمة. وفي السويس انضم الاثنان إلى مجموعة أكبر من الأصدقاء. كان من بينهم أوّلاً الشيخ حامد، وهو مضيف برتون في المدينة مستقبلاً. كان هذا مثالاً نموذجياً لأعرابي المدينة. كان رداؤه الوحيد قميصاً بلون أصفر شاحب، وسخاً جداً مدسوساً في حزامه الجلدي. لم يكن يصلي لعدم رغبته في إخراج ثياب نظيفة من صندوقه، ولم يكن يدخن إلا من تبغ الآخرين.

سبّبَ اكتشاف وجود آلة السدس (لقياس ارتفاع النجوم) بين أمتعة برتون ارتباكاً وهياجاً في هذه المجموعة الغريبة. في اجتماع مهيب أعلن الولد محمّد أنه كافر، لكن هذا الموقف كان متعذر الإثبات، وأعيد إلى الحظوة من جديد. لكنه بأسف شديد، اضطر إلى التخلي عن آلته البغيضة.

بقيت تجربة أخيرة قبل صعود السفينة: أُعلن أن جواز سفره غير نظامي. لكن في هذه المرة كان القنصل البريطاني هو الذي جاء للإنقاذ. فأعطاه على مسؤوليته الخاصة جواز سفر جديداً إلى الجزيرة العربية مؤكّداً أنه كان مواطناً بريطانياً.

وفي يوم 6 يوليو/ تموز صعد ظهر الزورق شخص يدعى (غولدن واير) (Golden Wire). كان ذلك قارباً مكشوفاً يزن 50 طناً، وليس فيه أي أدوات لتخفيض الأشرعة أو بوصلة أو سجل للسفينة ولا مؤشر للسبر، ولا خريطة. كان هناك سبعة وتسعون حاجاً محشورين على متنه في الوقت الذي لم يكن يتسع إلا لستين شخصاً. وعلى مؤخرة القارب، حيث استطاع برتون أن يضمن مكان إقامة، كان هناك ثمانية عشر شخصاً في مكان طوله عشر أقدام وعرضه ثمان. عرض صاحب السفينة الذي أرسلوا في طلبه، أن يعيد المال لمن يودون النزول من السفينة. لم يستجب أحد، فجدف مبتعداً بأوامر صدرت بالانطلاق اتّكالاً على الله الذي يسهل كلّ الأمور.

كان كثير من المراكشيين بين الحجاج من دون أي مصادر تمويل تخصهم، ويعتمدون على الحسنات بالكامل لإكمال الرحلة. نظم هؤلاء الرجال فئة ثارت ضدّ من كانوا في مؤخرة السفينة. لكن ركابها حصلوا على هراوات خشبية بطول ست أقدام وبسماكة معصم الإنسان،

استخدموها بفعالية ضدّ عصي النخيل وخناجر مهاجميهم. لكن برتون ـ الذي كان في المقدمة عندما كانت تكال الضربات ـ قلب جرة ماء تزن 100 رطل إنكليزي على المقاتلين ووضع حداً للمشاجرة.

كانت الرحلة شاقة على نحو لا يوصف. المسافة من السويس إلى ينبع 600 ميل بخط مباشر: «لكن المسار غير المباشر للسفينة جعل المسافة ضعف تلك بالضبط. استغرقت الرحلة اثني عشر يوماً لأن السفن لا تبحر ليلاً طبقاً للعادات العربية. كانت الحرارة رهيبة. وكانت الرياح تأتي من الساحل الجبلي للجزيرة العربية مثل هبات الأتون». تجعلك أشعة الصباح تشعر بالمرض، ووهجها المستمر المنعكس عن المياه المتلألئة يعمي عينيك، ويصيب جلدك بالبثور ويجفف فمك، فتصبح تحت سيطرة هاجس واحد، لا تفعل شيئاً غير أن تعد الساعات البطيئة التي يجب أن تمر «دقيقة بدقيقة» قبل أن تتخلص من هذا الوضع. والناس لا ينامون كثيراً بل يبقون شبه فاقدي الإحساس. يشعرون وكأن بضع درجات حرارة إضافية قد تعني الموت».

كان على متن السفينة طفل تركي مسكين مريض، لاحظ برتون عند الرجال كثيراً من المراعاة لمشاعر والدته. كانوا يقومون بتمريضه بالمناوبة. وإذا تلقى أحدهم قليلاً من طعام شهي، مثل بضع حبات تمر أو رمانة، فكان يعطي جزءاً منه إلى أطفال المرأة الآخرين.

مرت الأمسيات في سرور نسبي. لجأت السفينة إلى خليج صغير، ونزل الطاقم إلى الشاطئ وزاروا المعالم البرية المجاورة، وطبخوا وجباتهم ودخنوا وقصّوا حكايات حول النار. كانوا أحياناً ينامون على الرمل. تمتع برتون بهذه الحياة كما لو كان واحداً منهم.

قضوا إحدى الليالي في جوار آكلي الأسماك. وهم قبيلة عربية أفرادها نصف عراة، ليس لديهم أي سلاح سوى ملامحهم ويعيشون في كهوف كلسية ويقتاتون على الأسماك على نحو كامل [يطلق عليهم الصليب أو صلبة]. وفي مناسبة أخرى كانت المجموعة بكاملها في مزاج سيئ بسبب نقص في الماء العذب. تسلى أحد الأفراد بالزحف ببطء على يديه ورجليه، فوق الولد محمّد، وكان حريصاً جداً أن يضع إحدى ركبتيه على وجه النائم. استفاق الولد واستشاط غيظاً؛ قهقهنا جميعاً. وبعد أنْ ذاق هذا الزنجي المقطّب طعم نجاح فعلته، تقوقع كالكرة متجهماً مثل قنفذ، وبعد أنْ صمم على أن يكون عدائياً حتّى في حالة النسيان، راح يغط في سبات عميق طول الليل».

وأخيراً اقتربت السفينة المهلهلة من ينبع. «صفٌ طويل من المباني البيضاء على نحو مزعج» على طرف سهل لفحته الشمس ظهر من البحر النيلي اللون. كانت خلفها سهول الصحراء السمراء. شعر برتون بحياة جديدة عندما ودع السفينة «غولدن واير». كان من الممكن أن يتجنب المصاعب باستئجار مركب خاص. لكن الكلفة كانت ستكون بين 40 و50 جنيهاً، وكان من المؤكّد أن بقية حجّه قد جرت بالمستوى نفسه. وكان أيضاً يود أن يشهد المواقف على سفينة خاصة بالحج بأم عينه.

بينما كان برتون يخوض في الماء عضّه قنفذ بحر سام في قدمه. وهذا ما جعل من المستحيل عليه أن يسافر إلا في محفة. بدأت المفاوضات من أجل الجمال فوراً. استأجر برتون اثنين؛ واحد للشيخ نور والأمتعة والآخر للولد محمّد وله. وسرت إشاعة مخيفة متعددة؛ كانت القبائل قد «خرجت» إلى ما بين ينبع والمدينة وكان على

المسافرين أن يتقاتلوا كلّ يوم. لكن القتال لم يسبب أي مخاوف لبرتون، لكنْ كانت تربكه نظرات ريبة في أعين عدد من الرجال اشتركوا في الغرفة مع مجموعته أثناء الفترة القصيرة التي أمضوها في ينبع، لكنه أظهر عدم اكتراث المؤمن الحقيقي التام.

أمضى الليلة الوحيدة في ينبع في الغرفة العليا الطلقة الهواء في الخان المطل على البحر. أظهر هذا التعرف القصير على السكان شخصيتهم المتعصبة والمشاكسة. كان هناك أشخاص يتجولون بكبرياء مدججين بالسلاح. ومن بينهم كان بدو مقيتون: «متوحشون مثل قفار بلادهم وبكلّ الاعتزاز والكبرياء وعدم النظافة».

عند ظهر اليوم التالي (18 من يوليو/ تموز)، كانت الجمال جاهزة عند البوابة. سارت عملية تحميلها بين صراخ أصحاب الحيوانات بشأن الأثقال غير العادلة والاحتجاجات من أصحاب البضاعة بأن الطفل يستطيع أن يحمل هذه الأثقال. وعند حوالي الساعة السابعة مساءً خرجت القافلة المؤلّفة من اثني عشر جملاً من الشوارع الظليلة وانطلقت في الصحراء. سارت في رتل هندي، رأس مربوط إلى ذيل، تحت نور البدر. كان ركوب برتون في محفة يسهّل مهمته في تسجيل كلّ ما يرى.

انضمت القافلة إلى قافلة حبوب مؤلّفة من مئتي دابة، وتابعت طريقها. «لفحت الشمس كلّ شيء؛ كانت الحرارة الشديدة قد جففت كلّ نسغ أو عصارة في الأرض». كان انتقال القوافل لا يجري إلا في الليل. وكان النهار ينقضي في النوم أو شبه سبات. بعد ذلك حلت «بلاد ساحرة في عزلتها» محل السهول الرملية الشاسعة. أعاقت الطريقَ كتلٌ

متدحرجة من الغرانيت وكان في الأرض شقوق تشبه الندوب، تتسع لتصبح كهوفاً أو يملؤها رمل ذَرَته الرياح. كانت السماء فوق كلّ هذه مثل الفولاذ الأزرق المصقول. لم يكن يُرى أي طير أو حيوان. وحتّى العشب الذي تتغذى عليه الجمال لم يستطع أن يجد من التربة ما يكفي لجذوره.

وعند الحمراء ـ مرحلة نصف الطريق ـ انضموا إلى قافلة مكة التي كان يحميها حرس من الفرسان. وعند الفجر الباكر من صباح 24 يوليو/ تموز وصلوا إلى وادٍ سيئ السمعة يدعى «ممر الحج». خيم الصمت على المجموعة، وفي اللحظة التالية ارتفعت حلقات زرقاء رقيقة من الدخان من بين الصخور وسُمعت فرقعات حادة من فتيل بنادق. ظهر عدد من البدو «في أسراب مثل الدبابير فوق رؤوس التلال، يحملون أسلحة ضخمة ويتسلقون كالقطط». وكل ما كان يمكن فعله رداً على ذلك كان إطلاق النار بسرعة وعلى نحو متكرر كي تتشكل ستارة من دخان. كانت خسارة القافلة اثني عشر رجلاً بالإضافة إلى بعض الجمال.

ولأن المدينة كانت تقع على هضبة فقد كانت الطريق من ينبع في صعود دائم. وفي يوم 25 يوليو/ تموز، بعد أنْ مروا عبر طريق من الحمم البركانية القاتمة اللون، كانت جائزتهم رؤية المدينة المقدسة. كانت طريق شاقة تتلوى عبر السهل إلى أسوارها البيضاء. وفي الحيّ الشرقي ظهرت الأبراج العالية والقبة الخضراء اللامعة التي يقال إن رفات النبي تستريح تحتها.

قدم الشيخ حامد ضيافة كريمة إلى برتون. كان أوّل واجبات الغريب الوضوء الكبير وزيارة المسجد. أثر فيه مظهره المبهرج تأثيراً

سيئاً. «إنه لا يشبه معبد مكة، كبير وبسيط، كان تعبيراً عن فكرة وحيدة كاملة؛ كلّما طالت فترة نظري إليه، تداعى إلى ذهني أنه مشابه لمتحف من فن الدرجة الثانية، مخزن قديم للتحف، مملوء بالزخارف غير الكمالية، ومزخرف ببهاء شديد الفقر». زار كلّ زاوية من زوايا المسجد مع حامد، مكرراً الصلوات في الأماكن المحددة. وعبَرَ الحديقة المشهورة ولاحظ أنَّ الشمعدان ذا الشعب من الكريستال المحفور الذي شوه منظره، كان من صنع مؤسسة لندن. شاهد كلّ ما يمكن مشاهدته من قبر محمّد، أي الستارة التي يقال إنها تغطي مبنى مربعاً من حجارة سوداء. قال إن القبر يشبه سريراً كبيراً ذا أربعة أعمدة، كما أنَّ سياج القبر، المصنوع من أعمال تخريمية من نحاس أصفر مصقول، يشبه قفص الطير. كانت الصلوات تتلى على قبر النبي، والخليفتين أبي بكر وعمر والسيدة فاطمة. وهذا مثال من الصلوات التي كانت توجه إلى الخليفة الأوّل:

«السلام عليك يا أبا بكر! أيها الصدّيق! السلام عليك يا خليفة رسول الله وعلى أصحاب رسول الله! السلام عليك يا رفيق الغار وصديق السفر! السلام عليك يا مرشد اللاجئين والتابعين، أشهد أنّك وقفت على الصراط المستقيم وكنت ضارباً للكفار، ومحسناً للمسلمين! فليعطِك الله من خلال رسوله الخير! نتضرع إلى الله الكلي الاقتدار أن يميتنا في رفقتك وأن يرفعنا في صحبة رسول الله وصحبتك، كما منحنا برحمته هذه الزيارة!». ولدى مغادرة الحجرة المقدسة تلا برتون وصحبه صلاة أخرى، وكانوا حريصين على ألا تكون ظهورهم تقابل وجه النبي. وكذلك خرجوا من المسجد بأقدامهم اليمنى أوّلاً، بعد أنْ كانوا قد دخلوه بالقدم اليسرى. وكان هناك الحشد المعتاد من الشحاذين

المُلحّين. لكن الولد محمّد عرف كيف يقمعهم. لقد أظهر «اقتصاداً كبيراً»، حتّى يبقى لدى برتون مبلغ أكبر من المال يصرفه في مكة وهو في كنفه.

تغيرت مؤسسة المسجد كثيراً منذ أيام بوركهارت. كان عدد الخصيّ الآن 120، وكانوا يقسمون إلى مراتب ثلاث: الحمالون والكناسون وأولئك الذين يقومون بعمل خدم المسجد، بما في ذلك الاستعمال الكثير للعصي. كان هناك خدم أحرار، ينظفون الغبار، ويرتبون المصابيح، ومن يحرصون «على فعل لا شيء». وكان السقاؤون يكملون قائمة الخدم. كانت هناك أيضاً المؤسسة الأدبية المؤلّفة من قاض ومفتيين، وأئمة، الخ... أما وظيفة المرشد (المزوّر) (Mezouar) فقد كان يقوم بها بإبهاج كلّ مواطن ليس له عمل تقريباً.

عندما زار بوركهارت المدينة، كانت لا تزال تعاني من آثار غزو الوهابيين. تناقص عدد السكان، وكانت كثير من البيوت خربة. كانت تبدو لبوركهارت مدينة مريحة ومزدهرة. يصف الشوارع بأنها عميقة ومعتمة وضيقة. وكانت البيوت مبنية من الصخور البركانية البازلتية، والآجر المشوي وخشب النخيل. كانت الشرفات بنوافذها ذات الشعريات مظهراً شائعاً. كانت هناك طريق واسعة تفصل الضاحية الجنوبية عن المدينة، وفراغ كبير مكشوف يفصل الغربية عنها. كانت كلتا الضاحيتين محاطتين جزئياً بسور طيني منخفض. كانت هاتان الضاحيتان مبنيتين بطراز منتشر دون انتظام، وكانت تغطيان مساحة من الأرض أكبر من مساحة المدينة، وفي معظمها تتألف من ساحات ومساكن من طابق واحد، ذات حدائق ومزارع بينها.

كان عدد السكان يبلغ 10000 نسمة. كانت أربع عائلات تدعي أنها من أحفاد النبي وكانت «سلالات من كلّ أمم الإسلام» تشكل الباقي. ضغط أصدقاء برتون عليه بإلحاح كي يسكن في المدينة، ويمارس عمل الطبيب. كان للسكان الهجناء ملامح عربية، كانوا يتصفون بالوقار والغرور، وكان قيامهم بأعمال اللياقة الخارجية نفاقاً. كانوا يحتقرون العمل اليدوي. لم يكن هناك سوى القليل من أصحاب المحلات التجارية. وكان السود يقومون بأعمال الخدمة المنزلية. كانت الطبقة المتوسطة تتاجر بالقمح والحبوب والمواد الغذائية. وكانت السلع الكمالية، بما في ذلك الثياب الفاخرة التي يحبها أهل المدينة، تجلبها سنوياً القافلة السورية. وكذلك اكتشف برتون في سكان هذه المدينة رجولة غير موجودة عند أي من الناس الأوروبيين الآخرين. ومن الفضائل العربية البدائية بقي الكبرياء وحب القتال والشرف وحب الانتقام.

بقي برتون خمسة أسابيع في المدينة. ونادراً ما كان يترك يوماً يمرّ دون زيارة المسجد. عمل على قضاء فترة بعد الظهر وحيداً بحجة القيلولة. كان يستلقي على بساط في ممر معتم ينقل إلى دفتر ملاحظاته المعلومات التي بذل جهداً كبيراً للحصول عليها. وكان يمضي الأمسيات في أحد المقاهي أو في الشارع خارج باب بيت حامد. كانا يجلسان على فراش ويستقبلان الزوار يحكون الحكايات ويمرحون.

وفي حوالي نهاية أغسطس/آب وصلت قافلة دمشق وخيّمت في الفناء المكشوف بين سور المدينة والضاحية الغربية. وكان برتون ينظر من نافذته إلى خيام المدينة التي نُصبت. وكان السهل يتخذ أشكالاً

وألواناً مختلفة، وكان تغيّرُ التفاصيل المتعددة يسحر عين الناظر. كان من المقرر أن يسافر مع القافلة على الدرب الشرقي عبر صحراء نجد، حيث لا يمكن رؤية الماء مدّة ثلاثة أيام. كانت هذه الطريق إلى أقصى الشرق بين الطرقات الأربع من المدينة إلى مكة، وهي تدين بشهرتها إلى الخليفة هارون الرشيد والسيدة زبيدة. ظهر على حامد الذي نقل إلى برتون برنامج سفره، الرعب الشديد. لكن ليس بإمكان أي نذير بالخطر أن يهز مشاعر برتون. على العكس، امتلأ قلبه بالفرح لأنه ما من أوروبي سافر على هذه الطريق من قبل.

بدأ برتون والولد محمّد فوراً بترميم قُرَب الماء المصنوعة من الجلد، والتي أتلفتها الجرذان. بذل الشيخ حامد جهده لتأمين سائقي جمال للرحلة «حيث كانت السرقات متكررة والطعنات بالخناجر تحدث أحياناً». عاد ومعه بدوي أبيض اللحية وابنه. اتفقوا على أن يوصلوا برتون وخادمه والولد محمّد إلى مكة وإلى عرفات للحج لقاء أربع دولارات. لكن الرجل رفض رفضاً باتاً أن يأخذ صندوق برتون الخشبي الكبير، فتركوه في المدينة، كما أنَّ السلة الكبيرة كانت قد تحطمت أثناء الرحلة البحرية. حذر حامد ضيوفه المغادرين ألا يدعوا أكثر من أربع وعشرين ساعة تمر دون أن يمدوا أيديهم ويأكلوا من الطعام نفسه الذي يأكل منه سائقو الجمال، لكي «يحفظوا حرمة الممالحة». وعندما حان موعد دفع الفواتير، أُلغي مبلغ الخمس جنيهات الذي اقترضه حامد من برتون في السويس بالنظر لضيافته الكريمة.

عند الساعة 9 من صباح يوم 31 أغسطس/آب بدأ الموكب الضخم المؤلّف من 7000 شخص، بالتحرّك عبر السهل نحو الصف

الضيق من التلال المنخفضة القاتمة اللون المحيطة بالمدينة من الشرق. كان هناك عدة درجات من الحجاج، كان أدناها يسيرون ومعهم عصي ضخمة، ثمّ يأتي راكبو الحمير والجمال والبغال، وكان حجاج آخرون يركبون جمالاً ذات سنام واحد ويقودون أحصنة. وكان من الممكن رؤية نوعين من المحفات: الشقدوف الذي كان برتون يركب فيه، والتخت أوان (التختوان) للأثرياء والنبلاء. «لم تكن مناظر التنوع ذي التفاصيل الرائعة أقل جمالاً. لم يكن أي رجل يرتدي لباساً يشبه لباس الآخر. ولم يكن هناك أي بعير أو حصان مسروجاً مثل الآخر كما يظهر. ولم يكن هناك أي شيء أكثر غرابة من التناقض: مجموعة من Takruri نصف عراة، يسيرون مع عربات الباشا ومن الفرس ذوي اللحى والقبعات الطويلة يتحادثون مع أتراك حليقي الرأس يرتدون الطرابيش». كان هؤلاء الحجاج الـ Takruri يحملون طاسات خشبية يتسولون الماء. كان الكثيرون يعرجون من التعب أو من وخز الأشواك، وكان الموت بادياً على أشكالهم وملامحهم.

ألقوا نظرة وداعية على المآذن المهيبة وقبة المدينة الخضراء، وبعدها هنّأ برتون نفسه على اجتياز الخطر الأوّل. كان مظهر البلاد التي كانوا يمرون فيها الآن بركانياً. كانت الصخور البركانية والبازلتية سائدة فيها. كانت هناك ممرات حجرية، ذات أشجار أكاسيا شائكة وأراضٍ من الحمم البركانية. وفي أرض سيلية ذات منعطفات مفاجئة بين التلال المنحدرة القاحلة، بدأت حيوانات النقل تنفق. كانت الجثث تتناثر على جانبي الطريق، وكانت النسور أو حجاج الـ Takruri تلتهمها. كان حوالي 25 ميلاً عربياً تشكل مسيرة يوم. وكان يتمّ نسيان التعب تحت تأثير الغليون المهدئ الذي كان يؤخذ ويدخّن عند كلّ موقف. كان لهذا

الغليون الأولوية على فنجان القهوة. عند حوالي الساعة الثالثة صباحاً سُمعت طلقة المدفع المؤذنة بالانطلاق المقيت، وبدأت مسيرة عدة ساعات قبل أن تبزغ الشمس الحمراء الكبيرة من خلال السديم البنفسجي فوق هذا المنظر الباهت. حدثت عدة حوادث صغيرة في الممرات الموحشة: كانت الجمال تتهاوى والمحفات تلطم إحداها الأخرى. في بعض الأمكنة كانت المحفات ونزلاؤها الذين يصرخون يُنتزعون عن ظهور الجمال بسبب أشجار الأكاسيا، وتقع لتنكسر على الأرض. وفي الصباح الباكر بدأت تنطلق من السهل روائح ريح السموم الكريهة، لكن وهجاً أبيض هيمن خلال اليوم. لم يكن برتون قد شاهد مثل هذه العزلة المطلقة في أي مكان من الجزيرة العربية. وفوق سلسلة من السهول الصخرية أو السهول الممتلئة بالحصى والغضار التي تحيط بها التلال، كانت القافلة تتقدّم. كانت السهول مقسمة بممرات على جوانبها أسوار خشنة من البازلت الأسود. نزلت الجمال عن الحواف، تسير من عقبة إلى عقبة مثل أهل الجبال، لكنّها كانت تئن بطريقة يرثى لها عند المنعطفات المفاجئة والحفر الغائرة بين الصخور. وكانت هناك أيضاً أعمدة من رمل، يدعوها العرب؛ «جنيّات القفار»، وكانت أحياناً تطيح بأحد الجمال.

نجح برتون في نسخ ملاحظاته أثناء غياب الشيخ مسعود، سائق جمله والولد محمّد. كان يرسلهم من أماكن التوقف في طلب الماء. وكانت الآبار في الغالب على مسافة بضعة أميال، يحرسها جنود يتقاضون ثمناً باهظاً للسائل الثمين.

أصبحت مناظر القسم الثاني من الرحلة أكثر وحشة. كانت صحراء تسكنها الأصداء، كما كانت مكاناً للموت. كانت أعمدة الرمل في

أرجاء السهل، وكانت الأعمدة الصخرية الضخمة تنتصب على الجانبين منفصلة فوق سطح الرمل والغضار. «الطبيعة المجردة والعارية أظهرت هيكلها العظمي لعين الرائي». وبحلول الليل كانت الجمال تتعثر وتتهاوى، وتلقي بمحفاتها «مثل مراكب المجاديف في بحر صغير». وعلى الحواف المنحدرة كان سائقو الحيوانات يمسكون بحبال حيواناتهم يشجعونها بصرخات وإيماءات غريبة. كانت هيئات الجمال الضخمة والمبهمة تنتقل فوق السهل البازلتي الأسود كالأشباح. كانت شرارات من دخان ولهب تنطلق من المشاعل كهبات من ريح حارة، تنير هذا العدد الهائل القاتم اللون بومضات من أشعة حمراء.

لكن المنظر الذروة حدث في وادٍ اسمه «وادي الخطر» خلال مسيرة يومين عن مكة. دخل الحجاج مرتدين الإحرامات في حوالي الساعة الخامسة مساءً. كانت هناك جروف قاتمة اللون تحيط به، بحيثُ إنَّه بالرغم من أنَّ النهار لا يزال ينير القمم، فإن المنحدرات السفلى والممرات الضيقة المعيقة كانت في ظلام. وفجأة انطلقت طلقة وهوى بعير، سيطر الذعر، وحاول الجميع دفع حيواناتهم فوراً عبر الممر، واحتشدت القافلة جميعها في كتلة متراصة. وعند كلّ طلقة تلي، كانت تسري الرعشة عبر المجموعة كلها. وبعد ذلك فرقت مئة من الوهابيين الذي أعجب بهم برتون، اللصوص بإطلاق النيران عليهم والاحتشاد على التلة. وبرتون نفسه، أدهش الجميع عندما طلب عشاءه قائلاً إنه في بلاده كان الناس يتناولون عشاؤهم دائماً قبل غزوة قطاع الطرق وإلا فكانوا سيرسلونهم إلى النوم من دون عشاء. لكن المنظر ازداد وحشة. كانت جروف قاتمة مخططة ترتفع فوق المكان حتّى اختلطت مع ظلام الليل. أسرع المضيف بمحاذاة الهوة صارخاً ومطلقاً بندقيته. كان يعلو

ستار من دخان إلى منتصف أعلى الصخور. وفي الوادي تصاعدت ومضات حمراء عنيفة أو تلاشت مبتعدة. وكانت الجمال تنبهر أبصارها الواحد بعد الآخر، وتتعثر فوق الصخور التي كانت تسدّ الطريق أو تنزلق على صفحات من الطين. الحجاج وسائقو الحيوانات تخاصموا وهدد بعضهم البعض الآخر بغضب. كانت المجموعة بأكملها «متفقة على الخلاف».

كان هذا المشهد الجهنمي آخر تجربة في الرحلة الرهيبة. مرّ النهار التالي في هدوء نسبي، وقبل مغيب الشمس ظهرت قمم الطائف الزرقاء بعيداً إلى الجهة اليسرى. وفي الصباح التالي (11 سبتمبر/أيلول) حوالي الساعة الواحدة صباحاً، نظر برتون خارج محفته، بعد أنْ أفزعته صرخات ونشيج بكاء، ورأى «في ضوء النجوم الجنوبية الخطوط الرئيسة القاتمة للمدينة الكبيرة، وظلاً أكثر عتمة من السهل المحيط». كانوا قد أمضوا اثني عشر يوماً في مسيرة الموت هذه.

ألقى الولد محمّد عنه طباعه المرحة، وأصبح مضيفاً متهجماً ومنتبهاً. وبعد استراحة ساعة أو أكثر تحت سقف بيته، زار برتون المسجد. فكتب ما يلي:

«وأخيراً ظهر مستلقياً هناك، وهو هدف حجي الطويل والمرهق، محققاً خطط وآمال سنوات وسنوات عديدة. لقد منح وهم الخيال الجامح لهذه المنصة الضخمة وحرمها الكئيب سحراً غريباً. لم يكن هناك قطع كبيرة من جمال قديم كما في مصر، ولا بقايا جمال أنيق متناسق كما في اليونان وإيطاليا، ولا بهاء بعيد عن المدينة كما في مباني الهند، وبالرغم من ذلك كان المنظر غريباً فريداً، وقليل جداً من

الناس نظروا إلى داخل المزار المبجل! يمكنني القول حقاً إن من بين جميع المتعبدين الذين كانوا يتمسكون بالستارة يبكون، أو الذين كانوا يضغطون بقلوبهم النابضة على الحجر، لم يكن هناك أحد يشعر بشعور أعمق مما كان يشعر به الحاج الآتي من أقاصي الشمال. يبدو كأن الأساطير الشاعرية عند العرب كانت تحكي الحقيقة، وأن أجنحة الملائكة المتحركة ـ وليس نسيم الصباح الرقيق ـ هي التي كانت تثير غطاء المزار (الكعبة) الأسود وتحرّكه. لكن لا بد من الاعتراف بالحقيقة المتواضعة، كان يملؤهم الشعور العالي بالحماسة الدينية، أما أنا فكانت عندي نشوة الغرور المسرّ».

قام برتون بالطواف برفقة الولد محمّد. قاموا بالدورات الثلاث الأوّل بخطوة الركض، والدورات الأربع الأخيرة ببطء. في أماكن متعددة، مثل كلّ زوايا الكعبة، وفي المسافة بين باب الكعبة والحجر الأسود، وقبالة الميزاب، وأماكن أخرى كثيرة كانت تتلى صلاة مناسبة. وكان ماء زمزم يؤخذ بكميات كبيرة داخلياً وخارجياً. «كان الطعم مالحاً مراً» يكتب برتون: «يشبه شراباً من ملح أبسوم (ملح إنكليزي) في كأس كبيرة من ماء الفاتر». كما وجده «ثقيلاً» على الهضم. لكن تقبيل الحجر الأسود كان يشكل صعوبات بسبب الحشود التي تطوقه. وأخيراً أفسح الولد محمّد مع خمسة أو ستة من أصدقائه الطريق واحتكره برتون عشر دقائق. يقول: «بينما كنت أقبله وأمسح يدي وجبهتي عليه، رأيته لفترة قصيرة. وخرجت من هناك وأنا مقتنع أنه نيزك جوي».

في المساء قام بزيارة ثانية للمسجد. كان القمر بدراً تقريباً وألقى على مبنى الكعبة الضخم المشابه للتابوت خطوطاً من فضة. وكان هذا

المبنى يبدو أكثر بروزاً من النهار. «كانت المباني والقباب المشابهة للباغودات (الهياكل الصينية أو الهندية) حوله قد اختفت. وبدا في عزلته يجسد جلال فكرة التوحيد التي نفخت النشاط والحيوية في العالم الإسلامي كلّه. كانت حشود من الناس تقوم بالطواف: من المرأة البدوية «في لباسها الأسود الطويل كثياب الراهبة وقناع وجهها الأحمر كزهر الخشخاش المثقوب كي يظهر عينين شديدتي اللمعان»، إلى التركي ذي البشرة البيضاء «الذي يبدو بارداً مقرفاً». حيناً كنت ترى ناساً يحملون جثماناً في هيكل خشبي عبر الفناء، وحيناً آخر حاجاً فقيراً يظهر متمسكاً بغطاء الكعبة وهو ينشج ببكاء حزين. أو ترى زنجياً أفريقياً في نوبة دينية يطلق صيحات حادة، رافعاً ذراعيه، يحرك جسمه ورأسه. إما أن تكون هذه المجموعة من الرجال سريعة التأثر، أو أن خيالهم قد شدّته الصعوبات والحرمان والتعب الذي عانوه بينما كانوا يعبرون القفار الموحشة المرهقة والبحار المحفوفة بالمخاطر، فأوصلته إلى نقطة الانهيار».

تجولت عينا برتون من الفناء إلى قسم من المدينة منتشر على واحدة من التلال الكئيبة. قارنها عاطفياً بـ: «باث» مدينة إنكليزية بناها الرومان (Bath) أو فلورنسا من دون جمالها. ففي ضوء القمر الساطع أصبحت مآذن المسجد أعمدة من الفضة. سوى أنَّ الأروقة المعمدة «ذات الصفوف من الفوانيس» كانت تلقي خطوطاً أفقية من الظلال التي تشكل إطاراً قاتماً لهذا المشهد المفعم بالحيوية. عند حوالي الساعة الثانية صباحاً مشى برتون ومرشده عائدين إلى البيت عبر الشوارع حيث كان الناس نياماً في أكواخ خارج أبوابهم المفتوحة.

شهد اليوم التالي، 12 سبتمبر/ أيلول، الخروج إلى عرفات. كانت

الطريق مغطاة بالحجاج ذوي الثياب البيضاء، سائرين أو راكبين. كانت المسيرة تستغرق ست ساعات من السير البطيء، لكن كثيراً من الحيوانات خرت على جانب الطريق بالإضافة إلى عدد لا يقل عن خمسة رجال. والسهولة التي ماتوا فيها جعلت برتون يتساءل هل الموت يصبح أكثر سهولة في المناخ الحار لسبب مجهول. وعند الوصول إلى عرفات وجد مخيمات ضخمة على أرض السهل القاحلة الصفراء. كان الشارع الرئيس في بلدة الخيام هذه قد تحوّل إلى بازار. وبين فوضى الشجارات والصراخ حول أفراد ضائعين من مجموعات منهم، كان اللصوص يقومون بأعمال سريعة. كان الشيخ مسعود ـ البدوي العجوز قائد الجمل ـ ينظر إلى الحشد المتنافر الأنواع المؤلّف من 50000 حاج باحتقار واضح.

تقدّم برتون ـ الذي استفاق صباح اليوم التالي على إطلاق مدافع ـ كي يستكشف جبل عرفات. يصفه بالقول: «كتلة من الغرانيت الخشن مقسمة إلى أقسام كبيرة، ذات غطاء رقيق من الأشواك الذابلة». صعد الدرجات المحفورة في جانبه، والتي كانت تضيق كلّما تقدّم، نحو المنصة المجصّصة والمسلّة عند القمة. ثمّ نزل نحو السهل وعند الساعة 3.15 شاهد موكب الشريف البطيء والوقور. اتّخذ هذا الرجل ذو المنصب الرفيع مكانه عند نقطة مرتفعة على الجبل، في مكان يسمع منه موعظة الخطيب. كانت خلفه الجمال (التي تحمل السجادة «الكسوة» المقدسة) المصرية والدمشقية، وخلفها كانت بحار من الحجاج تغطي جوانب وقاعدة الجبل، وتنتشر على شكل دوائر تتسع وتتسع فوق السهل.

لم يسمع برتون أي كلمة من الخطبة مثله في ذلك مثل كثير من

الحجاج الآخرين. وعند الغروب انفضّت الحشود. كان كلّ رجل يحثّ حيوانه بأقصى قوة بدنية. وكانت أوتاد الخيام تنتصب في السهل والمحفات تتكسر والمشاة يُسحقون تحت الأقدام والجمال تتهاوى، كما كانت تحدّث شجارات منفردة بالعصي والأسلحة الأخرى. كانت امرأة تفقد هنا، وطفل هناك، وهناك أيضاً حيوان. كان المكان في فوضى عارمة. وفي الطريق الضيقة «كانت صفوف مزدوجة من الجمال تنتصب عليها المحفات تطرق وتصدم وتحدّث ضجيجاً أكبر من ضجيج السيول». وكان دوي البنادق وانفجار الأسهم النارية يضيف إلى الاضطراب اضطراباً.

قضوا الليل عند المزدلفة، لكن استعيض عن عُرف الاستيقاظ في المسجد بضرورة حراسة الأمتعة. وعلى أي حال، تمّ جمع الحَجَرات السبع الصغيرة من الغرانيت من أجل الرجمة الأولى وجرى ربطها بالإحرام. وفي اليوم التالي، عند منى، قام برتون بأول محاولة لرجم الشيطان. كان الحشد كبيراً جداً بحيثُ إنَّ حماره وقع، ووجد نفسه تحت أقدام جمل يرغي. «باستعمال حكيم لسكينه» نجا من دوس الأقدام، وانتظر مع الولد محمّد ـ الذي كان أنفه يدمى ـ أن تحين الفرصة. ولما حانت رميا الحجارة. وبعد ذلك أصبح شرعياً أن يحلقا رأسيهما ويخلعا الإحرام.

لدى الانتهاء من هذه المراسم، عاد برتون إلى مكة. لقد اختار وقته على نحو جيد: كانت الكعبة مفتوحة. كان قد أخبره الولد محمّد ذلك بحالة من الاهتياج وانقطاع النفس. كانت الكعبة في حلتها الجديدة، وعندما اقترب برتون ارتفعت صيحة: «افتحوا الطريق للحجاج كي يدخل البيت». كانت الدرجات التي تتحرك على بكرات قد

فقدت. لكن رجلين قويين من أبناء مكة حملاه على أذرعتهما وسحبه شخص ثالث من الأعلى. كان بضعة موظفين سمر الملامح يقفون حول الباب، طلب رئيسهم من برتون اسمه وجنسيته، سمح له بالمرور بعدها. يعترف برتون بعد النظر إلى الجدران التي لا نوافذ فيها، والموظفين عند الباب، وحشود المتعصبين تحته، وإلى المكان، محاولين بتشوق كبير أن يعرفوا من يمكن أن يكون. كانت مشاعره تشبه مشاعر جرذ وقع في المصيدة. لكنه لاحظ المشهد بحذر، وكنت قد ذكرت سابقاً الطريقة التي سجل فيها انطباعاته. كانت كلفة هذه الزيارة ثماني دولارات، لم يقبلها الرسميون دون تذمر، لأن حماقة الولد محمّد كانت قد جعلتهم يتوقعون أكثر من ذلك.

بالرغم من أن برتون عاد إلى منى، فإنه لم يعدّ يستطيع شراء خروف للتضحية، لذلك راقب جيرانه وهم يقومون بهذا العمل الديني المبارك. ذُبح خمسة أو ستة آلاف خروف، ولأن تقديم الضحية دون أكل لحمها كان عملاً كبير المكافأة، فقد كان يلتهمها الحجاج الفقراء. كانت الحدان والنسور تملأ السماء، وكانت أسراب من الذباب تحط على الجثث. كما كانت الروائح تنتشر من الأرض الملطخة بالدماء، وكانت الحرارة رهيبة. أمضى برتون يومين آخرين في منى لإتمام رمي الحجرات. وبعدها عاد إلى مكة للمرة الأخيرة.

لكن منظراً مؤثراً كان ينتظره. كانت هناك خطبة على وشكّ الإلقاء في فناء الحرم». كان الفناء الرباعي الزوايا مكتظاً بالمتعبدين الجالسين في صفوف طويلة، وفي كلّ مكان بمواجهة البرج الأسود المركزي (الكعبة): لم يكن من الممكن لأي حديقة تمتلئ بأزهار من أزهى الألوان أن تبزّ ألوان ألبستهم المبهرجة، ولم يكن من المحتمل مشاهدة

هذا التنوع في التفاصيل متجمعاً معاً في أي مبني آخر على الأرض».
ألقى الخطبةَ رجلٌ عجوزٌ مهيب ذو لحية بيضاء كالثلج، ارتفع فوق الحشود على منبر عال بارز، كان برجه المذهب يتلألأ في الشمس، كان الناس يستمعون إلى كلماته بانتباه شديد، وفي نهاية كلّ جملة من جمله الطويلة كان الحجاج يرددون «آمين». كان هذا الاحتفال أكثر الاحتفالات الدينية التي حضرها برتون وقاراً.

بقيت العمرة، وهي الحج الصغير، والسعي أو الركض سبع مرات في الشارع الرئيس بين تلال الصفا والمروة المقدسة. تمّ هذان الطقسان من دون أي حادثة تذكر؛ تمت تلاوة الصلوات المناسبة وتسليم العدد الملائم من القروش إلى حراس الأمكنة المقدسة وإلى المتسولين.

مرت الأيام الباقية في مكة بالتواصل مع الأصدقاء والزيارات للمسجد وكتابة المذكرات. كان البيت الذي أقام فيه برتون ملكاً مشتركاً لوالدة الولد محمّد وعمه. «هذا العم الذي كان عجوزاً بخيلاً من مكة من النموذج القديم الحقيقي ذا وجه يشبه الصقر ومخالب كمخالب الحدأة وضحكة كضحكة الضبع، ومجرد هيكل لجسمه»، قد أجر كلّ زاوية من زوايا البيت. وقبل أن يغادر برتون إلى عرفات، كان متضايقاً من اكتظاظ البيت، لكن عند عودته أقنع مضيفته، التي كان قد استمال قلبها بكيل المديح لابنها الفاسق، فتى العائلة اللعوب، أن تفرغ له مستودعاً صغيراً على الطابق الأوّل. وهناك بين الساعة العاشرة والرابعة كان يستريح. وحتّى في ذلك الوقت لم يكن يستطيع كتابة مذكراته، دون أن يُبقيَ إحدى عينيه مثبتة على الباب. كانت الحرارة لا تطاق في النهار. كانت التلال التي «تدمج المدينة» تمنع الريح من التحرّك فيها. وكانت المنازل القوية والمبنية على نحو جيد من دون وسائل تبريد كالأفران.

وكان الكسل وحدّة الطبع نتيجة طبيعية لهذه الظروف. كان سطح البيت المنبسط مكاناً مشتركاً للنوم.

تختلف الملاحظات القليلة التي قدمها برتون عن أبناء مكة عن ملاحظات بوركهارت. كانت أسوأ أخطائهم: الغرور والتعصب الأعمى، وعدم التدين والطمع في الربح والمجون والتباهي. وكانت الشجاعة والطباع الجيدة والشرف والحب العائلي العميق والذكاء هي الصفات الموازنة. كانوا يرون أنفسهم العرق المقدس. وكانوا يحتقرون جميع السكان من البلدان أو المدن الأقل حظوة. كان الإسراف النتيجة الطبيعية للحج. كان الأثاث والتسلية والاحتفالات على المقياس الأكثر تبذيراً. وكانت «إقامة النساء للولائم» تجلب الفواتير الباهظة لأزواجهن في نهاية العام. كان حكمه عليهم؛ «أكثر مدنيّة وأكثر شراً» من أبناء المدينة (Medinites). لكن بالنسبة لموضوع الأخلاق ـ على عكس بوركهارت وروش وآخرين ـ يقول إنه لم يكن هناك سوى القليل مما يزعج العين. وقد عزا اللون القاتم لأبناء مكة إلى عدد الخليلات السوداوات. إحدى زياراته الأخيرة كانت إلى سوق النخاسة: شارع كبير مسقوف بالحصر وفيه الكثير من المقاهي. كان العبيد يجلسون في صفوف، يرتدون الموسلين (نوع من القماش المصنوع في الموصل شمال العراق) الفاتح اللون والبراقع الشفافة. كان هناك عبيد من غالا (وسط الحبشة وشمال كينيا) والحبشة والصومال وشرق أفريقيا. . . الخ. والسعر الأعلى الذي سمع أنه دُفع كان 60 جنيهاً.

وبعد أن انتهى موسم الحج، كان من الممكن ملاحظة إشارات الحنين إلى الوطن في «الوجوه المتعبة والزفرات المستمرة». بدأت الاستعدادات للعودة. كانت هناك السلال الممتلئة بزجاجات من ماء

زمزم، والهدايا للأقارب المتنوعين، تقف في صفوف في البيت. كانت نهاية أسبوع الحج المقدس مميزة بطريقة لم تكن مهذبة. بعد أنْ قاموا بالحج، مُسحت خطاياهم، وكان الكثيرون منهم لا يضيعون أي وقت في الانطلاقة الجديدة «نحو الجنوب».

ليس هناك سوى القليل مما يذكر في رحلة برتون إلى جدّة. في يوم 26 سبتمبر/ أيلول، «بعد أنْ أنهكه التعب وحرارة الشمس المتوهجة» انطلق في رحلة بحرية إلى السويس. رافقه الولد محمّد إلى جدّة، وهناك؛ «بعد أنْ ادخر للمـ -قبل مؤونة كبيرة من الحبوب، اشتراها بأموالي، وبعد أنْ ضمن كلّ أمتعتي التي يمكن التخلص منها، وبعد أنْ ذكر ذلك، بعد عودتي إلى هند، كانت في انتظاره هدية تبلغ عشرين دولاراً، طلب المغادرة وغادر ببرود لم أستطع أن أجد تفسيراً». لكن هذا السرّ كشفه الشيخ نور، وهو الآن حاجي نور. على ظهر سفينة إلى ميناء جدّة عبر في ذهن الولد محمّد شكٌّ وقال لزميله الخادم: «الآن فهمت، سيّدُك صاحب (Sahib) من الهند، لقد ضحك على لحانا».

ملاحظة:

أحتفظ في هذه الملاحظة بالقصة الشهيرة التي جرت على الطريق بين المدينة ومكة. كشف عربيٌّ قناعَ برتون، لكن من حسن حظه أنَّ ذلك الرجل وُجد مطعوناً بسكين في صباح اليوم التالي. للقصة تتمة. على مائدة طعام الفطور صباح يوم عرس برتون، وجه طبيب إليه السؤال التالي: «كيف تشعر بعد أنْ قتلت الرجل؟». «في غاية الابتهاج». كان الجواب. «وكيف تشعر أنت؟».

هنريش فرايهر فون مالتسان

Heinrich Freiherr Von Maltzan

(سيدي عبد الرحمن بن محمّد السكيكدي)

1276هـ ـ 1860م

عندما عاد برتون ـ وهو لا يزال بزيه العربي ـ من الحج في عام 1853، قابل شاباً ألمانياً وتحدّث معه في فندق شيبردز ـ القاهرة ـ كان هذا الشاب فون مالتسان. كانت المقابلة بذرة لمشروع مشابه كانت قد تواجد في ذهن مالتسان، لكن المحادثة مع برتون شجعته وطورته. مع هذا كان بحاجة إلى سبع سنوات من الأسفار في البلدان الشرقية قبل أن يصبح على معرفة بالعادات الإسلامية، ويتقن اللهجة المراكشية. ذهب إلى مكة بشخصية مغربي.

ولد فون مالتسان قرب درسدن في 1826، درس القانون في جامعة جنة (Jena)، لكنه في سنّ الخامسة والعشرين أصبح رحالة. بعد أنْ ورث أملاك والده في 1852، أصبح قادراً على توسيع مدى أسفاره، وزار عدة بلدان في الشرق الأوسط. ازداد عنده سحر الشرق

وبدأ يرغب بحماسة زيارة مركز الدين الإسلامي. أمضى معظم السنوات التي تلت محادثاته الحافلة مع برتون في مراكش والجزائر.

خلفية حج فون مالتسان غريبة حقاً. ففي الجزائر التقى مغربياً عنده ولع شديد بالحشيش. أصبحا صديقين، ومقابل تأمين جواز سفر له إلى مكة واستخدام اسمه، تعهد فون مالتسان أن يقدم للمراكشي هدية، مبلغاً من المال كافياً لتمكينه من الانغماس مدّة ستة أشهر في مخدره المفضل. تمت الصفقة: أدار فون مالتسان وجهه نحو مكة، وغاص المراكشي في نعمة المخدر.

لم يعانِ فون مالتسان ـ بعكس برتون ـ من صعوبات نظام جواز السفر. بعد أنْ ارتدى زياً مراكشياً وقلد المظهر الخارجي للرجل الذي استعار اسمه على أفضل حال، كانت هناك خلافات جسمانية: مثل لون العينين. ومع هذا تجنب انتباه المسؤولين دون صعوبة. صعد الباخرة من الجزائر قاصداً مرسيليا، ومن هناك إلى مالطا. وفي مالطا ارتدى زيه النهائي، وأبحر في سفينة إنكليزية إلى الإسكندرية.

بدأت الآن مغامراته كحاج. كان يتجنب الأوروبيين، وتصادق مع مصري عجوز ـ الشيخ مصطفى ـ الذي كان قاصداً مكة أيضاً. أصبحا رفيقين على الطريق، وعاشا معاً في القاهرة في حيّ النحاسين، وفي يوم 23 إبريل/ نيسان بدأ رحلة في قارب في نهر النيل إلى قنا (Kenneh) انضم إلى المجموعة عبد زنجي اشتراه فون مالتسان. وصلوا إلى قنا يوم 13 مايو/ أيار، وبعد عدة أيام أنهوا الرحلة الصحراوية على الجمال إلى مرفأ القصير على البحر الأحمر. وفر مالتسان على نفسه عناء الرحلة الساحلية التي وصفها برتون وبوركهارت وصفاً دقيقاً. وبالرغم من أنَّ

العرب يعتبرون الإبحار في الليل أمراً مشؤوماً، فقد توجهت السفينة عبر البحر إلى ينبع مباشرة. قضوا ساعات الليل في الصلوات الورعة. ولحسن الحظ لم يكن هناك أي مراكشيين على متن السفينة.

من ينبع تقدّموا بمحاذاة الشاطئ إلى جدّة. قبل مغادرة السفينة ارتدوا الإحرام، لذا كان من المستحيل إخفاء نقودهم على أجسامهم. فاضطروا إلى إيداعها في صناديقهم. ولما كان الوضع المالي لكلّ منهم مكشوفاً حتماً لعيون مسؤولي الجمارك، فقد كانت تفرض الغرامات تبعاً لما معه من أموال. لا يلمح مالتسان إلى الممارسات التي كانت تجري في أيام بوركهارت؛ عندما كان من يرتدون الإحرام ينزلون إلى البر كانوا يحملون نقودهم في أكياس صغيرة يعلقونها حول أعناقهم. صادف جواز سفره الفرنسي بعض المصاعب، فكان ذلك ذريعة لابتزاز مئة قرش منه. وفي الوقت نفسه، خفف عنه لص غير رسمي أيضاً مبلغ 500 قرش.

كانت مغامرته الرئيسة في جدة ـ على عكس ما توقّع ـ هي السهولة التي وجد فيها مكاناً لإقامته في المرفأ المحتشد بالناس. كانت شقة مريحة، مثل أي بيت في ساحة بيركلي، بالرغم من موقعها المميز، لم تؤجر منذ مدّة طويلة. ولم يكن السبب خفياً. فبعد أنْ استفاق من نومه في المرة الأولى على عدة أصوات تفطر القلب، علم أن جيرانه كانوا من الدراويش المهللين. كان في الفترة الباقية من مدّة إقامته في جدّة مسروراً بمشاركة الشيخ مصطفى له في الغرفة.

رأى مكة للمرة الأولى في الفجر الباكر، ذلك التلألؤ الغامض الذي يدعى السحر، وهو ليس بالنهار ولا الليل. وهو الوقت الذي

يكون من الممكن أن يأكل فيه الصائم في رمضان. ويستمرّ ذلك الوقت دقيقة، لكن أثناء تلك الدقيقة، عندما لا يمكن تمييز الخيط الأسود في ذلك النور الخافت من الخيط الأبيض، رأى قبالة النور المتدفق من السماء، كتلة رمادية ليس لها حدود واضحة. كانت أكثر شبهاً بخليط من الصخور منها بخضم من المنازل. حيوا بصرخة عارمة بالفرح ظهور المدينة المقدسة تسع مرات، كلّ حجر فيها مقدس، قبلة جميع المسلمين ـ مكة ـ حيث الكعبة، الشيء الأكثر قداسة في العالم، بيت الله على الأرض. يكتب فون مالتسان: «لم يكن هناك أي إنسان لم يصرخ «لبيك» بكامل قوة رئتيه. الأصحاء والأقوياء أطلقوها كالرعد، وحتّى المرضى والضعفاء أطلقوها بجهد وتشنج، مستخدمين النفس الأخير الضعيف في هذه اللحظة المقدسة... خرّ كثيرون ساجدين، رافعين أذرعهم بشوق نحو الكتلة السوداء متعبدين وغطوا رمل الصحراء بقبلات حماسية... أعطى الجميع متنفساً لعواطفهم وحماستهم بكلّ طريقة ممكنة، لكن ليس على طريقة الأوروبيين الذي يعانق بعضهم البعض الآخر عندما يملؤهم الحبور. في مثل هذه اللحظة ينسى المسلم كلّ العالم الذي حوله وكذلك رفاقه. لا يفكر وقتها إلا بالأشياء المقدسة، المنظورة وغير المنظورة، الموجودة أمامه».

أحدث منظر الكعبة وحشودها المتعبدة، أحاسيس غامضة لدى فون مالتسان، كما فعلت ببادیا. شبّه المسجد بقلعة كبيرة للعفاريت. وبعد الصدمة الأولى، بدت له جموع المتعبدين والسجدات الكثيرة مملة وشاقة. لقد شعر بالقرف من الحالة المزرية للحجر الأسود ولم يستطع أن يقبله إلا بشق النفس.

وعن الحجاج الذين شاهدهم يقومون بالسعي، يكتب: «كان

منظراً لا يمكن أبداً رؤيته في مكان آخر خارج مكة، ولا حتّى في المارستان. جميع هؤلاء الناس أنصاف العراة الذين غطّاهم الغبار والوسخ، اللاهثين، والمتصببين عرقاً، والمتأوهين الذين أصابتهم الحمى من حرارة الشمس التي تعرضت لها رؤوسهم الحليقة طيلة ساعات، والذين أتعبتهم الطقوس الدينية حتّى الموت، وبالرغم من هذا كلّه أثارتهم الحماسة الدينية، كلّ هؤلاء الناس، كانوا يركضون لاهثين يصرخون بأصوات عالية ذهاباً وإياباً في الشارع، وكادت النشوة الدينية تصيبهم بالهذيان.

أثناء الاثني عشر يوماً التي بقيها فون مالتسان في مكة، نزل في بيت عند سفح إحدى التلال في الحيّ الشمالي الغربي. لم يشغل الدراويش المهللون، كما في جدّة، الشقة المجاورة، بل نساء صاحب البيت، القسم الشمالي الغربي ـ أو الجناح ـ كان يسكنه عادة حجاج أفغان. لذلك كان من غير الممكن أن يلتقي بمغاربة، ويفتضح أمره. كان من السهل أن يمرّ بصفة مغربي بين الأفغان. وللسبب نفسه انتحل صفة حنفي، بينما في جدّة دعا نفسه مالكياً. ولأن المغاربة مالكيون فإنه سيكون على اتّصال دائم بهم عند جناح مذهبهم قرب الكعبة. يلمح هنا إلى زيّ برتون الأفغاني ويقضي بعض الوقت في الحيّ نفسه. وبسبب الحالة المضطربة في أفغانستان، فإنها لم ترسل في ذلك الموسم إلا عدداً قليلاً من الحجاج. ولو أنَّ العدد كان كالمعتاد، فإنه يشكّ أن برتون سيستطيع تأدية تلك الشخصية.

رأى فون مالتسان الكعبة من دون غطائها: وامتنع عن محاولة الوصول إلى داخلها. لم يحاول أن يسجل انطباعاته. والأوصاف

المثيرة الموجودة في صفحاته لا بُدَّ أنه خزنها في خياله. ففي إحدى المرات ـ على حساب حياته ـ نسخ عبارة بالخطّ الكوفي من عمود في المسجد، لكن شدّ ما كانت خيبة أمله لأنها لم تكن سوى صيغة مسلمة، عندما تمّ فكّ رموزها كانت؛ «لا إله إلا الله الخ...». سُرّت عيناه برؤية المظاهر الخارجية للطقوس الدينية، تنوع وتعدد سيول الشعوب المختلطة وتغير الألوان على سطح النهر البشري الذي كان يجري أمامه. قارن بين المدينة الأوروبية المتوسطة وتناسق سكانها بالخمس أو الست جنسيات المختلفة التي كانت تسير كتفاً إلى كتف في المدينة الشرقية الأكثر تناسقاً، والتي تبهر العين والتي تكون مميزة بصورة محددة واحدتها عن الأخرى من حيث الدين والعادات ولون البشرة والثياب والتدرج غير المتناهي في المراكز الاجتماعية وغالباً بالتناقضات الاجتماعية الأكثر غرابة. كان عدد الجنسيات في مكة أكبر بكثير، على الرغم من عدم وجود ديانة أخرى غير الإسلام، إذا استثنينا الهنود ونزعتهم الوثنية.

كان المخيم في عرفات مناراً بمصابيح صغيرة وبالونات ملونة، وبالتوهج الأكثر توردآً للنيران التي لا حصر لها أمام الخيام. في صباح اليوم التالي، راقب فون مالتسان أشعة الشمس المتألقة تنعكس على سفوح الجبل المقدس الغرانيتية. ظهرت الكتل الصخرية القاحلة، المنّقطة بالحجاج مثل فرن أضفت عليه الحرارة لوناً أحمر. كانت صحة صديقه الشيخ مصطفى تزداد سوءاً. كانت رغبته في سماع الخطبة على عرفات ونيل لقب حاج قد جعلتاه يصبر حتّى الآن، لكن لم يكن مكتوباً له تحقيق ذلك. مات قبل الخطبة بساعات قليلة، ودفن فوراً. كان تاج الشهادة يمنح للذين يموتون في الحج، وذلك كان نصيبه.

في تلك الأثناء لم تكن تسمع أي كلمة سوى «لبيك». ملأت الهواء وترددت أصداؤها في كلّ جوانب عرفات. وبينما كانت الخطبة تلقى، كان مدّ الحماسة يعلو ويعلو. وبالرغم من أنَّ الملل قد أصاب فون مالتسان كالمعتاد، فقد تظاهر بالشعور العميق، فوضع منديلاً كبيراً على عينيه. ومع الزمن شعر الحجاج الأتقياء شعوره نفسه. بدأت الحشود تتضاءل وكان هناك تثاؤب وخبط أقدام إشارةً إلى الخطيب كي ينهي موعظته. استقبلت كلماته الأخيرة بصياح مرتفع «لبيك»، واندفع الحجاج نازلين عن الجبل مثل سيل عارم. وكثير ممن لم يستطيعوا الاستمرار بالسرعة نفسها داستهم الأقدام حتّى الموت. وفي الطريق إلى منى، احترق إحرام فون مالتسان بسبب أحد المشاعل. لكن تمّ إنقاذ قسم كبير منه وذلك لتمكينه من وصف نفسه منذ ذلك الوقت بأنه يرتدي ربع ثياب الإحرام وليس نصفها.

بعد رجم الشيطان بالحجارة، كان تواقاً للعودة إلى مكة من أجل الحصول على متعة الحمّام. خفف من دهشة مرشده من هذا الاستعجال الشديد التلميح إلى حالة الاحتشاد الشديد في محلات الحلاقين. رافقه إلى مكة المرشد الذي يطريه بلقب «أمير الجزائر»، ربما لأنه كان يبدو ذا مال. كلنا يعلم أنَّ الاسم المستعار ـ الذي يستعمل بصورة غير مؤذية بين الأصدقاء ـ قد يصبح ذا نكهة مثيرة للشكوك، إذا امتد إلى دوائر أوسع. لذلك كان فون مالتسان يخشى لدى الوصول إلى الحمامات أن تكون فئة من الجزائريين قد سبقته وسمعت مرشده يعرفهم عليه باسمه المستعار. حملقوا فيه وكانوا مقتنعين أنّهم لم يعرفوه، ولما كان الجزائريون سريعين في اكتشاف اللهجة المغربية، دخلوا معه في حديث. أيقظت إجابته ذات المقاطع الأحادية مزيداً من الشكوك.

وجرى حديث همساً. «ما رأيكم بأمير الجزائر هذا؟» «كيف يمكن لهذا الرجل البائس أن يكون ابن باشا؟» «إن الأمر ليس كما هو». «ولأن وسائل عيشه كبيرة، فإنه لم يرتدِ زيّ متسول. لا بُدَّ أنه مسيحي!».

كانت حاسة سمع فون مالتسان حادة على نحو كبير. سمع المحادثة كلها ووقف شعر رأسه عند سماع كلمة مسيحي. وبينما تقدّم الجزائريون إلى الحمام بتراخٍ يتصف به الشرقيون، قبل أن يكشفوا أمره إلى السلطات، أفلح في الخروج بسرعة من مكة. بعد أنْ ترك ممتلكاته وعبده انطلق نحو الضواحي، وبعد أنْ أستأجر بدوياً وحماراً، وصل جدّة في خلال أربع عشرة ساعة. اضطر إلى التخلي عن رحلته إلى المدينة، لكنه أرسل جواز سفره حسب الأصول إلى صديقه مدمن الحشيش في الجزائر. وارتاب هذا الرجل فيما بعد إنْ كان قد قام بالرحلة أم لا.

سافر فون مالتسان كي يرى لا ليعرف. كان يرغب في زيارة مكة. ولكن الاحتمال الكبير أنه عاد مقتنعاً وفي ذهنه صورة عن المدينة المحرّمة في ثنايا تلالها الغرانيتية والخطوط الرئيسة القاتمة للكعبة ذات الأمواج البشرية التي تصطخب حولها. إن الحماسة القليلة التي مارس فيها الطقوس، والاعتراف المتكرر أنَّ الصلوات والسجدات أتخمته، تجعلنا نشكّ إن كانت لديه أي عواطف أصيلة نحو الأسرار الخفية.

قضى بقية حياته في أسفار ذات نظام تقليدي. وكانت نهايته مأساوية. وبسبب معاناته الطويلة من آلام عصيبة، فقد أنهى حياته بيده عام 1874.

هيرمن بيكنل

Herman Bicknell

(حاج عبد الواحد)

1279 هـ ـ 1862م

يقال إن هيرمن بيكنل هو الإنكليزي الوحيد الذي لم يخفِ جنسيته. ذهب إلى مكة كمسلم بصورة علنية، ومكنته معرفته بالعادات والديانة الإسلامية من المرور من دون أي ملاحظة بين الحشود من جميع الأمم.

ولد هذا المؤلّف والمستشرق والرحالة في عام 1830. درس في باريس وجامعة هانوفر ومستشفى القديس بارتولوميو، أصبح جراحاً في الجيش واستكشف أجزاء من يافا والتيبت والهملايا. سافر في بلاد فارس وترجم ديوان الشاعر الفارسي حافظ (Hafiz)، وشارك في حملة إلى مناطق القطب الشمالي، وجبال الأنديز. كان موته مبكراً في عام 1875، حيث مات من المعاناة وتقلبات المناخ ودرجات الحرارة، ومن حادثة أثناء صعود جبال ماترهورن (جبال على الحدود بين سويسرا وإيطاليا).

قضى بينكل الأشهر الأولى من عام 1862 في القاهرة، وفي يوم

22 مايو/أيار صعد في السويس باخرة تحمل السجادة المقدسة (الكسوة). وفي يوم 25 ارتدى الإحرام. أنقص قدر معين من المرح وقار مجرى الأحداث: الحجاج يركضون ويصرخون بالصلوات واحدهم في أذن الآخر. وفي اليوم التالي ـ في جدّة ـ أصابه بالصدمة الكبيرة جدب الجزيرة العربية الكبير، بكثبانها الرملية وتلالها الصخرية. كان بريق الماء الشديد في الميناء يلون أشرعة قوارب الصيد الصغيرة التي كانت تنطلق هنا وهناك، باللون الزمردي الأخضر.

أوصلته رحلة العشرين ساعة إلى مكة. وذهب مباشرةً إلى المسجد «مربّع واسع غير مسقوف» في وسطه انتصبت الكعبة وهي «مبنى مكعب من الحجارة الضخمة.» التي كان ظلها الكئيب على تناقض مع جدران وجروف المدينة التي أنارتها أشعة الشمس. تقدّم وقبل الحجر الأسود وقام بالشعائر الأولى للحج.

كان الجدار المحيط والمصطبة على المنحدر في عرفات تعطيه مظهراً متكلفاً. كانت خيام الـ 80000 حاج تنتشر على مسافة ميلين أو ثلاثة من البلاد. وبعد رمي الحجارة وذبح الأضاحي، غادر بيكنل إلى جدّة، غير آسف أن يبتعد عن درجة الحرارة التي تبلغ 120 (50 مئوية تقريباً) في الظلّ، بعد أنْ طلب من بعض الأخوة الحجاج أن يتلو له صلاة على قبر محمّد في المدينة. وتنتهي حكايته الوقورة على نحو مناسب بتوصية لأبناء بلده الذين قد يأتون بعده أن يستخدموا دليلاً أهلاً للثقة ومؤدباً.

يكتب قائلاً: «لدى كتابة هذه الأسطر، أنا متحمس لتشجيع إنكليز آخرين، وخصوصاً من أتوا من الهند، أن يؤدوا الحج دون أن تؤخرهم

التقارير المبالغة بخصوص مخاطر هذا المشروع». ويضيف أنه من الضروري أن يكون المرء مسلماً، على الأقل من الخارج، وأن يكون له اسم عربي، وأن يكون على معرفة بالصلوات والعبارات وعادات المسلمين. يعترف أنَّ السلطات ستكون غير قادرة على حماية من يعلن أنه غير مؤمن، فاليهودي الذي رفض أن يردد المبادئ الإسلامية صلبته الجماهير فوراً.

مات برتون في أكتوبر/ تشرين الأوّل 1890 وفي عام 1893 ظهرت النسخة التذكارية «لحجّه» (كتاب رحلة في الجزيرة العربية). وقد أحدثت خلافاً في المجمع الأدبي بين الليدي برتون وشقيق هيرمن بيكنل حول مزايا الحج الخصوصية. في ملحق كتاب برتون، جرت طباعة رواية هيرمن بيكنل لرحلته دون ذكر اسمه. عزا أ. س. بيكنل هذا الحذف إلى الغيرة. ذكر أن تنكّر برتون عرّضه لمخاطر غير ضرورية وهو الذي سبّب مشاكله الخاصة. وظهر في نظر العالم بمظهر دون كيشوت يقاتل طواحين الهواء. وأضاف لقد حان الوقت الذي يجب فيه إعطاء القيمة الحقيقية لهذا العمل الباهر الذي اكتنفته مخاطر كبيرة. ردّت الليدي برتون أنَّ المرتدين «المسلمين» كان يُنظر إليهم شزراً في الحجاز، ويُرفض إعطاؤهم المعلومات، ويمنعون من الدخول إلى الأماكن المقدسة الداخلية. وأكدّت أن هيرمن بيكنل قد عبر عن الحسد من خبرة زوجها التي كانت أكبر من خبرته، وانتهت بالقول إن والده قد قطع عنه أي مدد مالي بسبب ارتداده عن دينه. شكرها أ. س. بيكنل كما ينبغي لهذه ـ الاعترافات الطيبة ـ عن والده وأخيه المتوفين.

لم تكن دقة الليدي برتون فوق الشبهات. ولا نجد تأكيداً لآرائها

حول الوضع المشكوك فيه للمرتدين» أي الذين أعلنوا أنّهم مسلمين» في أي مرجع آخر. وقد ذكرت مرة القول البارز إن الحجاج في مكة كانت لهم كلمات مرور خاصة لاكتشاف الدجالين. لكن لتبرير موقفها في الخلاف المذكور سابقاً، يجب أن نتذكر أن حكاية بيكنل عن حجّه أخذت شكل رسالة إلى صحيفة التايمز (Times)، وقعها باسمها العربي المزعوم ولم يذكر هذا الاسم إلا في نسخة برتون. أنهى الخلاف أخٌ لبيكنل كان سابقاً موظفاً، أنكر أن الحج كان يتطلب أي ثقة طالما أنه ذهب كمسلم. وصفه بالكاثوليكي في الغرب وبالمسلم في الشرق. وبالرغم من أنه كان رجلاً ذا شخصية قوية وذكاء كبير، فقد كانت تنقصه المبادئ الثابتة، وكان ذا طبيعة عاطفية تجريبية. وأخيراً تصريحات الليدي برتون أن مركز بيكنل المالي في وصية والده قد تؤكد صحة ما قاله.

يهون فراير كين

John Fryer Kean

(حاج محمّد أمين)

1295هـ ـ 1878م

أوّل الحجاج الأوروبيين الأحياء هو كين. ولد في ويتبي (Whitby) في 1854، ابن الكاهن ويليم كين الذي كان في أحد الأوقات الكاهن الرئيس في كاتدرائية كالكوتا. يعود تاريخ رحلاته إلى عمر الثانية عشرة عندما هرب إلى البحر. أمضى سبع سنوات بين المسلمين ما أهّله للحج. والملاحظة الشخصية في المجلدات التي جسّد فيها خبراته تجعل من قراءتها متعة.

لدى وصوله إلى جدّة، أصيب بالصدمة فوراً لبؤس وسذاجة الحجاج. إضافة إلى الرسوم الباهظة على أمتعتهم كانوا يدفعون روبية عن كلّ رأس قبل أن ينزلوا إلى البر من دون أي سبب ظاهر. أصابه الحظ عندما استطاع الالتحاق بحاشية أمير هندي يقصد المدن المقدسة، وبذلك تذللت أمامه كلّ المصاعب الصغيرة.

ارتدى الإحرام ووجد نفسه واقعياً ـ واحداً بين الجموع ـ يخرج

من بوابة جدّة الشرقية بين حارسين تركيين. كان الأمير قد استأجر البدو والجمال، وبعد أن اشترك في محفة مع خادم زميل، وجد نفسه يسير ببطء فوق السهل الرملي. وبالرغم من كونه كان بحاراً قديماً فقد أصابته حركات سير الجمل العنيفة بالمرض. كانت المسافة إلى جدّة ثمانية وعشرين ميلاً، وهي مكان التوقف بين جدّة ومكة. وصلوا عند الفجر ولم تغادر القافلة من جديد حتّى الغروب. ولم يستطيعوا النوم إلا قليلاً، بسبب ترتيل الحجاج غير المتناغم وغير المنقطع. كانت رحلة الليلة الثانية أكثر خشونة وصعوبة. صعدت الجمال مرتفعاً أكثر انحداراً ومرت عبر شعاب صخرية، حيث كانت التأوهات وصرخات الحجاج تتردد أصداؤها وتؤثر تأثيراً سيئاً. وفي فجر اليوم التالي وصلوا مكة. ترجّل الحجاج ومشوا عبر الشوارع التي كانت عريضة في البداية ثمّ أصبحت أضيق وأكثر وسخاً كلّما نزلوا على التلة إلى فناء المسجد المقدس المسّور.

كان البيت الذي أُعد للأمير واحداً من تلك المنازل التي بنيت في الرواق المقنطر الخارجي. كان فيه ثلاث كوى لنوافذ تطل على رواق المسجد والكعبة. يمكننا تصوّر شعور كين «كبريطاني» داخل الأحياء القريبة جداً من «محور الكون». لكن لم يكن هناك سوى القليل من الوقت للتأمل. كان من الضروري القيام بالطواف والسعي والشرب من ماء زمزم. صدمه تنوع الأعراق وشبَّه المرور حول الكعبة بالمسير في أرجاء متحف الشمع لمدام توسو (هو المعروف بمتحف الشمع في لندن).

أنكر كين نكراناً قاطعاً القول إن التجارة والربح لعبا في الحج دوراً أكبر من دور الدين. وأكّد أنَّ أولئك الذين أخذوا على عاتقهم

القيام بالرحلة المرهقة فعلوا ذلك من أجل خلاص نفوسهم، وبالتالي كان الحجاج هم المجموعة المتعصبة. في البدء شعر بتأنيب الضمير حول موضوع دجله وخداعه، ولكنه مثّل الكذبة بطريقة جيدة بحيث صدقها بنفسه. وأصبح وخز الضمير أمراً عادياً كأي انتهاك لقاعدة عامة بسيطة مثل: «ابتعد عن العشب» في الحديقة العامة. بدا له حضور الخدمة الإلهية في كنيسة معارضة منذ بضع سنوات أكثر شناعة بكثير. أقرَّ أنَّ الرحلة الحالية كانت شيئاً قاسياً ومجرداً من المبادئ الأخلاقية، لكن لم يعدّ هناك مجال للتراجع. قد تكون مكة ملأى «بالمراقبين الفضوليين والجواسيس الطوعيين»، لكنه كان متقناً «الألف إشارة صغيرة وعبارة غير مباشرة من إشارات الماسونيين المسلمين». كان يعلن لمعارفه أنه من «بلد يدعى الشمال North»، لكن واحدة من الفرص الكثيرة التي توجب عليه فيها أن يكون صريحاً، اعترف أنه مهتد إلى الدين الجديد. ولم يجلب عليه هذا سوى المديح.

بعد ستة أسابيع شعر بالراحة كما لو أنه كان مسلماً طيلة حياته. كانت له عدة خصومات صغيرة وبعض الشعور بالغيرة من رفاقه من أهل بيت الأمير، واكتسب عادة تناول الطعام معهم من صحن واحد. وجد أنَّ الأرز، وهو المادة الرئيسة في الوجبات، غير كافٍ، وغالباً ما كان يشتري من جنود أتراك بقايا حصصهم الغذائية. وفي الأسواق لم تثر بشرته الشقراء الاستغراب بين «الحشود متعددي الأجناس» وكما لم يثر عدم إتقانه اللغة العربية استغراب الجنسيات المختلفة. كان تدفق الحجاج يزداد يومياً وكان يسره أن يراقب صلاة المساء يديرها الإمام عند الغسق. يكتب في قطعة بليغة: «لقد كان مشهداً رائعاً أن ترى أولئك الآلاف من الرجال ذوي اللحى والعمائم الخشنين ذوي الخبرة يقفون،

دائرة تتسع بعد دائرة، حول كعبتهم المقدسة. غالباً ما كنت أقف في نافذتي مستغرقاً بالمنظر الذي أمامي. كلّ ثوب ساطع اللون أو عمامة براقة كانت إسهاماً في امتداد اللون الممتزج الذي لم تستطع العين استيعابه، وكل موجة من سجود تنتشر في المكان المزخرف بألوان قوس قزح، كلّ تلك كانت تشكل ثورة لونية كالهالة». كانت الكعبة «بناءً مستطيلاً بسيطاً غير مزخرف مدبب الزوايا من حجارة ضخمة». أخذ كين مقاييسه بوسيلة بسيطة: عصا من خيزران طولها ياردة واحدة. «لم يكن يرتاب أحد بهذا المتعبد المتحمس الذي يزحف على يديه وركبتيه في الليل في أرجاء الكعبة المقدسة وكان متظاهراً بالصلاة يتمتم عدد المرات التي يحرك فيها عصاه». أصبح مقتنعاً أنَّ الحجر الأسود كان قطعة من السبج (الزجاج البركاني الأسود) خصوصاً عندما سمع الاعتقاد بأنه يطفو في الماء. كانت الحكاية الأكثر شعبية قد عرّفته بأنه الملاك المكلف بالعناية بآدم وحواء في جنة عدن، تحوّل إلى حجر للسماح للحية بتضليلهما. كان هناك 2860 مصباحاً في المسجد تضاء بعد الغروب، وإضافة إليها، كانت مجموعات كثيرة من الحجاج يجلسون حول المصابيح الملونة الخاصة.

ذات مرة تسلق تلة كي يتمكن من إلقاء نظرة عامة وشاملة على مكة. كان الوادي بكامله «مكتظاً وممتلئاً بالبنايات من جميع الأشكال والأحجام، لكن من غير نظام، تتسلق عالياً على الجانب المنحدر من التلال المحيطة، وهنا وهناك بيت بعيد على قمة صخرة، يبدو كأنه يتقدم منتظراً فرصته كي ينضم إلى هذه الفوضى تحت كتلة رمادية غريبة ذات سطوح منبسطة». «كانت بيوت كثيرة ذات ارتفاع كبير، ضخمة وتشبه المصانع، كثيرة النوافذ، ونادراً ما كانت البيوت المتجاورة تتجه

نحو جهة واحدة أو بارتفاع واحد. لم يكن هناك شيء مشابه لصف أو شارع يمكن أن يحرر من مثل هذه الفوضى في البناء، مهما امتد الخيال». مع هذه الحشود القاتمة اللون الزاحفة في أسراب في الطرقات والشوارع المعتمة كانت تشبه كثيب نمل هائل الحجم، «إذا كان بالإمكان إعطاء هذا الاسم لهذه التعقيدات الملتوية».

حدث تغيير في أهل البيت الذي كان كين فرداً منهم. فقد غادر الأمير في رحلة حج إلى أورشليم القدس. ترك مع أفراد حاشيته الذين لم يذهبوا معه ما يكفي من المال لمصاريفهم حتّى عودته. وبعد أنْ احتفلوا بالحادث بقدر كبير من التنظيف لشقته، بدأوا يمتعون أنفسهم كما يطيب لهم. كان كين قد تأقلم مع جو مكة، وشعر الآن وكأنه فرد من البيت، إنه شخص ذو أهمية كبيرة: اختار ثياباً فخمة وارتدى سترات وعمائم متألقة. وفجأة اهتزت ثقته بنفسه. كان يسير في ضواحي المدينة ومر بجانب كلية كان فيها طلاب يلعبون، عندما صاح طفل هندي صغير «آه انظروا إلى هذا المسيحي!». إن ما أوحى له بهذه الفكرة يبقى لغزاً دوماً. جاهز الطلاب الآخرون بهذه الصيحة. وتقدّم رجل عربي عدائي وطلب منه الجهر بالإيمان. كان كين غير مسلم بما يكفي بحيث أمسك بالرجل من كتفيه وأداره ووجه إليه رفسة قوية، سببت صرخة: «نعم، مسيحي!» وفي اللحظة التالية انطلق حجر بجانب أذنه وأصابه حجر آخر على رأسه بقوة تكفي لأن تكسر جمجمته لولا أن أنقذته عمامته السميكة. تحلّق الناس حوله، ورميت الحجارة بسرعة أكبر. أصيب في ركبته، وعلى مستدق ظهره وعلى يديه اللتين حمى بهما وجهه. كان الملجأ الوحيد الهروب. كان هناك مركز حراسة تركي قريب، ركض إليه للاحتماء. لكن حشداً من العرب والزنوج اجتمعوا

في الخارج، وأصبحت القضية خطرة. وجه إليه الجنود نظرات غاضبة، وخاطبه ضابط ـ كان قد استدعي فوراً ـ باللغة الفرنسية. لكن سرعة بديهة كين لم تفارقه طويلاً. أجاب: «لا أتكلّم التركية». وصرح بالإيمان واستعار عصا واندفع نحو الجمهور وهو يطلق سيلاً من السباب. حولت مقدرته على السباب باللغة العربية الميزان لصالحه. ساعد الجنود على تفريق الحشد ودلّوه كيف يعود إلى البيت من طريق خلفية دون أي تحرش.

بعد هذه التجربة المزعجة، لازم كين غرفته لثلاثة أسابيع. كان قد أمّن لنفسه غرفة أبعادها ثماني أقدام بالطول وأربع أقدام للعرض، وبقي هناك بعد أنْ قال لمرافقيه إنه مريض لكنه في الواقع كان تحت تأثير الأفيون. كان يخشى أن تصل هذه القضية إلى مسامع المسؤولين، وكان يعلم أنه إذا جرت تحقيقات جادة، فإنه لن يكون قادراً على إعطاء تفسير مقنع لما حدث. وعند عودة الأمير، انقطع عن المخدر ووجد أن أعصابه قد تأثرت كثيراً. لقد أذهله دخول غريب وكرِهَ أن يلغيه أي شخص، لكن وجود الأمير كان حماية له.

كان هناك الآن حوالي 20000 حاج مجتمعين في مكة. كان هذا العدد كبيراً على نحو غير عادي لوقوع خطبة عرفات في يوم جمعة: لذلك كانت تدعى الحج الأكبر. من بين جميع الأعراق كان كين يعتبر الأتراك أعلى قيمة من أبناء دينه الشرقيين كما كان الأوروبيون الآخرون بالنسبة له. لم يرَ أبداً جندياً ببذلته الأوروبية وتجهيزاته الحربية وذقنه الحليقة من دون أن يكون لديه دافع لمصافحته باليد. وذات مرة خاطب حارساً أحمر الشعر أزرق العينين باللغة الإنكليزية، لكنه لحسن الحظ

لم يتلقَّ إلا نظرة فارغة جواباً على كلامه. كان الأفغان والفرس موضع شبهة: الأفغان للاشتباه بميلهم للقتل والسرقة، والآخرون لإيمانهم غير المستقيم كالعادة. كان الملاويون «اسكتلنديو الشرق». لم يبدؤوا قط رحلة حج من دون موارد مالية مناسبة. لذلك لم يتسوّلوا أبداً. كان العرب من شمال أفريقيا ذوي رائحة كريهة ومشاجرين ومهملين للممارسات الدينية وخصوصاً الوضوء. كان شاحذو السيوف السوريون يكدحون عبر الصحراء قادمين من دمشق، يحملون أدوات شحذ السيوف الضخمة على ظهورهم. وكان التتار والبخاريون يأتون من أواسط آسيا سيراً على الأقدام في رحلة تدوم خمسة أو ستة أشهر. وكان الدراويش ذوو الأشكال المتوحشة يدفعون أمامك نصف ثمرة قرع للتسوّل، ولم يرفض أحد إيداع الصدقات فيها سوى المسلمين السيئين. كان هؤلاء هُجناء «مصابين بالجرب».

في يوم الخميس 16 ديسمبر/ كانون الأوّل، بدأ المدّ الإنساني يتجه نحو منى. أمضى كين ومرافقوه الليل هناك، يراقبون من نوافذهم مواكب الشريف والباشا. كان الباشا راكباً في مركبة ذات أربع عجلات تجرها أحصنة كستنائية اللون كالتي تظهر في حديقة هايد بارك (في لندن). كان يرتدي بذلة من قماش أسود، وكان يبدو شخصاً غريباً في وضعيته العربية. وفي صباح اليوم التالي استفاق كين على منظر تصالح عام. كانت هناك معانقات وتسامح ودموع. يكتب بطريقته خفيفة الظلّ: «اعتمدت في البدء على خيالي من أجل بعض الأشياء، لكن مرافقيّ فوراً ذكروني بمرات كثيرة كنت قد أسأت إليهم فيها من دون أن أدري أو غير ذلك. لكنهم بدوا مخلصين واعترفوا بذلك بأنفسهم. اكتشفت أين ذهبت هذه من الأشياء الصغيرة التي فقدتها من رزمتي. كان من بينها

سكين جيب وزوج آخر من الجوارب. طبعاً أعطيت وغفرت بأفضل لطف ممكن». انطلقوا من منى في النصف الثاني من الرحلة. أصبح الوادي أكثر عرضاً بين التلال الصخرية ما قلل من ضغط الحجاج. كانت كثير من الحيوانات الميتة متناثرة على الطريق، من بينها أحد الأحصنة الكستنائية اللون كان يجر مركبة الباشا. عن المنظر في عرفات يكتب كين: «لن أكون مندهشاً إذا تذكرت هذا المنظر وأنا على فراش الموت». عندما تسلق التلة، كان كمن يقف على خشبة مسرح كبير بينما أميال من الجماهير تمتد أمامه. كانت سفوح عرفات مكسوة بالناس بكثافة، ومن هناك امتدوا على مسافة ميل ونصف إلى الجنوب، ونصف ميل عرضاً، «خضم متموج من الرؤوس السوداء والأجسام البيضاء». كانت البلدان التي جاؤوا منها والهدف الذي جاؤوا من أجله، تملؤهم بالخشية. «هل بالإمكان أن يكون كلّ هذا دون جدوى، وكل هذا الإيمان عبثاً؟ إن كان الأمر كذلك، فإنه كاف كي يجعل الإنسان يفقد إيمانه بكلّ شيء من هذا النوع».

كانت حماسة الحضور أثناء الخطبة، والتلويح بالإحرامات التي ذكرها بوركهارت وبرتون، والعواطف الجياشة التي يبديها الأفراد، منظراً مخيفاً له، بل رهيباً تقريباً، وهو المراقب غير المشبوب العاطفة. كان يشعر كأنه الإنسان العاقل الوحيد بين 200,000 إنسان؛ ومع ذلك كان يحاكي في غبطته أفضلهم. وعندما انفضّ الاجتماع ـ بالرغم من أنه لم يرَ أي حادثة ـ كان أكثر من المحتمل أنَّ هذه الأحداث كانت نتيجة لإطلاق البنادق المشوش وهبوط أعمدة مشاعل بارتفاع اثني عشر قدماً على الحشود المكتظة. وسيده الأمير، «استهلك خمسين جولة من الخرطوش، نثرها من دون تحيز على السهل المكتظ بالناس».

بعد ليلة قضوها في مزدلفة، انطلق كين مباشرةً إلى مكة. كانت الشوارع مهجورة والدكاكين مغلقة. كان بضعة متسولين يستلقون قرب المسجد، كان بعضهم في آخر مراحل قوتهم والبعض الآخر موتى وقد التهمت الكلاب نصف أجسامهم. بعد القيام بالطواف والسعي والتجول في الطرقات والممرات الساكنة، عاد كين إلى منى كي يرجم الشيطان ويذبح خروفاً كأضحية. جرى إلقاء حوالي ثلاثة أطنان من حصى رصف الطرقات على المسلات الحجرية. لم تكن هناك حاجة إلى لحوم الجزارين في اليومين التاليين. وكانت رؤية صقر متخم لا يكاد يستطيع الخروج عن الطريق منظراً شائعاً.

بعد عودة كين من منى دخل الكعبة. انتظر ساعتين كي يشقّ طريقه صاعداً الدرجات، لكن الحرارة في الداخل كانت شديدة والجو لا يطاق فاتّخذ طريقه إلى الخارج من جديد كمن يجاهد كي يخرج إلى السطح بعد غوص خطير في الماء.

كانت مكة لا تزال تخبئ المفاجئات له. ففي أحد الأيام، بينما كان في طريق ضيقة، رأى منظراً كاد يوقعه من فوق رأس حماره. كان لوحاً أسود كبيراً مكتوباً عليه باللون الأصفر «أماكن إقامة». تحرى الأمر واكتشف أن مالكه كان مالاوياً من رأس الرجاء الصالح كان قد تعلم الإنكليزية في المدرسة. فوجئ الرجل عندما خاطبه أحد بلغته، وحذر كين أن رجالاً إنكليزاً تحوّلوا إلى الديانة الإسلامية ثمّ كتبوا كتباً حول ذلك؛ هناك الآن ثلاثة منهم، وقد طوقت حلقات حديدية أعناقهم وقيدوا بالسلاسل بين التلال. كان تعليق كين: «أنا لم أخبره أنّني أظن أن ذلك كذب». لكنه لم يستسغ طريقة هذا الرجل فأنكر جنسيته. قضيا

الصباح معاً، لكن هذا المالاوي كان يعرف الكثير مما جعله رفيقاً ساراً. لكي يتخلص كين منه لجأ إلى وسيلة التسوّل المجدية. بدأ بالتفاوض من أجل سلسلة ساعته، وأبدى إعجابه بخواتمه وكشف عن فقره. تذكر المالاوي فجأة موعد عمل!

كانت أكثر مغامرات كين إثارةً للدهشة اكتشاف امرأة إنكليزية تقيم في مكة. كانت الترجمة الحرفية لاسمها: «السيدة زهرة». لكن حلاقاً كان معتاداً على التحدّث إليه أخبره عن وجودها ونظم لهما لقاء في بيت صهره. كانت فكرة وجود إحدى مواطنات بلاده مقبورة في الحياة في مكة صدمة غير سارة لرجل في مثل موقع كين. كان نفسه راضياً طالما أن أشياء جديدة تحدث، لكن اثني عشر شهراً قد تقتله. عانى شيئاً من الصعوبة في الوصول إلى مكة: لكن كانت هناك صعوبة أكبر في محاولة مغادرتها. كانت مقابلته الأولى مع السيدة زهرة مؤلمة نوعاً ما، كانت محادثتهما تتسم بالحذر، لكنّها كانت تبكي من خلف حجابها. كان قريب الحلاق الغني رجلاً عجوزاً أنيساً ذا وجه بشوش، لا يوحي بسوء أعماله في شبابه. لكنه كان ثائراً هندياً بارزاً في لاكناو Lucknow وكان منفياً من بلاده. عامَلَ كين معاملة طيبة، ودعاه إلى العشاء وغادره بعد أنْ أعطاه دولاراً إكرامية. حدث اللقاء الثاني بين كين والسيدة زهرة في ظروف أكثر ملاءمة: «يا لهذا الحديث الرائع الذي جرى بيننا! كم تركنا العنان للغتنا الإنكليزية! كانت أحياناً تضحك بسرور وأحياناً أخرى تبكي». وكانت كلماتها الأخيرة: «لا أستطيع أن أفهم من أنت يا بني!» مضى وقت طويل دون أن يلتقيا للمرة الثالثة. لكن السيدة زهرة استطاعت بعد ذلك أن تنزع الحجاب. كانت في حوالي الأربعين من العمر، وكان قد مضى عليها عشرون سنة بين المسلمين. كان مظهرها

يدلّ على أنها سيدة لحقها الهوان. لقد أخذت سجينة في حصار لاكناو وتزوجت ضدّ إرادتها من ثائر بارز. وهذا الرجل مثله مثل شقيق الحلاق وأولئك الذين كانت الحكومة الإنكليزية تطلب رؤوسهم لقاء ثمن، وجدوا ملجأ لهم في مكة. مات منذ بضع سنوات وكانت تكسب عيشها غير الثابت من تطريز الطاقيات. كان اسمها ماسينتوش، وكان والدها طبيباً وكانت قد أمضت قسطاً من شبابها في ديفون شاير. لم يحصل كين على هذه المعلومات عنها من دون صعوبة. كان يبدو أنَّ هذه المرأة المسكينة خائفة ومذعورة، وكانت التلميحات إلى حياتها السابقة تؤلمها. لكن حديثها كان حيوياً وساراً، ونادراً ما كانت الدموع تفارق عينيها، حتّى عندما كانت تستقبل كلماته الساخرة بابتسامة حزينة متسامحة. كان أعز الأشياء لديها قطعة من تقويم إنكليزي قديم. أخبرت كين ـ من بين قصص عديدة أخرى ـ عن شاب فرنسي تحوّل إلى الدين الإسلامي عن قناعة. كان قد عاش في القسطنطينية والقاهرة وفي أماكن أخرى في الشرق، لكن أصدقاءه لاحقوه وسعوا للإيقاع به. وأخيراً جاء إلى مكة، حيث أقام مدّة ثمانية عشر شهراً وفي أحيان كثيرة كان يرى السيدة زهرة. منذ وقت قصير مات فجأة. ارتابت في أنه قتل، «ولمحت على نحو غامض إلى فنجان قهوة». بعد هذه المقابلة كان كين يلتقي بالسيدة زهرة بصورة منتظمة في مناطق المسجد المعمدة، لكن كان هناك خطر في مثل ذلك المكان العام. في المناسبة ما قبل الأخيرة، سببت بعض المشاكل بسبب إظهارها بعض العواطف. أمسكت به من ذراعه قائلة: «آه يا بني! لو تعلم كم تعني لي رؤيتك!» و«لن أؤذيك ولن أسبب لك أي ضرر». إن مثل نصف هذا المشهد في لندن كان سيجلب

انتباه حشد معجب. أجبر كين على الهروب بسرعة، لأن عربياً ذا مظهر ماكر استعمل الكلمة المسيئة «مسيحي».

عند عودته إلى إنكلترا أعطى كين معلومات عن السيدة زهرة في مكتب الخارجية. فأُرسلت تعليمات فورية إلى القنصل البريطاني في جدّة كي يتحقق من هذا الأمر عن طريق عميل مسلم. تمّ تأكيد الحكاية، لكن السيدة زهرة كانت قد غادرت مكة إلى الهند. بعد ذلك اضطلع مكتب الهند بالتحريات. تمَّ اقتفاء أثر السيدة زهرة وتمت مقابلتها وأُعطيت فرصة العودة إلى إنكلترا. لكنّها رفضت، مما أثبت لمحاوريها عن قناعة أنها كانت تعيش في أمان وفي ظروف هانئة.

هناك مشهد آخر رآه كين قبل مغادرة مكة؛ فيضان فناء المسجد بالأمطار الغزيرة. كانت المياه على عمق ثلاث أقدام في الأروقة المقنطرة، وست أقدام في المستوى الأكثر انخفاضاً حول الكعبة. تلا الأمطارَ تفشي أمراض الكوليرا والتيفوس والجدري. كان الحجاج يموتون بالمئات. في يوم واحد فقط، سارت ثلاث وستون جنازة.

بدأ كين يشعر بالحنين إلى «المسيحية والنظافة»، لقد تعب من قناعة المسلم. اختاره الأمير ـ ضدّ إرادته ـ كي يرافقه إلى المدينة. سافرا في طريق السلطان، بمحاذاة الساحل، وهي مسافة تبلغ 500 ميل. كان عدد القافلة 900 حاج و730 جملاً، في صف يبلغ طوله ثلاثة أرباع الميل. كانت الطبقات الأكثر فقراً تسير على جانبي صف الحجاج، كانوا معدمين ويتسولون الطعام، أو الذين لم يكن لديهم أي مال لدفع مصاريف السفر. كانت الطريق تسير عبر ممرات جبلية صخرية أو على

سهول رملية. كان السير يتمّ ليلاً. كانت أنوار المشاعل تكشف عن الكثير من المناظر الشنيعة: جماجم جمال، أو جثث تائهين من قوافل سابقة قطع البدو رؤوسهم. وعندما وصلوا إلى مكان التوقف في رابخ (Rabigh)، كان اثنان وخمسون حاجاً وتسعة جمال قد سقطوا على جانب الطريق.

كان في رابخ حامية تركية، وتحدّث عدة جنود إلى كين في البازارات. ولما كان معظم أفراد القافلة من الهنود، كانت بشرته الفاتحة اللون لافتة للنظر. سأله ضابط إن كان مالاوياً؟ فأجاب بالإيجاب.

وفي مرحلة أخرى أبدى كين احتراساً كبيراً جداً؛ حبّه لليخنة الإيرلندية. كانت اليخنة طبقاً عَرَضياً وغير شائع ولم يكن يشأ لفت الانتباه بتفضيله لهذا الصنف من الطعام. وتصادف أن قُدّم هذا الطبق كوجبة أخيرة في رابخ، وتأخر كين في الوصول قصداً فضمن لنفسه حصة كبيرة وانتحى جانباً في بقعة منعزلة كي يستمتع بتناولها. لكنه قوطع على نحو وقح. كان سائق جمل بدوي قد أجرى عملية جراحية تثير القرف لحيوانه. مسح يديه بشعره ومشى بسرعة و«وضع يده المتسخة» في الصحن. كان من عادة كين أن يتحمل كثيراً، ففي مكة اعتاد أن يرى يداً سوداء «تنبش بمرح في طعامه»، لكنه هذه المرة لم يتمكن من الاحتمال. دفع باليخنة المحرقة ـ الصحن وما فيه ـ بقوة في وجه البدوي فرماه أرضاً. دفع كين ثمناً باهظاً لثورته.

بينما كان منهمكاً في تنظيف الصحون بالرمل، شعر بألم مفاجئ في فخذه اليمنى وعلم أنه قد طُعن بحربة. حاول أن يوقف تدفق الدم دون جدوى. تجمع الأصدقاء حوله، مزقوا كلّ ثيابه وربطوه بشدة حول

الجرح، لكن الدم استمرّ ينزف منه. ساءت حالته واستمرت في السوء. بدأ الناس يعودون لأعمالهم كما لو أنه لم يكن بالإمكان عمل أي شيء. رأى الاستعدادات لبدء سير القافلة. واجهته الفكرة المذهلة أنّهم قد يتركونه وحيداً يموت في الصحراء. وبصعوبة كبيرة كتب على قطعة ورق «إن حامل هذه الورقة سيعطي المزيد من المعلومات. ليس هناك أي لوم على أي شخص». أخذ من صديقه الذي بقي معه وعداً بتسليم هذه الرسالة إلى القنصل البريطاني في جدّة. أرهقه الجهد كثيراً. لم يعلم وقتها أنه قد حُفرت حفرة في الرمل بسرعة لدفن جثته التي كانت لا تزال تتنفس، لتجنب التأخير. كما أنه رأى نسرين أو ثلاثة تحوم في الجو فوقه. بعد أربع عشرة ساعة استيقظ، أو بالأحرى عاد إلى الحياة. كان في محفة على ظهر جمل، يُطعِمونه بطيخاً أحمر. كان أحد أفراد حاشية الأمير قد ركب إلى قرية مجاورة حيث كان يعيش حكيم (طبيب) مشهور. وضع هذا الرجل مادة قاطعة للنزف على الجرح على شكل سدادة من قطن خام أوقفت النزيف. ونصح كذلك بوجبة من البطيخ الأحمر. بعد ستة أيام استطاع كين من دخول المدينة سيراً على قدميه. كان أجر الحكيم جنيهاً واحداً، وهي عملة كانت دارجة في الحجاز دفعها الأمير بتذمر.

بعد هذه الرحلة، وعلى عكس جدب مكة المستمر، أعطت «المدينة المنورة» كين ورفاقه الحجاج انطباعاً أنها واحدة من أجمل المدن في العالم. كما رأى الحجاج المنهكون من السفر، «أسوارها العالية والبيضاء كالثلج ومآذنها العديدة المذّهبة، وشمس الصباح تسطع عليها، والحزام العريض الأخضر من الأرض المحروثة يحيط بها». كلّ ذلك جعلها تظهر «كجوهرة نظيفة لامعة يحيط بها قحط الصحراء

الواسع الكئيب، وكفسيفساء من حجر الأوبال الكريم واللؤلؤ موضوعة في حاشية لامعة من طلاء أخضر ساطع». كانت هناك مساكن مسوّرة، وماء جارٍ، وكل نعمة يشتهيها عقل أوروبي.

كان بانتظار حاشية الأمير شقة واسعة مضاءة جيداً. لكن كين كان لا يزال يعاني من إزعاجات جرحه. لم يكن قادراً على القيام إلا بزيارة واحدة إلى المسجد. وقد أثّرت فيه تأثيراً كبيراً كما أثّرت ببرتون. قارن مظهره و«وتوهجه المبهرج» ببساطة مكة المميزة. كنت قد ذكرت كيف أن السيد جوزيف بيتس قد سُرق في هذا المكان. واستمرت العادة عبر القرون: فقد قطعت المشابك الفضية من حزام الأمير بينما كان يصلي.

رأى كين كلّ ما استطاع رؤيته من القبر. نظر عبر الثقب إلى الجدار الحجري تتدلى منه خمس ستارات حمراء. ثمّ أدخل ذراعه ولوح بها «لكي يستطيع أن يحصل باللمس على المزيد من الميزات المقدسة». اعترف أنه متعب وخائب الأمل من منظر رأى فيه المئات من الناس وقد عرف أنّهم فقؤوا أعينهم. للمرة الأولى فارقته خفة دمه ومرحه. كان يرى نفسه جريحاً لا معين له في عش من المتعصبين.

أمضوا عشرة أيام في المدينة، وبعدها بدأت رحلة العودة عبر الأميال الأكثر كآبة من الأراضي الموحشة القاحلة الصخرية. كان أحد الأماكن الصحراوية التي عبروها خالياً من أي شكل من أشكال الحياة الحيوانية. لم يكن يمكن رؤية أي بجعة أو نسر. تركت أسراب الذباب القافلة، وإذا استخدمنا عبارة كين الفذة: كان يبدو أن هناك توقفاً في نشاط «مسافريهم الداخلين». كانت الحرارة الجافة شديدة حتّى أنَّ

اللحم على جثث الجمال المتساقطة أصبح قاسياً كالخشب. تمّ العثور على جثة رجل منتفخة وخفيفة جداً بحيث يمكن رفعها بيد واحدة: وعندما تمّ تحريكها أطلقت صوتاً حاداً وقرعاً كطبل من جلد.

عاد كين ودخل مكة بشعور الارتياح. استقبلته شوارعها المنحدرة الضيقة بجو عائلي. وبعد أربعة أيام، بدأت العودة إلى جدّة، حيث أمضى من الوقت أكثر ما يمكنه بين أوروبيين. شعر بالقرف من الحياة التي عاشها، وكره لقب «الحاج» التي كان رفاقه يخاطب أحدهم الآخر فيه بتباهٍ.

بينما كان في جدّة يلمّح كين إلى معاملة الحجاج على السفن الإنكليزية. يسرد بعض الأعمال الوحشية الفظيعة التي كان الضباط والبحارة يمارسونها على الرجال والنساء على حدّ سواء. سمع القصة التي كانت تحكى على سبيل النكتة، كيف أن اثني عشر حاجاً أُبعدوا من على ظهر السفينة وكذلك أمتعة ومؤن الباقين. وكيف أنَّ الربان رفض أي مساعدة إلى أن بدؤوا يقفزون إلى البحر وعندئذٍ أعطاهم بضعة دلاء من الفاصوليا.

لم ينزع كين عنه زيه الإسلامي حتّى وصل بومباي. بعد بضعة أيام التقي بالأمير يسير في الشارع، وتجاهله، إما بسبب عدم معرفته أو لأنه غير مرغوب فيه.

لا تتوقف مآثر كين عند الحج. فقد كان قاطع قصب في إحدى مزارع القصب الشمالية في كوينزلاند. في عام 1903 عمل مدّة 95 يوماً، (12 ساعة يومياً)، ليثبت أنَّ الرجل الأبيض يتمكن من القيام بمثل هذا العمل في مثل هذا المناخ.

حتّى في هذا العصر التجاري والعلمي هناك رجال أحياء ذوو خبرات غريبة. أجرؤ أن أقول إنَّ القليلين يستطيعون أن يقوموا بمثل تجربته، لكن لا يستطيع أحد أن يتفوق عليها وهو يسمع في مكة صرخة رهيبة تنعته «بالمسيحي».

كريستيان سنوك هورغرونييه

Christian Snouk Hurgronje

(عبد الغفار)

1302هـ ـ 1885م

القمم الأربع الباسقة في تاريخ استكشاف مكة هي باديا وبوركهارت وبرتون وهورغرونييه. كان باديا الرجل الأوّل ذا المكتسبات العلمية الذي وصل إلى المدينة المقدسة. والمعرفة التي حصل عليها جرى تصحيحها وتوسيعها من قبل بوركهارت. وشخصية برتون القوية ثبتت أنظار العالم. ودراسات هورغرونييه الاجتماعية أكملت أعمال بوركهارت.

ولد هورغرونييه في باربانت الشمالية، هولندا (North Barbant, Holland) يوم 8 فبراير/ شباط 1857. درس في بريدا ودخل كطالب لاهوت في ليدن عام 1874. بعد عام 1878 انصرف كليةً لدراسة اللغات السامية والأدب السامي. وعندما حصل على شهادته في عام 1880، كان موضوع أطروحته للحصول على شهادة دكتوراه هو: السبب الذي جعل محمّد يتبنّى عادة ما قبل الإسلام للحج. في 1880 ـ 1881 درس في ستراسبورغ، وفي السنوات التالية عُين أستاذاً محاضراً

حول المؤسسات الإسلامية في كلية ليدن لتدريب مسؤولي الهند الشرقية. في 1884 ـ 1885 حصل على إذن للسفر إلى الجزيرة العربية، وقضى ستة أشهر في مكة.

كان هدف هورغرونييه علمياً وموضوعياً. كان يرغب أن يدرس تأثير الإسلام على الحياة الاجتماعية والسياسية في مجتمع لم تمسسه التأثيرات الغربية. كان إدراك الخلل في طرق المستشرقين الأوروبيين الذين استقوا معرفتهم من الكتب بالكامل، هو الذي قاده إلى القيام بزيارة المركز الروحي للعالم الإسلامي. كان تأثير هذه الرحلة على دراساته اللاحقة ذا أهمية كبيرة أكثر من إنتاج ما هو الآن الكتاب النموذجي لمكة.

وصف أحد الناشرين هورغرونييه بأنه (animal disputax) من الدرجة الأعلى. صحيح أنه ساهم في كتابة العديد من المقالات المثيرة للجدل لمجلات دورية، لكن الموضوعية كانت الصفة المهيمنة في كتابه عن مكة. كتبه بالألمانيّة وفي مقدمته يتوقع انتقاداً من أبناء وطنه لأنه كتب بلغة أجنبية. يقول: «كتب آباؤنا باللغة اللاتينية لكي يخاطبوا جمهوراً أوسع»؛ وهذا كان هدفه. إنه لم يقترف الانتحار الأدبي من أجل متعته، لأنه كان مدركاً أنه لم تكن حيازة أسلوبين بالجودة نفسها في لغتين ممكنة أكثر من حيازة شخصيتين.

كان هورغرونييه دارساً متمكناً للغة العربية قبل انطلاقته نحو الشرق، لكنه لكي يتعلم اللهجة المحلية، أمضى خمسة أشهر في جدّة في منزل القنصل الهولندي. وفي مساء يوم 21 فبراير/ شباط 1885، غادر جدّة مع شخص من جاوا وأربعة جمال وسافروا على طريق جدّة

المعتادة. دخل مكة يوم 22 فبراير/ شباط وبقي هناك حتّى أغسطس/ آب بصفة دارس للقرآن. وليس من المعروف أنه كان غير مشبوه كأوروبي، أو تمّ قبوله كمرتد (أي مسيحي تحوّل إلى الإسلام) أو كمرتد محتمل يهدف من زيارته لمكة دراسة الشريعة المقدسة. إذا كان الهدف هو الأخير، كما كان يظن، فإن ذلك يدلّ على تطور في التسامح غير معروف عند الأجيال القديمة. على أي حال، كان هورغرونييه يستمتع بالأحاديث الحرة مع جيرانه، ولم يثر أي شكوك، حتّى حدثت حادثة عليّ أن أسردها بالكامل. يكتب قائلاً: «تعرفت على جمعية عصرية في مكة مباشرةً، وسمعت بأذني ما يتعلمه السكان الأجانب ويعلمونه، كيف يتكلمون في السياسة ويناقشون مواضيع المعرفة الإسلامية. درست المثالي والواقعي، والعقيدة الجريئة والنضال البسيط لأكثر المجتمعات اتّساعاً في العالم في المسجد والمجلس والمقهى وغرف المعيشة».

يصف السكان في مكة بالتركيبة المختلطة، لكنّها تحمل طابعاً عربياً غريباً. وهؤلاء السكان انحدروا من الشرفاء والأسياد ومن عائلات مكة الأخرى ومن المهاجرين الآخرين من الحجاز وقبيلة حرب. وهذه التشكيلة الكبيرة في الأنواع سببها التزاوج بين النساء والمحليات والأجانب. واللهجة عربية غربية بوضوح، لكن كلّ أمة تركت أثرها في الكلمات المستعارة. وزيّ مكة المميز معروف دوماً، بالرغم من الأزياء المستعارة من الهند.

هناك أسباب إضافية تساهم في نمو السكان: السكن قرب دارسين أو صوفيين مشهورين، لمغفرة الخطايا وللتكفير عن الثروات التي جرى الحصول عليها بطرق شريرة بتخصيص قسم كبير منها للاستعمال

الأخلاقي، ولقضاء السنوات الأخيرة من العمر على الأرض المقدسة. نادراً ما يقيم ساكنو قلب الجزيرة العربية في مكة: يخشون التأثير المفسد لمجتمعها. ولا يعبر تابعو القوات الأوروبية عن أنفسهم بهذه الطريقة. الحكم التركي مطلق، ولكن الجنسيات الأخرى لا تختلط. ووجود اللغات والعادات المتعددة يبرر وجود المطوعين أو المرشدين للغرباء. ومن بين «جيران بيت الله» المتعددين ـ كما يدعى أبناء مكة ـ يتفوق الآتون من شرق الهند بالتقوى وهم الأكثر تحرراً من الدوافع الدنيئة. ليس هناك متسول واحد بينهم.

يُغري احتمال وجود التجارة المجدية الكثيرين إلى القدوم إلى المدينة المقدسة. يبدو وجود وسائل الرفاهية المستوردة في مثل هذه البلاد القاحلة أمراً عجائبياً للحجاج الأكثر جهلاً. الصناعات التي تحتاج إلى مهارات بيد الأجانب، لذلك فإن تأنيب باديا لعدم وجود كفاءة ميكانيكية يبقى منطبقاً على السكان المحليين. يعتبر التحدّث عن نجار أو صانع غلايين من الخارج مديحاً من «بلاد الإسلام المتعلمة». كثير من المتسولين تبعوا الحرفيين والحجاج الأغنياء إلى مكة: لباسهم عباءة مرقعة من ألوان متعددة. يحملون في إحدى اليدين صحن التسوّل أو قشرة جوز هند، وباليد الأخرى عكازاً وآلة خشبية ذات حلقات معدنية، ترافق قعقعتها ابتهالاتهم الرتيبة. لكلّ متسول صيحته الخاصة، يتفاوت ذلك ما بين الذل والوقاحة. يدخل عدد معين منهم إلى بعض المصالح ذات الدخل القليل والمحتقرة، أو يقومون ببعض الأعمال التي أهملها العبيد. هناك عدة مستوطنات من البدو الفقراء في مكة، معروف أنّهم أمناء وأهل للثقة. من المحزن أن تفكّر أن أحد أبناء الصحراء يقوم بمهنة بواب. ويوافق آخرون على القيام بمهمة نقل

الجمال، أو بيع الغنم والحليب والزبدة والتمر الخ. . . التي يحصلون عليها من أقاربهم في الخيام السوداء (Black Tents). إلى جنوب المدينة هناك مستوطنة للزنوج والتكروريين (Takruri) الأحرار والعبيد المحرريين يعملون كحمالين وكناسين وخزافين وصانعي حصْر ومكانس من أوراق النخيل. وأخيراً من بين من يسكنون مكة لأسباب غير دينية، هناك نساء ـ من مصر على وجه الخصوص ـ يعرضن أنفسهم على رجال يرغبون في الزواج، وفي بعض الحالات يتعاقدون على الزواج بصفة مشبوهة.

بين الأحياء المختلفة في المدينة يحدث قتال بين الأحزاب. وهذا ينشأ من أتفه الأسباب مثل الاقتتال بين الأطفال، ويسبب نزاعات مستمرة. والأسلحة المستخدمة هي الحجارة والخناجر والهراوات. وكم يكون فخوراً ذلك الذي يستطيع أن يُظهر ندوباً على فروة رأسه القليلة الشعر. وهذه النزاعات تكون متعددة في أيام العيد، لأن الجماهير تتجمع في أماكن بعيدة. إذا قتل أحد الرجال فإن شيوخ الكبار يقررون مبلغ الدية. أقل رقم هو 800 دولار، يكون كلّ ساكن في حيّ القاتل مجبراً على المساهمة بدفعه. يقف الأجانب والرسميون والناس ذوو المراتب العليا على منأى من هذه المشاجرات.

والقتال بين الأحزاب في تناقص. ذات مرة تحسر رجل من أبناء مكة، تقي لكنه غير مثقف، على ازدياد سوء الأزمنة، في حضور هورغرونييه. ففي الأيام الغابرة ـ كما قال ـ لم يكن من الممكن أن يمرّ الاحتفال في نهاية شهر رمضان دون قتال، لكن الآن حلّ «الجلال المملّ» محل هذه الأعمال الحيوية.

المهنة الرئيسة لأبناء مكة من الشريف إلى أفقر متسول، هي استثمار الحجاج. وهكذا فإن «ضيوف» الله لا يرون إلا الجانب الأسوأ من «جيران» الله. فالناس الأتقياء ذوو المثل العليا يتحررون من مُثُلهم بالسعي العام الحثيث وراء الربح. يدافع هورغرونييه مبرراً بالقول إن أبناء مكة ليس لديهم أي مصدر للدخل، والمنافسة في ازدياد. أثناء الحج يصبح أهل مكة مثل التجار في البورصة، لكن في أوقات أخرى يكونون ودودين مضيافين لدرجة التبذير، أذكياء، ومولعين بالتعاملات الاجتماعية والتسلية والنزهات. بين العائلات الرفيعة هناك رجال من طبيعة نبيلة وتقوى حقيقية. وفي الحماسة الدينية لا يستطيعون مجاراة أهل المدينة. هناك قول مأثور يصف أهل المدينة (المنورة) ككل أنّهم يعملون من أجل العالم الآخر، وأهل جدّة لهذا العالم، وأهل مكة بين الاثنين.

الأماكن المقدسة في نظر بعض الناس ذوي الامتياز مصدر للربح الأكيد. فعائلة الشيبي (Sheba) حراس الكعبة بالوراثة. يبيعون الكسوة (الغطاء) ـ التي يُراد تجديدها ـ بأقسام صغيرة، ويتقاضون رسوماً من الحجاج الذين يدخلون الكعبة. تحدّد السلطات موعد افتتاحها، لكنهم يضعون استثناء لصالح الزائر المميز. «يجب أن تكون قد افتتحت الكعبة اليوم». هكذا يقول أبناء مكة، إذا ظهرت نظرة رضا على وجه أحد أفراد عائلة الشيبي.

كان العباسيون الذين ادّعى باديا الانحدار منهم، حراس بئر زمزم سابقاً. لكن سقوط حقّهم مع مرور الزمن جعل ماء زمزم اسمياً مجانياً للجميع، لكنه أدّى إلى تشكيل جمعية زمزم. والمكتب يجلب الكثير من الربح بحيثُ إنَّه يجب الحصول على أمر بالاستمرار فيه من الشريف.

يذهب كلّ حاج إلى بناية بئر زمزم بناءً على نصيحة مرشده، ويشتري مبرّد ماء بدولار. يكتبه موظف المكتب باسمه ويبقيه مملوءاً له. هناك بعض الحجاج الذين يصلهم ماء زمزم إلى أماكن إقامتهم كلّ صباح.

هناك مرشدون من أماكن مقدسة أخرى يتلون صلوات يكرّرها الزائر. وهناك الجمعية الأكثر أهمية من الجميع: جمعية المرشدين. لكن من تأجير أماكن الإقامة (ليس هناك فنادق) يصبح ابن مكة غنياً من الحج. وهذا العمل عام: إن من يعيشون في شقق يحشرون عائلتهم في الغرف الأصغر. ولقد ذكرت سابقاً أن صاحب أحد البيوت كسب المال في موسم الحج ما يكفي لدفع أجرة سنة.

عندما تشغل عائلة بيتاً، يستقبل ربّ البيت ضيوفه في القاعة الكبرى. ليس هناك من خطر من رؤية النساء على الطابق الأرضي. ويجب ألا يغامر الغريب في الصعود إلى الطابق العلوي دون أحد أفراد البيت. وعندما يؤجر البيت كطوابق، فإن الزائر للطوابق العليا يجب أن يعلن عن حضوره بالمناداة باسم الله وبذلك يحذر أي امرأة قد تكون في طريقه. والعادات تقضي بالمساعدة المشتركة بين العائلات التي تشغل البيت نفسه: فالغرف، والأثاث وحتّى الثياب، يمكن إعارتها. وهذا ما يفسر المثل القائل: «فتش عن الجار قبل الدار». السطح هو المكان الأكثر خصوصية في البيت، ويكون مفصولاً بحاجز لكلّ عائلة. تتمتع النساء في مكة بحريّة أكبر منها في معظم المدن الشرقية. فالزائر يمكن أن يتحدث مع زوجة مضيفه في الغرفة التالية والباب مفتوح جزئياً. وفي ظروف معينة، قد يسمح الرجل لزوجته بالتحادث مع أصدقائه: يتخذهم أقرباء لها. لذلك يكون الزواج مستحيلاً لو أن كلاً

منهما حرّ. والطلاق يسهل الحصول عليه. ومعظم نساء مكة متزوجات عشر أو عشرين مرة في حياتهن. والزواج عن حبّ نادرٌ بأي شكل من الأشكال. يسمح للبنات الاجتماع بالصبية حتّى سنّ الثامنة أو العاشرة عندما يحين ارتداء الحجاب. غالباً ما تحدث ارتباطات تنتهي بالزواج. وتعدد الزوجات من عادة الأغنياء فقط. وتفكك روابط الزواج علامة تكثر ملاحظتها في مجتمع مكة.

لدى هورغرونييه فكرة جيدة عن مواهب هذه النساء العقلية. فقد أقنعته عدة أمثلة أنه من الممكن الحصول على نتائج عظيمة بالتعليم. أصّر الرجال على أن مثل هذه الاستثناءات ظاهرة عجائبية، وأن التعليم النظامي قد يكون رمياً للدرر أمام الخنازير. نحن في الغرب الذين رأينا نشر راية الدفاع عن حقّ التصويت للمرأة، وقرأنا عن شكوى الرجال في الصحف اليومية عن رجال أقصتهم النساء عن سوق العمل، لا نستطيع إلا أن نتلقى إشارة معينةً من هذه الكلمات. ومع ذلك، غالباً ما يستشير الزوج من أهل مكة زوجته حول شؤونه، وله الثقة الكبيرة في خبرتها ومعرفتها في الطبيعة الإنسانية. والسورة الآتية من القرآن كانت معروفه بشكل عام بين نساء مكة: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾. يُستشهد بهذه السورة من أجل الرجل الذي يشكو من التبذير.

النوبات الهستيرية شائعة عند الجنس اللطيف، وهذه النوبات كانت توقفها النسوة العجائز، وكانت تعزى لمسّ من الشيطان وتعرف باسم الزار. كانت مناسبة طرد الأرواح مبرراً للتسلية الموسيقية وغالباً ما كانت الروح الشريرة تضع الحصول على قطعة مجوهرات أو ثوب جديد شرطاً أساسياً لشفاء المريض قبل مغادرتها. كان هناك صديق

لهورغرونييه ـ طبيب ـ ظهرت على زوجته أعراض نوبة من هذا النوع فعالجها بقسوة هي من صفات الزوج الأناني في أحد كتب بالزاك (الروائي الفرنسي). أمر بإحضار طبق الإحماء وسخّن المكواة وتمتم لنفسه أنَّ الشياطين قد خُلقت بالنار ويمكن طردها بالنار. وكانت الصعوبة تكمن في تعيين المكان الصحيح من الجلد، لكن يمكن حلّ هذه المشكلة بكيّ الجسم بكامله. شفيت المرأة المذعورة فوراً، ووعدت ألا تعود لها النوبات أبداً. أكمل الزوج انتصاره بمقابلة مع طاردة الأرواح المحترفة على الدرج، وهددها بالموت إن هي دخلت بيته ثانية. هذه حالة استثنائية، لكن الديانة التقليدية تنظر بعين الريبة إلى طقوس الزار لطرد الأرواح التي تتألف من رقصة وقرع طبول والتضحية بخروف.

تمتد الحرية القصوى للنساء في مكة حتّى للعبيد. يؤكّد هورغرونييه القول الغريب إنَّ الإماء يفُضّلن كزوجات على الحرائر. هناك أفضلية للحبشيات اللواتي يمتلكن الكثير من الصفات الجيدة، ويتواجدن بكثرة من اللون الأصفر الفاتح إلى البني الداكن. والشركسيات اللواتي جُلبت قليلات منهن من القسطنطينية وجرى بيعهن في أماكن غير الأسواق المكشوفة، بأسعار عالية، يتمتعن بقدر أقل من الاعتبار بسبب غرورهن الكبير. وأطفال الزوجة الأمَة مساوون لأطفال الحرائر ولا يمكن للغريب أن يرى فرقاً في معاملتهم. أولاد الأمهات الشركسيات الذين يصبحون المرافقين الشخصيين أو المفضلين عند رجال المراتب العليا، يُحررّون عندما يكبرون ويبدؤون العمل. والأهم من كلّ هذا، العبيد الأفارقة هم العمال. يأتي معظمهم من السودان ويكلفون بالأعمال الأكثر جهداً كالبناء والعمل في المقالع.. الخ. يعيشون بمعدل أربع

بنسات في اليوم، ويقضون عطلتهم الأسبوعية في قرع الطبول والرقص وهم متعصبون في ارتباطهم بالإسلام. وعندما يحررون يعملون كحمالي ماء أو في الأعمال غير النظامية، ولكنهم يفضلون البقاء في العبودية. والنساء الزنجيات يتمّ اختيارهن للطبخ والأعمال المنزلية بسبب قوتهن الفائقة. والعبيد العديدون في بيوت الأغنياء يكلفون بالأعمال الخفيفة. حتّى الرجل الذي يقوم بجميع الأعمال في المنزل لا يكلّف بأعمال كثيرة. وجميع العبيد يعاملون كأفراد من العائلة. والعبد الذي لا يرضى عن وضعه لا يدع ذلك سراً، وطلباته التي لا تتوقف في أن يرسلوه إلى السوق ويعرضوه للبيع تؤدي سريعاً إلى تلبية رغبته. وواجب احترام الكبار مفروض على الأطفال. سمع هورغرونييه عن ولد ضربه والده لتصرفه السيئ مع عبد. الرابطة العائلية تبقى بعد تحرير العبد، ويقدم له سيده القديم بيتاً. صحيح أن سوق النخاسة في مكة هو الأكبر في العالم، لكن هورغرونييه يوافق مع آراء كلّ من زاروا الحجاز ـ باستثناء باديا ـ أن قدر العبيد لطيف وأن المقاييس القمعية للسلطات الأوروبية قد أحدثت من الأذى أكثر مما أحدثت من النفع.

سار التعليم بخطوات ثابتة. قبل وصول هورغرونييه بوقت قصير أنشأت السلطات التركية مطبعة. كان يتمّ الحصول سابقاً على الكتب من مصر وكانت أعمال الكتّاب من مكة تباع هناك. وبالرغم من وجود عدة قاعات للمحاضرات، فالمسجد هو مبنى الجامعة الكبرى. بعد كلّ من الصلوات الخمس اليومية كانت المحاضرات تلقى في الأروقة المعمدة. وكانت المواد الدراسية هي القانون والنحو والمنطق واللاهوت العقائدي. كان للتاريخ والجغرافية الدنيوية أهمية صغيرة.

بالرغم من أنَّ العادة جرت أن يختار الابن مهنة أبيه، فإن الطفل

الذي تظهر عليه القدرة على التعلم يُسمح له أن يتبع ميوله. لكن هذه الميزة لا تتم بسهولة بسبب التكاليف. هناك التزام بإعالته لسنوات، وقد تكون دراسة علوم الدين مجلبة للشرف، لكن لا تجلب إلا القليل من الكسب. معظم الأولاد من الطبقة الوسطى يميلون أن يصبحوا مرشدين.

لدراسة الفقه الأولوية على غيرها من الدراسات. من المستحيل على ابن مكة أن يكرس وقتاً زائداً عن الحدّ للجانب الديني. فالحرفي لا يحتاج إلا إلى معرفة أساسيات العقيدة، لكن الدارس يجب أن يسلّح نفسه بالمنطق الجدلي والفلسفة لمصلحة المجتمع ضدّ الكفر والهرطقة اللذين انتشرا في السنوات الأخيرة. وهذا وحده لا يكفي للوصول إلى الإيمان الحقيقي، لأنه يجب الوصول إليه بالانتظام في الحياة الصوفية التي فُرضت عليها ممارسات دينية متعددة: كالصيام والصلوات وتركيز العقل على جوهر الدين المقدس. لكن المرحلة العليا يمكن اكتسابها تحت إشراف «مرشد» أو معلم متقدم. تختلف الأفكار الشعبية عن تلك التي يدرسها المتعلمون. حضر هورغرونييه إحدى المحاضرات التي أخبر فيها المفتي جمهور مستمعيه أنَّ الخمرة لم تكن دائماً ممنوعة من قبل الله، وأنه في الأيام التي سبقت إبطال الوحي، حتّى الناس المتدينون كان بإمكانهم شرب كأس منها بضمير مرتاح. سألَتْه مجموعة من الناس مذعورة: «هل كانت الديانة المسيحية شرعية؟» «و أليست الخمرة بطبيعتها من عمل الشيطان؟» شرح المفتي مبتسماً أنه يكفي أن يعتقدوا أنَّ الإسلام حقيقي وأن كلّ شيء سواه باطل.

هناك فن محترم جداً: وهو تلاوة القرآن. كان تأثيرها على الأذن غير الخبيرة مشابهاً الصراخ... اقتنع هورغرونييه أن تلاوة واحدة قد

تجعل الأوروبي يأخذ مثل هذا الانطباع، ولا يمكن فهم روح التناغم إلا بعد سماعها تكراراً. هناك قرّاء قرآن مشهورون، وتؤدى التلاوات أسبوعياً في أيام الخميس مساءً.

استطاع هروغرونييه ـ عن طريق صديقه الطبيب ـ أن يحصل على معلومات عن مهنة الطبّ. تتم دراستها مثل أي مهنة أخرى، يعطي أحد الأطباء تعليمات عملية إلى ابنه، أو ابن أخيه أو تلميذه. وقد يقوم الحلاق بالفصد أو يعالج بالحجامة، لكن عمله يعتبر دجلاً إن هو وصف أدوية للأمراض الداخلية. لكن ليس من الضروري للطبيب أن يشغل نفسه بالطبّ على نحو كلي. كان صديق هورغرونييه طبيباً ذا مركز محترم، وكذلك كان يصلّح الساعات والأسلحة النارية ويقطّر العطور ويطلي المجوهرات بالذهب، ويصنع الألعاب النارية، ويفهم كيف يصك العملة، وكان خبيراً في الكشف عن مناجم الذهب والفضة. ومن الجدير بالذكر أن أحد أصدقاء سيتزن كانت لديه مهارات متنوعة مشابهة. كان هذا الطبيب يملك آلة كهربائية صغيرة يدين لها بشهرته الطبّية العالية. ومع ذلك كان جاهلاً على نحو مدهش بالوظائف الفيزولوجية للأعضاء وبتأثير أدويته. كان داهية بما يكفي للتعلم من الأجانب، لكن في اهتماماته كان يشجع المعارضة العامة للطرق الأجنبية التي يستخدمها جراحو الجيش التركي.

قد تفسر المعرفة غير الكافية للعلم الصحيح الكثير من الخرافات مثل التمائم والتعاويذ. . . الخ. كان هناك إيمان بالتعاويذ التي تسبب المرض وسوء الحظ، وكان الكثير من وفيات الأطفال يحدث بسبب تبخير الأطفال لحمايتهم من العين الشريرة. أدخلت النسوة المالاويات

والجاويات والأفريقيات والهنديات والعبدات، كثيراً من هذه الخرافات، لكن الكثير منها، انحدر من الماضي ـ كما رأينا في عبادة الحجر من عصر ما قبل الإسلام، وطقوس الحجر الأسود، والنصب الثلاثة في وادي منى.

يخلص هورغرونييه للقول: «يجمع الإسلام ـ وهو الديانة الرسمية ـ ويوحّد جميع مكونات مجتمع مكة المتغير المنشأ والذي يتطور باستمرار. ومن الجهة الأخرى، يدمج هذا المجتمع نفسه في كلّ الأحكام المسبقة الآتية من جميع البلدان، في كمٍّ هائل من والخرافات».

وهورغرونييه هذا، مثله مثل أي زائر آخر إلى مكة، يمتدح بوركهارت. فقد درس كتابه دراسة دقيقة، ولم يكن ليستطيع كتابة كتابِهِ لولاه. أبرزَ التغيرات القليلة التي حدثت منذ زمن سويتزر، لكنهما كانا على خلاف في إحدى النقاط التي تستحق الذكر. ذكر بوركهارت أن أهل مكة نادراً ما كانوا يستخدمون عبارات السباب البذيئة، لكن هورغرونييه وجدهم على نحو مطرد بذيئي اللسان. حتّى الأطفال في سنّ السادسة كانوا يتلفظون بأقسى العبارات لدى أقل استفزاز. ويتفق كلا الكاتبين على الفسوق الوقح الذي ينتشر في الشوارع وحتّى المسجد.

كان هناك تغير آخر منذ أيام بوركهارت ذو صفة طبيعية. فالمنخفض الذي كان المسجد ينتصب فيه أصبح أكبر، أو بالأحرى رُفع المستوى الذي كان حوله بسبب حطام الصخور الذي كانت الأمطار السيلية تجرفه من الجبال.

وصلت دراسات هورغرونييه الاجتماعية والطبوغرافية إلى نهاية

مفاجئة. انخرط ـ وليس الذنبُ ذنبَه ـ في شبكة من المكائد التي أحاطت بحجر تيماء (Teima Stone) أو ستيلا (Stela) ولتفسير حدوث ذلك ـ والذي نتج عنه تهديد حياته بالخطر في مكة ـ يتوجب علي أن أسرد قصة ستيلا المشهورة.

في عام 1878 كلّفت وزارة التعليم تشارلز هوبر ـ الفرنسي الإلزاسي السيئ الحظ ـ باستكشاف نجد. وفي السنة التالية وصل إلى تيماء وكان أوّل من وقعت عيناه على حجر عليه كتابة، كان دوتي (Doughty) قد سمع به لكنه لم يره. كان ذلك الحجر يستخدم كي يغلق بئراً قديماً، لكن سطح الحجر كان تالفاً بحيث لم يستطع أن يفكّ إلا رموز بضعة أسطر. لكن لم يكن هناك أي شكّ حول قيمته. وفي العام 1883 عاد إلى تيماء مع يوليوس أوتينغ، وهو مستشرق من ستراسبورغ. كان من المعتقد أنّهما ليسا صديقين حميمين. لكنهما اشتريا الحجر معاً، والقسط الأكبر دفعه هوبر. يسجل هذا الحجر دخول ديانة جديدة في تيماء، ويمثل الإله واقفاً أمام الكاهن. وهو من بين أكثر ثلاثة أو أربعة نقوش سامية قيمة. أخذ هذان الرجلان طبعات للحجر، ثمّ أرسلوها إلى حائل مع انطباعاتهم الشخصية. ثمّ انفصلا عِند «العلا» (el - Ala). انطلق يوتينغ إلى أورشليم القدس، ووصلها بعد مناوشة مع البدو. عاد هوبر من جديد إلى حائل، حيث اغتاله مرشدوه. حكى خادمه محمّد قصة موته. كان من عادة هوبر أن يتحول عن الطريق الرئيسة مع مرشديه بغرض المشاهدة. عندما وصل محمّد إلى مكان التوقف المتفق عليه، شاهد سيده مستلقياً بحجمه الطبيعي تحت عباءة عربية، كما لو أنه نائم، لكنه كان ميتاً. لقد أُطلقت النار عليه وهو نائم. كانت السرقةُ الدافعَ للجريمة. تغلب القتلة على محمّد وسحبوه جانباً.

بقي الجثمان دون دفن عدة أيام. وأخيراً حفر بعض المارة قبراً له. أرسل هوبر نسخته من الحجر من جدّة إلى رنان (Renan) في باريس، لكن يوتينغ كان قد فعل الشيء نفسه لكن إلى نولدكه (Noldeke) في برلين، أرفقها برسالة يقول فيها إنه اكتشف الحجر وسيرسله إلى ألمانيا.

تصادف أن نائب القنصل الفرنسي في جدّة ـ فيليكس دولوستالو ـ كان في باريس، ومساعده الطالب المترجم في عدن. استغل منفي جزائري يسمّى سي عزيز ـ وكان يعيش في مكة وقتئذ ـ الفرصة كي يتبنى الموضوع. كان رجلاً داهية وكثير الشكوك، لكنه كان يتفوق على دولوستالو في الإدراك العلمي الجيد. عرض خدماته على القنصلية الهولندية التي كانت تمثل فرنسا في الآونة الأخيرة. لكن بعد ذلك بوقت قصير وصل دولوستالو إلى جدّة، وكلّفته الحكومة الفرنسية أن يضمن معاقبة قتلة هوبر، وأن يستعيد أمتعته وممتلكاته الشخصية بما في ذلك حجر تيماء. كان ملزماً كي يجري هذه المفاوضات سراً، لأن هوبر قد قام برحلته ضدّ رغبة الحكومة التركية. لم يكن هناك شخص يناسب المهمة أكثر من دولوستالو. كان تعوزه اللياقة، ولم يكن يتحدث التركية ولا العربية، وكان يجهل العادات الشرقية وليس له عذر في ذلك. تراسل مع والي الحجاز بعبارات فظة، لكنه اضطر إلى الاعتذار.

كانت أكثر أعمال دولوستالو ذكاءً قبوله عرض سي عزيز لتسليم ستيلا وأشياء هوبرت الخاصة في القنصلية الفرنسية. ومقابل هذا كان على سي عزيز بالطبع أن يتلقى نفقات سفره. وكان المبلغ الذي اشترطه 5000 فرنك، لكنه انتزع بصعوبة من نائب القنصل الفرنسي «البخيل». واضطر سي عزيز أن يلجأ للوسيلة الشرقية الشائعة بالقول إن شخصاً

آخر قد عرض ضعف المبلغ. وسيرشح قريباً اسم الشخص الذي ظنه مناسباً لهذا الخصوص.

كنا تحدثنا عن إقامة هورغرونييه في جدّة، قبل مغادرته مكة. عندها لم يشترك في قضية هوبر (Affaire Huber) سوى في ترجمة رسالة أو اثنتين للقنصلية الفرنسية. كتب أيضاً إلى صديقه القديم ـ البروفسور يوتينغ ـ كي يطمئنه عن أمتعته وعن وصوله المحتمل إلى جدّة. منذ تلك الساعة، ارتاب دولوستالو في اشتراكه في التآمر للتخطيط لإرسال حجر تيماء ستيلا إلى ألمانيا. لكن هورغرونييه احتج عبثاً. أكّد دولوستالو بصراحة فائقة عن رأيه أنه لم يكن هناك أي عاقل لديه أي وسواس في استملاك مكتشفات زميله: كان يعرف كلّ هؤلاء العقلاء وجميعهم كانوا متشابهين. . . الخ. وخشية أن تكون شكوك من هذا النوع تعرض سلامته للخطر في مكة، كتب هورغرونييه رسالة إلى نائب القنصل يؤكّد فيها إيمانه أنه لم يكن يرغب في أن يحوز على ملكية الحجر كما لم يكلفه أحد بفعل ذلك. استُقبلت الرسالة استقبالاً ودياً. بالمقابل وعد دولوستالو ألا يأتي على ذكر إقامته في المدينة المقدسة.

تعرف هورغرونييه على سي عزيز في مكة. كان سي عزيز على وشك المغادرة إلى حائل كي يواصل مهمته. وكان وقتها قد اشتكى إلى هورغرونييه عن «بخل» نائب القنصل الفرنسي واستعار منه 200 فرنك لنفقاته. دُفع هذا المبلغ لاحقاً ولم يلتقِ الرجلان بعد ذلك حتّى حزيران. وبحلول ذلك الوقت كان سي عزيز قد أنجز الغرض من رحلته وكان قد سلم أشياء هوبر. كان ابن رشيد ـ أمير حائل ـ قد احتفظ بأمانة بأشياء ضيوفه الأجانب سليمة أثناء غيابهم الطويل وسلمها إلى سي عزيز كممثل

للحكومة الفرنسية. أصغى هورغرونييه إلى حكاية صديقه وطمأنه كما كان قد فعل في أكثر من مناسبة من قبل، أن نفقاته ستدفع له من قبل السلطات المختصة. أُرسل حجر تيماء إلى باريس وهو الآن في متحف اللوفر.

هذا كان مدى علاقة هورغرونييه بحجر تيماء. لم يخطر له مباشرةً أنه منها نشأت الحلقة المميتة في مهنته والتي سأسردها الآن. في أغسطس/آب استدعي إلى القائم مقام (كان الوالي غائباً في الطائف)، وقرئ عليه أمر باللغة التركية كي يغادر مكة فوراً. أُعطيَ بضع ساعات ليحزم أمتعته. ثمّ رافقه جنديان إلى جدّة.

في جدّة اتّضح السبب. في يوم 5 يوليو/تموز، كانت قد ظهرت مقالة تحذيرية في مجلة «Temps» تصف مصير هوبر وتتهم هورغرونييه بمحاولة سرقة حجَر تيماء. كان دولوستالو قد قدم المعلومات، وجرت ترجمة المقالة إلى التركية والعربية.

ذكرت المقالة أن هوبر قد اكتشف حجر تيماء في موقع تيماء، مطموراً في جدران أحد المنازل. اشترى البيت واستخرج الحجر وعاد فباع البيت من جديد. وتلا ذلك حكاية رحلاته المتعددة، وانتهت بجريمة قتله، وبالأخبار التي وصلت إلى دولوستالو في باريس. قبل عودة دولوستالو إلى جدّة، كانت قصة ستيلا قد ترددت في الخارج، وصار يوتينغ يلاحقها من دمشق وكذلك فعل دارس آخر ـ الدكتور سنوك بيزيروز (كذا) ـ الذي كان في مكة باسم عبد الغفار. وعندما وصل دولوستالو إلى جدّة، كلف سي عزيز بالحصول على هذا الحجر. كانت المخاطر تحيط بالرحلة في كلّ خطوة. وصل حائل، لكن بعد انطلاقه نحو المدينة هجره العرب الذين كانوا يرافقونه. وفي المدينة تمّ البحث عنه وأسَرَته السلطات المحلية. ولم يطلق سراحه حتّى أعطى

تأكيداً أن أمتعته قد أرسلت إلى بغداد. بعد مغادرته المدينة تجنب ملاحقيه بالإسراع في رحلته، واتّخاذه مساراً نحو الجنوب. بهذه الطريقة تجنب الاغتيال. ساد اهتياج كبير في كلّ أنحاء البلاد.

يقول هورغرونييه عن هذه المقالة إن أكثر من نصفها غير صحيح. فروايتها الزائفة عن اكتشاف وشراء حجر تيماء، والوصف الاستثنائي لرحلة سي عزيز (تختلف عن حكايته الرزينة هو إلى هورغرونييه) يبرران مثل هذا الحكم. لكن سواء أكانت هذه الرواية زائفة أم لم تكن، وبالرغم من أن هورغرونييه كان قادراً أن يبرئ نفسه أمام السلطات التركية التي لا يلوم تصرفها، والتي ليس لديه أي شيء يقوله عن تهذيبها سوى المديح، فإنها جعلت إقامته الدائمة في مكة مستحيلة. كانت المقالة قد ذكرته بالاسم. وسينتشر حالاً في الخارج أنه لم يكن مسلماً مرتداً كرّس نفسه لدراسة الشريعة المقدسة، بل مسيحياً متنكراً، كان هدفه سرقة الآثار. ولا حاجة للحديث عن مصير الفرنجي الذي يتمّ اكتشافه في مكة.

حاول دولوستالو أن يبرئ ويبرر فعلته. أنكر أنَّ المقالة في صحيفة Temps كانت كلها بوحي منه. وعن طريق اقتباس خاطئ، استخدم عبارة في رسالته ضدّ هورغرونييه. كان هذا الأخير قد وعد ألا يشغل نفسه بحجر تيماء. كان استبدال كلمة = (لم يعدّ) بـ: (لا بالمرة) من قبل دولوستالو قد أعطى المعنى دلالة مختلفة. (فأصبحت ألا يشغل نفسه بعد الآن بدلاً من ألا يشغل نفسه أبداً). وأخيراً أورد دولوستالو شهادة سي عزيز أنَّ العرض المقابل بمبلغ 10000 فرنك مقابل هذا الحجر قد جاء من هورغرونييه. كان سي عزيز في الواقع قد استخدم اسم

هورغرونييه، ولم يظن أبداً أنَّ هذا التزوير سيؤذيه. وطبقاً للمقاييس العربية، كانت هذه الطريقة في رفع الأسعار مسموحة. والآن سعى هورغرونييه عبثاً أن ينتزع نفياً رسمياً. كان سي عزيز منفياً من الجزائر بأمر من الحكومة الفرنسية التي كان يتلقى منها معاشاً تقاعدياً. يدفعه نائب القنصل ولم يكن يجرؤ على المخاطرة بفقدانه. دافع عن نفسه بالقول: «منهم أتلقى رزقي، فكيف أستطيع أن أشهد بالحقّ أو بالباطل ضدّ قنصل الحكومة الفرنسية؟».

كان أقصى ما يستطيع فعله هو الوعد بأن يقول الحقيقة، إذا حانت له فرصة مقابلة الوالي وجهاً لوجه.

كانت العودة إلى مكة مستحيلة، لذلك أبحر هورغرونييه من جدّة. قُطعت عليه دراساته ولم يعدّ يستطيع الحضور أثناء الحج. أخذ معه هيكل هوبر العظمي، باستثناء عظام اليدين التي لم يتمّ العثور عليها أبداً. دُفنت الجمجمة التي كان في الصدغ الأيسر منها ثقب من رصاصة، في جدّة. هذا التواضع من دولوستالو في السماح لمثل هذا المديح أن يكون من نصيب سي عزيز، أطراه اثنان من أبناء وطنه البارزين على نحو لائق.

جيرفيه ـــ كورتيلمون

Gervais - Courtellement

(الحاج عبد الغفار)

1311هـ ـ 1894م

«وراء الشرق الذي يعرفه الأوروبيون، بعيداً في قلب الجزيرة العربية، تقع مكة مدينة الإسلام المقدسة تطوقها أعماق وأسرار الصحراء، تستلقي في جوف واد موحش، محصورة بين سلسلتي جبال مدببة الذرى قاحلة، كما لو أنَّ الطبيعة قد تآمرت مع العقيدة الإسلامية كي تخبئ أسرارها عن العالم الكافر».

بدأت هذه الفكرة الذكية حول السرّ العميق الذي يحتفظ به الشرق في رعايته تستحوذ على فكر المصور الفرنسي ـ الجزائري ـ جيرفيه كورتيلمون ـ عندما انتهى من زيارة البلدان التي يسهل الوصول إليها. كان قد سافر من طنجة إلى القسطنطينية، وثمرة أسفاره موضوعة أمامه في خمسة مجلدات. وكان تواقاً كي يجعل مكة والمدينة موضوع مجلده السادس.

كان سحر الشرق بالنسبة له بمثابة فرح إنسان عجوز يتذكر أيام

طفولته. يشتاق قدماؤنا للعودة إلى البلدان التي ولدوا فيها، وإلى شعوبها المنمقة ذات المدن الحزينة والمقابر المرحة. خرجت الديانات واللغات وأشرف الأعراق وربما كلّ الإنسانية من الشرق. لكن سكان البلدان التي كان فيها مدّ الحياة في السابق قوياً يمضون حياتهم الآن وكأنّهم في سبات. ومع ذلك فالشرق لم يتغير: السماء الزرقاء والرمال السمراء المصفرة، والجمل، والأعراب المتنقلون الذين لم يفسدهم الاتّصال بالحضارة الغربية، وفي ثيابهم الملونة، وذوو المرونة في الحركة ومعالم الكبرياء.

ظلّ كورتيلمون، الغارق في هذه المشاعر، يحتضن مشروعه لسنوات. وأخيراً جاءته فرصة فريدة لتنفيذه. في 1890، في مدينة الجزائر، كان واسطة لإنقاذ عربي اسمه حاج عقلي من السجن. كانت الكوليرا قد انتشرت في الحجاز وكانت الحكومة الفرنسية قد منعت رعاياها الجزائريين من الذهاب للحج. كان الحاج عقلي قد زار مكة ثماني عشرة مرة. كان من عادته أن يشتري أشياء من هناك ويبيعها لاحقاً في فرنسا ومصر والجزائر. وعندما كان في دمشق انضم إلى القافلة السورية واتّجه نحو مكة متحدياً هذا المنع. عند عودته إلى الجزائر تمّ القبض عليه، ولولا وساطة كورتيلمون مع صديقه مدير الشرطة لكان عانى من الحرمان والذل في السجن. كان هناك حاج أقل حظاً تعرض للعقوبة. لكن الرسائل الحزينة وقصصه التي سردها لدى استعادته الحرية، أقنعت عقلي ـ وهو رجل ذو كبرياء كبير ـ أنه لم يكن ليخرج حياً من هذه التجربة المريرة. لذلك غمره الشعور بالعرفان نحو كورتيلمون، وعندما سمع عن مشروعه في الذهاب إلى مكة، عرض أن يكون دليله.

لكن لسوء الحظ مضت سنتان قبل أن تتم محاولة البدء في الرحلة. كان عقلي قد عانى من شكوى في الكبد وخارت قواه مع مرور الزمن. في تلك الأثناء، ألح أصدقاء كورتيلمون المسلمون عليه بالمغامرة. وكانوا يعلمون أن حبه لهم صادق، وأن مزيداً من المعرفة الوثيقة قد يعزز هذا الحب. تقدّم بطلب إلى وزارة التعليم العام من أجل القيام بمهمة علمية. لكن طلبه رفض بسبب الطبيعة الخطرة للمشروع. لكن الحكومة أعطته جواز سفر تحت اسم عربي وشجعت الرحلة التي قد تجمع معلومات فريدة عن الحجاز منها. وهو أيضاً ـ مثله مثل روش ـ كلف بمهمة خاصة لم يكن قادراً على الكشف عن طبيعتها. لكن تحقيقها الناجح عاد عليه ـ عند عودته ـ برتبة فارس في جوقة الشرف الفرنسية.

وفي يوم 14 يوليو/ تموز 1893، وصل كورتيلمون إلى السويس. كان سيلتقي بعقلي هناك. لكنه لم يستطع العثور عليه. كشفت التحريات أن شخصاً تنطبق عليه الأوصاف، لكن بمظهر جثة إنسان يمشي، شوهد في المدينة. لذلك ذهب ليلاً إلى فندق كان العرب من غرب أفريقيا معتادين على الإقامة فيه. أدخلوه إلى غرفة كبيرة ذات سقف منخفض، باهتة ووسخة، مكتظة بكائنات بشرية، استلقوا بثياب بالية، لكن منعه بواب كثير الشكوك. وبينما كان على وشكّ العودة، صرخ بصوت عال باسم عقلي، وعندئذٍ نهضت امرأة عن الأرض وسألت من نادى باسم أخيها. حاول كورتيلمون عبثاً أن ينتزع منها معلومات عنه. كلّ ما استطاع أخذه كان تصريحاً ـ لا شكّ أنه كان للتضليل ـ أن عقلي قد غادر إلى القاهرة.

حزن كورتيلمون كثيراً وظن أنه لم يعدّ أمامه شيء سوى العودة إلى

بلاده بخفّي حنين. لذلك انطلق بالقطار نحو الإسكندرية. وعند وصوله كانت دهشة كبيرة عندما رأى وجه عقلي النحيل كالموت ينظر إلى داخل النافذة. تمّ تفسير الأمور فوراً: ظن عقلي أنه يموت، ورغب في العودة إلى الجزائر. وأثناء ذلك سمع ببحث كورتيلمون عنه، وخمّن تحرّكاته، كان ينتظر وصول القطار الآتي من السويس يومياً.

أخذ كورتيلمون صديقه فوراً إلى الفندق الرئيس في الإسكندرية. وعندما أبدى مدير الفندق والعاملون فيه بعض التردد في تلبية طلباتهما، انتقلا في اليوم التالي إلى بـ أكثر تواضعاً. تمت استشارة طبيب، وتم إرجاء الرحلة مدّة سنة بناءً على توصيته.

أمضيا الوقت في السفر. في يافا ترافق كورتيلمون مع قراصنة ومهربين، وعاش الحياة العربية وتعرّف بصورة عامة على عاداتها.

في خريف 1894، أبحر الاثنان أخيراً من مدينة، على متن السفينة غلوكوس (Glaucus)، المتجهة مباشرةً إلى جدّة. كانت الرحلة ستمتد أكثر من عشرة أيام وأمضيا كثيراً من الوقت على فراش من خشب. لكن المتعة التي لم تنقطع مع رفاق السفر عوضتهم عن منغصات الرحلة. كانت السفينة «متحفاً لعلم الأعراق البشرية». كان هناك ضابطان تركيان فقط بقيا متحفظين جداً. والمسافرون الآخرون - سواء من مواطني بيروت أو القاهرة أو المدينة أو دمشق أو مصر العليا أو السودان - وحتّى كان هناك بدويان من الحجاز عائدين إلى بلدهما بعد قيادة الجمل المقدس المصرية (حامل الكسوة المقدسة)، جميعهم انسجموا باسم الرفقة. وفي نهاية كلّ يوم، كان كورتيلمون يعترف بأنه متخم من عدد كؤوس الشاي التي يشربها للمجاملة.

ظهرت جبهة مشتركة ضدّ الغرور التركي. كانت التذكيرات أن محمّد كان عربياً وأن السلطان التركي كان بلا قوة، والملاحظات حول وقاحة الأتراك، تنهال على آذان الضابطين التركيين المتعجرفين.

بالإضافة إلى ذلك، سَحَر بدو الحجاز كورتيلمون. فقد كانوا يبدون مثل ملوك المجوس، وقد التحفوا كسوات فضفاضة وتوّجوا رؤوسهم بشرائط مذهبة. كان يرافقهم عبد زنجي يغني في الليل المتأخر أنغام وطنه البربرية. رافقت الفوضى العارمةُ نزولَهم من السفن في جدّة. كان بإمكان عقلي ذي الخبرة أن يتغلب على كلّ الصعوبات بمفرده لكن كورتيلمون ـ الذي بقي في زاوية يحرس الأمتعة ـ أقحم نفسه في مشاكل. أثار مظهره شكوك بعض الجنود الأتراك: أخذوه إلى قسم الشرطة واستجوبوه. كان منظراً حرجاً عندما وصل عقلي بعد عدة دقائق. غضب الضباط الأتراك الذين لم يستطيعوا أن يفهموا لغة كورتيلمون العربية باللهجة الجزائرية، ونفد صبرهم. أفلح عقلي في إعطاء إجابات مقنعة وإزالة الشكوك، ومع ذلك تبعهم الجنود إلى مقر إقامتهم، راقبوهم في الأماكن التالية التي غادروها فيها، واستجوبوهم في الدكاكين. هزّ عقلي رأسه وقرأ في هذه الحادثة نذير شؤم. وأصبحوا في حال من الحيرة، وأمضوا الليلة الأولى في جدّة في حزن شديد.

جعل انبساطُ مدينة جدّة وقحطُها كورتيلمون يشعر بانقباض الصدر. لقد بنيت على سهل رملي منخفض دون أي مرتفع من الأرض. كانت أشجار الشوك الخضرة الوحيدة. «لا شيء يستطيع أن يلطف الانطباع بالموت والعدم الذي يهيمن عليك عندما تصل إلى هذه المدينة من العصر الغابر، هذه الواحة الحجرية المهملة على الساحل القاحل».

لكنه لاحظ بعض البيوت الفخمة والحياة في الشوارع والأسواق. زار المقبرة المسيحية ـ صغيرة ومربّعة ـ يحيط بها سور. عدد من القناصل الأوروبيين أو المسافرين ـ ومعظمهم اغتيلوا ـ مثل هوبر، ينامون هناك نومتهم الأخيرة في الرمال المحرقة.

كانت سمعة عقلي عالية في جدّة وكانت له حلقة واسعة من الأصدقاء. لكن شعبيته لم تحسن من حظوة كورتيلمون. لم يكن يصدر عن الناس سوى القليل من التأدب والتحفظ تجاهه. كان العرب عرقاً مضيافاً، لكنه لم يتلقَّ أي دعوة إلى تناول الطعام. وأخيراً أقنع عقلي ـ وهو الرجل ذو الموارد الكثيرة ـ أحد أصدقائه أن يدعوه إلى بيته. للأسف لم تكن هذه الدعوة إلا نجاحاً جزئياً، فاقترف كورتيلمون كثيراً من الهفوات والأخطاء في الخروج عن الأعراف: سمح للأرز المقلي بالزبدة أن ينزلق من بين أصابعه، كما أنه وجد طعم المرق بالسمك حاراً جداً، فكان يطلب باستمرار من العبد أن يعطيه الماء، بالرغم من أنه لم يكن من العادات الشرب أثناء الطعام. أما عقلي الذي ازدادت سرعة انفعاله مع شكواه، وبّخه بقسوة لدى عودتهما إلى البيت. قال له: «لست ذكياً. ولا تعرف كيف تتصرف على المائدة». ذهب الاثنان للراحة حزينين. وفي وقت متأخر أزعجتهما مقاطعة زائر غير متوقع. كان ذلك الشخص الذي كانا في ضيافته منذ بضع ساعات. طلب إليهما قائلاً: «لا تذهبا إلى مكة». لقد أنشأ الخبز والملح روابط مقدسة. وبالرغم من كلّ عاداته، غادر البيت بعد الغروب كي يعطي هذا التحذير. أكمل قائلاً: «لا تذهبا. إنكما لن تعودا. فرمل الصحراء أصبح أبيضَ من عظام أمثالكما الذين قد ألحوا على دخول مدينتنا المقدسة». «لقد نطقتُ بالشهادة المقدسة». أجاب كورتيلمون: «إن من يضربني سيكون مسلماً سيئاً، وسيعاقبه الله». غادر المضيف ممتعضاً.

رددت مجموعة كورتيلمون من الأصدقاء الجزائريين: «اذهب إلى مكة؛ فكلما تعرفت علينا أكثر، ازداد حبك لنا». امتثل لرغبتهم، ولا بُدَّ أنه شعر الآن شعور ولدٍ كان قد تربى في البيت، لدى دخوله المدرسة للمرة الأولى، ذلك الشعور الذي تختلف حقائقه عن الصورة المثالية التي يرسمها الأصدقاء ذوو النوايا الحسنة رفاق اللعب والكسب، ومعاشر الشباب الذين يتمتعون بالروح المنفتحة الكريمة.

لم تكن لهذا المسيحي المهتدي سمعة حسنة في جدّة. لذلك قرر عقلي أن ينطلق نحو مكة في مساء اليوم التالي. اختير الحمار للرحلة لا الجمل، «ذلك الحيوان الذي خلق على نحوٍ خاص للصحراء، بسبب جدب هذه البلاد التي لا حياة فيها، والعزلة غير المتناهية». ارتديا الإحرام، ومعهما عدد قليل من المرافقين وغادروا المدينة ودخلوا طريقاً يشبه حوض نهر جاف. كانت الجبال التي تشبه البراكين الخامدة يتبع بعضها البعض الآخر بمحاذاة هذا الطريق. «كتل من الصخور، سوداء محروقة، وانزلاقات أرضية فوضوية تبدو كأنها تسدّ الطريق. تكتشف فجأة ـ وأنت تقترب ـ صدعاً ينعطف فيه الطريق. تتبعه فتجد نفسك من جديد في ميدان أسود مستدير وكأنه المصيدة». خيم الليل فجأة وألقت النجوم والكواكب ضوءاً شاحباً حزيناً كانت فيه الأجسام المشؤومة من كلّ جانب لا تميّز بوضوح. والآن أشارت شعلة المصباح الحمراء البعيدة «بظلها الخبيث» إلى وجود مركز جندي تركي على التلال. وبعد ذاك عبروا سهولاً رملية واسعة. طلع القمر، وقابلهم رتل طويل من الجمال، تدوس الأرض بخطوات صامتة، يقودها طيف خيال، تمتزج مع الظلال. ومن جديد أحاطت بهم أنفاق معتمة من الصخور. كان كورتيلمون يفكر «ماذا سيحدث لي غداً؟» شغل تفكيره

بذكريات السفر والوطن، والعائلة والأصدقاء. وفجأة أُعطي نداء التوقف. لفّ مرافقوه أنفسهم بثياب من كتان وناموا كالكتل الجامدة. وعند الفجر استأنفوا المسير، وعند منعطف في الطريق، دخلوا مكة فجأة.

تقدّم كورتيلمون عبر المدينة ومرّ بجانب المسجد حيث كانت الكعبة تنتصب مهيبة أمامه. أخبره دليله أنه كان في مركز الأرض، حيث اختلطت صلوات جميع المسلمين وارتفعت إلى السماء مباشرةً. بعد القيام بالطواف وتقبيل الحجر الأسود، شرب كمية كبيرة من ماء زمزم. انفرجت أسارير دليله: كان هذا الاختبار الأخير. فالماء من البئر المقدسة تخنق المسيحي لو يشربها. وكل هذه الطقوس تتمّ بعد السعي.

أقام كورتيلمون ومرشده على مسافة خمسين ياردة من المسجد. وحوالي المغرب عاد إلى الفناء الواسع. بعد إصغائه إلى أصوات المؤذّن الرخيمة تدعو الناس للصلاة من المآذن على الزوايا، شعر بشيء يشبه النشوة. كان كلّ شيء يستحم في ضوء وردي، وكان الحجاج يدورون بصمت حول الكعبة كالأشباح البيضاء. والأفق يضيق بالجبال التي كانت تطوق المدينة: كان انحدار الجروف الصخرية شاقولياً تقريباً، وكان النور يتلاعب عليها من الشمس التي تميل نحو المغيب. كان وهج وردي يرتجف فوق الصخور. وكان رخام القباب والأروقة ذات الأعمدة في المسجد يلقي أهداباً من الذهب على الأرض. كانت المباني المقدسة كلها تتوهج كالنار. إلا الكعبة، وحدها التي كانت مهيبة في أغطيتها السوداء، لم يمسسها هذا البهاء العابر.

تجمع عشرون ألف شخص لصلاة المساء. كان بطء سجداتهم

الموزون يزيد من جلال المنظر. تلا البهاءَ الذهبي شفقٌ وردي، تحوّل إلى البنفسجي ثمّ الرمادي الحديدي. بعد ذلك خيم الليل على الأشياء الخفية، وفي الظلام برزت خيالات بيضاء وبدأت تدور بصمت حول الكعبة. عاد كورتيلمون إلى مكان إقامته، وقد أنهكه تعب الرحلة والانفعال من الشعائر. فكر في التجارب الغريبة التي مرَّ بها، وبرحلته «غير الواقعية» وبالمدينة الغامضة والخارقة للطبيعة التي وصل إليها بأعجوبة، وبمكان سكنه الخالي من ظروف الحياة الطبيعية، وغاص فيما يشبه السبات الخفي.

بعد وقت قصير اشتدّ مرض عقلي بحيث لم يستطع مغادرة غرفته. لكن كورتيلمون وجد صديقاً طيباً في شخص اسمُه عبد الواحد، وهو عربي من غرب أفريقيا. كانا يقومان بمسيرات طويلة ممتعة معاً، وعن طريق معاشرة هذا الشخص حقق كورتيلمون الهدف من رحلته إلى مكة. بعد مغادرة الشارع الرئيس والمرور في الطرقات الضيقة بعد آخر بيت في الأرض المرتفعة تسلقا الجانب القاحل من جبل أبي قبيس، وهو الجبل الذي يشرف على المسجد. حمل كورتيلمون سجادة صلاة على كتفه، وكانت آلة التصوير مخبأة فيها. كان الموقف حساساً. على قمة هذه التلة كان هناك مزار، والغاية الظاهرية لجميع الحجاج الذين يصعدون هذه التلة كانت التعبد هناك. كان إهمال هذا الواجب سيثير شكوك المرشد: ولإنجاز هذا العمل يجب فرش السجادة، وبذلك تظهر آلة التصوير. وبسرعة البرق أخذ كورتيلمون خمس صور لمناظر من المدينة، كان واحد منها يتضمن الطول الكامل لطيات الوادي المتعرجة. ولحسن الحظ كان انتباه المرشدين وقتئذ مشدوداً نحو جهة أخرى. نزل الاثنان بسرعة من على الجروف واختفيا في الدروب المعتمة.

بدأ كورتيلمون يبرر سلوكه الغريب لصديقه. أوضح له أنه كان مصاباً بمد البصر في إحدى عينيه أكثر من الأخرى، وكانت الآلة التي استعملها آلة بصرية يستعملها لتصحيح بصره. أجاب عبد الواحد أنه رأى مثلها في طنجة، وأنه يعرف طبيعتها على نحو جيد، وحثّ كورتيلمون على تخبئة آلته لئلا يشتبه بهما الآخرون أنّهما جاسوسان سياسيان فيذبحا.

كان عدّ سكان المدينة في أيام كورتيلمون يبلغ 100000 نسمة. كانت المنازل مبنية من حجارة جيدة، ومدعمة بدعامات، ومزينة بمشربيات من خشب هندي وصناعة جيدة. كانت الشوارع مصانة ومضاءة جيداً. كانت المصابيح تُضاء طول الليل، والنفايات تنقل على ظهور الحمير. كانت هذه الإصلاحات بسبب مشاريع خاصة وروح الالتزام المشترك: وليس من عمل بلدية. كان مالك المنازل في لندن سيشعر بغصة حسد لدى سماعه أنه ليس هناك ضرائب أو رسوم في مكة. كانت التجارة على نحو كلي تقريباً بيد الهنود وأبناء يافا. كانت المستوردات في معظمها من البضائع الإنكليزية والهولندية. كانت كتب اللاهوت والتاريخ القديم والطبّ والسحر... الخ. تُجلب سنوياً من الهند. لم يكن هناك أي طباعة في مكة. كانت المطبعة المحلية متوقفة، وعندما كان كورتيلمون يمرّ بجانب المبنى الصامت الذي يحتويها كان يفكر: «هل ستستفيق كلّ هذه الشعوب في يوم من الأيام؟ من يعلم ماذا ستطبع هذه المطابع يوماً ما، هل ستنشب الحرب المقدسة؟».

كان للحي البدوي الأهمية الكبرى بالنسبة له. فهذه «الأشباح السوداء من الماضي» كانت في غير محلّها في مدينة عربية كبرى. كانوا

رجالاً من الصحراء غير المتناهية الأطراف من القفار الميتة والآفاق المحروقة. كانت مشكلة أصل اللغة العربية لا تغادر تفكيره: وأنها كانت واحدة من أقدم اللغات في العالم، أو ربما أقدمها جميعاً. وكان بدوي الحجاز هو الذي يحفظ السرّ المدفون في أضرحة أجداده الحجرية. «سيظلون أمداً طويلاً يمنعوننا من اكتشاف بلاد ملكة سبأ، وإلقاء الضوء على أسرار تلك الحضارة العربية المتميزة التي تبقى مجهولة لنا، على عكس الحضارتين المصرية والآشورية».

إحدى نزهات كورتيلمون قادته إلى مقبرة المعلا (Maala)، حيث يقال إن أم محمّد وأحبَّ زوجاته إليه عائشة مدفونتان فيها، ويحكي لنا من هذه المقبرة قصة ساحرة. كان أمير هندي قد جعل مكة موطناً له، كي يموت هناك ويدفن في الأماكن المقدسة وبذلك يحسّن من فرص دخوله الجنة. لكن صديقاً عالماً أكّد له أنه كان مخطئاً، ونصحه أن يقضي ساعات الظلام في المقبرة اختباراً له. عمل الأمير بالنصيحة وفي منتصف الليل رأى المقبرة تمتلئ بالأشكال الظليلة الضخمة. كانت هذه الأشباح جمالاً عائدة من نهاية الدنيا تحمل على ظهورها أجسام المستحقين الذين ماتوا في بلدان بعيدة، كي يبدلوها بأجسام غير المستحقين الذين لم يقوموا بأي عمل ذي جدارة سوى الموت في المدينة المقدسة. مضى الليل كلّه في التحميل والتفريغ، وقبل الفجر رحلت قافلة الأشباح. أدرك الأمير الهندي كم كانت محاولته ليحتال على الحظ وليكون مكرّماً دون أي استحقاق من دون جدوى.

هناك قصة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه، وهي قصة ابن ملك مغربي أُسر في حرب مع المسيحيين، وأجبر أن يعمل بستانياً. وهناك وقع في

غرام أميرة مسيحية بادلته الحب. وحاول كلّ منهما أن يردّ الآخر عن دينه، ولكنها هي التي رضخت أخيراً. وبعد فترة افتضح حبهما. عانى الأمير من تجريده من رتبته ووضعت السيدة في السجن حيث مرضت وماتت. زارها عشيقها وهو بائس. رغب في أن ينتزع من معصمها سواراً من الفضة الخالصة كان قد أهداه لها، كي يحتفظ للذكرى. وكم كانت دهشته ورعبه كبيرين عندما نبش التراب وفاجأه شكل رجل عجوز ذي لحية بيضاء. وكان بجانبه سبحة من اللؤلؤ الفاخر. ومن دون أن يدري ماذا فعل، التقط السبحة وأعاد ترتيب الأرض وهرب. تجول في عدة بلدان، وأخيراً جاء إلى مكة. وعندما دخل الشارع الرئيس اندفع نحوه شاب يصيح: «من أين جئت بهذه السبحة يا منتهك حرمة القبور؟ لقد كانت لوالدي، وهي وحيدة من نوعها، ودفنت معه في مقبرة المعلا». اجتمع حشد من الناس، ومثل الأمير أمام القاضي وتمّ استجوابه. فأخبر القصة بكلّ مظاهرها الحقيقية. عند ذلك ذهب القاضي والجمهور إلى المقبرة وفتحوا القبر. ويا لله! كانت أشباح الجمال قد فعلت فعلتها. كانت الأميرة تستلقي هناك كعذراء نائمة، وحول معصمها كان السوار الفضي يلمع.

بعد أنْ أنجز عمله، بدأ كورتيلمون يشعر أنَّ الحياة في مكة رتيبة نوعاً ما. لم تكن لديه هموم عائلية، لأنه كان قد سلّم مبلغاً من الـ إلى مرشده كي يتولى مصاريفه. كان يمضي كثيراً من الوقت في الصلاة والنوم، حذروه ألا يتجول في الشوارع كثيراً، أو أن يبدي استغراباً لما يحصل في المدينة. كان من عادته أن ينهض عند الساعة السادسة صباحاً ويتناول فطوراً خفيفاً. وكانت الوجبة الرئيسة عند الحادية عشرة والوجبة الثانية بكمية أقل عند الساعة الثالثة بعد الظهر. كانت عملية الطبخ

بسيطة، وكان الطعام يمكن أن يكون ألذّ مذاقاً لو لم تكن الزبدة مصنوعة من حليب الغنم، فقد كان ذلك يعطي الطعام طعماً دهنياً لا يستسيغه المتذوق الأوروبي. كان الشاي يُشرب في كلّ وقت من النهار. كانت الاستعاضة عن القهوة بالشاي عادة هندية. وكان الزائر إلى الحجاز الذي يراعي الوجبات الاجتماعية بصرامة، يجب أن يمتلك موهبة شرب الشاي الجديرة بالدكتور جونسن.

لم تتزامن زيارة كورتيلمون إلى مكة مع موسم الحج. لذلك كانت ستسنح له فرص أكبر للمراقبة، بالرغم من أن خطر الاشتباه بأنه جاسوس قد يزداد. لكن هذا الخطر نفسه وفر له حجة مضادة: لو أن نواياه كانت سيئة لكان زار الأماكن المقدسة أثناء الحج، ولكان مرّ دون أن يلاحظه أحد بين هذه الحشود من كلّ الأمم.

قبل مغادرة مكة قام كورتيلمون برحلة مع عبد الواحد إلى منى. كانت البيوت في الشارع الوحيد مهجورة، إلا من مرشدَين عبدَين أسودين. لكن بسبب عدم وجود أي خضرة، فقد كان يمكن أن تكون مركز استجمام في جبال البيرنييه. كان يتوقع أن وادي منى ـ مسلخ الحج ـ سيقدم مظهراً مخيفاً، ودهش لأنه لم يكتشف أي أثر لأي عظام حيوانات مذبوحة. فقد حوّلها فعل الرياح جميعاً إلى مسحوق. عزا انتشار الكوليرا في منى إلى كونها آخر الطقوس أكثر من كونها قد انتشرت من جثث الأضحيات. كان الحجاج يصلونها في حالة من الضعف بسبب نقص الاحتياطات الصحية، والمناخ القاتل والتعب والاحتشاد... الخ.

لم يغادر كورتيلمون مكة أخيراً من دون شعور بالارتياح. قبل ذلك

بعدة أيام بادره موظف رسمي بالكلام في الشارع، وفي جدّة أخذوه إلى قسم الشرطة. لكن إجاباته أقنعت مستجوبَه ـ لكن على حساب مشاعر غير سارة أحس بها. لو تمت ملاحقته وتفتيش غرفته واكتشاف آلة التصوير لكانت النتيجة كارثية. ولو أنَّ المسؤولين قرروا إجراء تحريات، لكانوا فعلوا ذلك عندما كان على وشكّ المغادرة. لذلك كانت تجربة مسرة أن يستعيض عن شوارع المدينة المقدسة بالصحراء المكشوفة والحرية.

تمت الرحلة إلى جدّة بعدد قليل فقط من التوقفات في أكواخ القهوة. كانت مغامرات كورتيلمون الرئيسة على الطريق أن وقع سبع مرات عن حماره. ولم تهدئه كلمات مرافقه البدوي الاسترضائية إلا قليلاً: «لا تغضب يا أخي، أنت الذي لا تعرف كيف تركب الحمار». وعندما اقتربا من جدّة، وقع البدوي نفسه عن حماره. فتملكت كورتيلمون نوبة من الضحك طيلة ساعتين. قد تكون هناك عوامل أخرى عملت على زيادة المرح عند رجل غادر لتوه مكة دون أن يصاب بأذى، لكن عقلي الساخط وبخه بشدة للفضيحة التي كان سيحدثها، ولذوقه السيئ.

هرع كورتيلمون في جدّة كي يبرق إلى والدته، وإلى أصدقائه في فرنسا. وبعد ذلك قام بزيارة إلى القنصلية الفرنسية التي قال: «إنها أحى عاطفة في حياته». في أحد الأيام التي أمضاها في جدّة، زار المقبرة المسيحية والتقط صورة لقبر هوبر. لكنه عندما يمم وجهه شطر البيت، اكتشف موظف تركي آلة التصوير. لكن كورتيلمون يعزو السبب في التساهل الذي عولجت منه هذه المسألة إلى أنه كان حسن اللباس، وسمح له بمتابعة طريقه.

كانت رغبة كورتيلمون أن يتابع إلى المدينة. صعد مع عقلي متن سفينة بضائع نمساوية. كان ميناء ينبع مميزاً بصف مسنن على نحو غريب من الجبال التي تطوّق الصحراء خلفها. انزلقت السفينة بين شعاب مرجانية ودخلت الميناء. لكن عندئذ تخلوا عن مشروع دخول المدينة. جعل سوء صحة عقلي من المستحيل تحمّل تعب الرحلة البرية. كانت خيبة أمل كورتيلمون كبيرة: أخبروه أنَّ الجانب الخارجي لأحد الأسوار الذي يشكل أحد تحصينات المدينة كان مغطى بنقوش تعود إلى الحرب بين اليهود والمسيحيين.

انطلقوا بحراً إلى السويس، ومن هناك عاد كورتيلمون إلى مرسيليا. كان الطقس بارداً وماطراً عندما غاص في العالم المزدحم، وكانت لا تزال تطارده رؤى من البلدان شديدة الحرارة والصحراء والجمال والأعراب ذوي العمائم المزينة على نحو بهيج. وبعد ذلك بوقت قصير، ألقى محاضرة حول رحلته في بوردو. كان من بين جمهور الحاضرين ناساً لا يقلون قيمةً عن ليون روش: الذي كان قد يتمتع بشيخوخة كلها صحة ونشاط، وكان لا يزال يمتلك شكلَ واتّزان لاعب رياضي.

ملاحظة:

وصلتني أخبار أن جيرفيه كورتيلمون ـ منذ رحلته إلى مكة قد أصبح مسلماً حقيقياً. وفي أغسطس/آب 1908 زار المدينة بمناسبة افتتاح سكة حديد الحجاز، بصفة مراسل خاص لصحيفة ايلاستراشن (Illustration).

متفرقات

في كتب المؤرخ نيبور نقرأ أن ثلاثة مسيحيين لم تذكر أسماؤهم كانوا في مكة. وصل نيبور إلى اليمن في حوالي نهاية عام 1762. قبل ذلك بسنتين، انطلق بحار إنكليزي إلى مكة مع قافلة صنعاء، في طريقه إلى أوروبا عبر تركيا. وقبل ذلك بعدة سنوات، وصل إنكليزي آخر إلى اليمن من مكة. ونزل سراً في الهند.

سَمع أيضاً عن جراح فرنسي انطلق نحو مكة ليرافق «الأمير حادسجي» بصفته المهنية. وكان قد أُعطي وعداً ألا يتعرض له أحد بسبب ديانته. لكن بعد مسافة معينة أُجبر على إنكار المسيحية كي يتابع رحلته.

في 1815، أُسر توماس كيث، وهو مخبر خصوصي في فرقة الإسكوتلنديين الـ 72 في روزيتا وأجبر على التحوّل إلى الإسلام. أصبح مملوكاً، وبرز ليصبح آغا، ثمّ عين فعلياً حاكماً للمدينة: «وهو أكثر المراكز غرابة» حسب قول السيد هوغارث «الذي وصل إليه اسكتلندي».

مات وهو يحارب الوهابيين بعد عدة سنوات، بعد أنْ تولى إدارة المدينة المقدسة حسبما ذكرت صحيفة التايمز بحذر.

يُشبه كيث دون شكّ الشاب الاسكتلندي المسلم، عثمان الذي ذكره ج. س. باكغنهام. كان هذا في جدّة في 1814، حيث قابل كلاً من بوركهارت وعثمان. يقول عن عثمان إنه مواطن من بيرث (Perth) وطبّال في فرقة اسكتلندية في عهد حملة الجنرال فريزر المأساوية وهزيمته في الإسكندرية. بعد تعيينه عبداً لزعيم من المماليك، ورث ممتلكاته عند وفاته. كانت له عينان لامعتان وبشرة فاتحة وشعر بلون الرمل. كان لا يزال محتفظاً بحبه للوطن وكان يحمل معه إنجيل جيب، لكن محاولاته للتوفيق بين تعاليم الإنجيل والقرآن كانت تثير الضحك. وعندما تناول بوركهارت وعثمان الطعام مع باكنغهام، «كانت الخمرة الممنوعة» موجودة على الطاولة. شرب بوركهارت منها دون تردد، لكن عثمان رفض، ثمّ شارك في كأس واحدة بعد أنْ مازحه زملاؤه المسلمون. بعد ذلك مرض وعزا السبب إلى غضب السماء.

يتميز الكابتن جورج فروستر سادلير بأنه رأى القسم الخارجي على الأقل من المدينة من دون أي إخفاء لدينه أو جنسيته. في عام 1819، ألحق إبراهيم باشا، الابن الأكبر لمحمّد علي باشا بعض الهزائم والخسائر الواضحة بالوهابيين، وأسر زعيمهم عبد الله بن سعود (الكبير). أرسلت شركة الهند الشرقية سادلير في مهمة إلى إبراهيم. كان الغرض تهنئة الباشا على انتصاراته، وعرض مساعدة السفن والرجال البريطانيين في قمع القرصنة في الخليج العربي ومعاقبة الوهابيين. نزل في مسقط، لكنه وجد أن إبراهيم قد غادر إلى داخل البلاد. وعندئذٍ بدأ ما يشبه سباق الخيول عبر الحقول. انتقل إبراهيم من مكان إلى آخر، وتبعه سادلير، ومعه حاشية من الفرس والهنود والبرتغاليين والأرمن. وأخيراً ـ في يوم 7 سبتمبر/ أيلول ـ وجد سادلير طريدته في المدينة. لم

يُسمح لسادلير الاقتراب من المدينة، لكن بأمر من إبراهيم، وجّهوه إلى بئر علي التي تبعد حوالي ثلاثة أميال إلى الغرب. شعر بالإغراء لدخول المدينة أو ملء عينيه منها، لكنه تذكر أنه في بلاد خرافات المسلمين وتعصبهم، فمنعته حكمته من تعريض نفسه للإهانة. عرض عليه مرشده التركي أن يقوده إلى قرب المدينة بالبر، لكنه أشار عليه ألا يفعل، لئلا تزعجه ملاحظات المتعصبين والمتحمسين. ومن الغريب القول إن ثوبه الأوروبي لم يجلب الانتباه، ووصل بئر علي بسلام. اختلس نظرة سريعة من أسوار المدينة ومآذنها في حالتها الموحشة البادية للعيان بطينها وطلائها الأبيض. وكل ما سمعه عن السكان أثر فيه تأثيراً سيئاً. كتب يقول: «يساهم العالم الإسلامي في دعم هؤلاء الشحاذين الكسالى المتعطلين الذين ـ ولو أنّهم أغنياء ـ يدركون أن لهم الحقّ في المباهاة ويعاملون من أحسنوا إليهم باحتقار وازدراء. يقال إنّهم في بيوتهم، ينفقون بسخاء على مأكلهم، بالرغم من أنه يضرب بهم المثل بالجشع». لو أن توماس كيث عاش سنتين أخريين، لكان من الممكن أن يكون هناك لقاء حافل ـ إذا اقتبسنا للمرة الثانية ما كتبته صحيفة التايمز ـ بين المخبِر السابق والصاحب الحازم نوعاً ما، والذي كان مكلفاً بمهمة صاحب الجلالة. غادر سادلير بئر علي إلى ينبع. لقد كان أوّل أوروبي يعبر الجزيرة العربية من البحر إلى البحر.

يخبرنا برتون أنَّ الأوروبي الوحيد والذي زار مكة على حدّ علمه من دون أن يرتد عن دينه ـ كان بيرتولوتشي ـ القنصل السويدي في القاهرة. في طريقه إلى الطائف أقنع سائقي جماله أن يدخلوه متنكراً. وهو يعترف بسذاجة أن خوفه من افتضاح أمره منعه من تدوين المذكرات.

يذكر فون مالتسان، في قائمة الحجاج التي وضعها، شخصاً إنكليزياً يدعى تينت (Tenett)، ذهب إلى مكة في العام 1863، تحت اسم حاج عبد الواحد، وعاش بعد ذلك في الجزائر. لا أستطيع أن أعثر على أي سجل لرحلته.

في الصفحات التي كتبها دوتي غالباً ما نجد إشارات إلى «المدينة الرهيبة». تزامن انطلاقه من دمشق في رحلاته إلى الجزيرة العربية في 1875، مع رحلات الحج السنوية إلى مكة. حصل على إذن بالذهاب معها وصولاً إلى مدائن صالح، حيث كان متجهاً لجمع النقوش والكتابات. وجلب وجود فرنجي اهتماماً غير مرغوب فيه (لأن دوتي لم يقم بأي محاولة للتنكر). صاح أحد الحجاج المتعصبين: «هل هذا هو الشخص الذي سيذهب مع الحاج؟» كما أنَّ أحد المارة وجّه السؤال البارز للذين كانوا يركبون معه: «أنتم الذين تأتون معه ما هذا بالنسبة للحاج؟» وعندما نزلت القافلة في المخيم، نصحوه ألا يخرج من خيمته، لأنه لو فعل ذلك لكان عرضة للتحرش والإزعاج. كان درب الحج حتّى معان يتألف من «عدد كبير من طرقات المواشي التي انخفضت عن مستوى الطريق بسبب دوس الجمال»، لكن بعد معان عندما كانوا يسافرون «فوق حافة الجزيرة العربية» لم يبق هناك أي مظهر لطريق عليه دوس أقدام. كلّ ما كان هناك «متسع بحري»، وكانوا يتتبعون مسارهم من النقاط البارزة المعالم. وعندئذٍ سمع «صوتاً يجلب الكارثة» أمامه، يقول إنه قد تمّ اكتشاف مسيحي في القافلة ويجب «تدبر أمره». وعندما سأل عن الوقائع لم يعطوه أي جواب ولم يسمع أي شيء آخر.

أثناء رحلاته سمع قصة المسيحي الذي ضيع طريقه إلى خيبر،

على بعد ثمانين ميلاً إلى الشمال الشرقي من المدينة، وفجأة اكتشف أنه دخل المدينة المقدسة. تمّ اعتقاله في الشوارع، وسِيق إلى الباشا، وصدر الأمر بإرساله إلى ينبع برفقة جنود. وحالما عبروا البوابات نادى أحد الجنود على المسيحي كي ينكر دينه. رفض فقتل رمياً بالرصاص. سجن مقترف هذا العمل وأحيلت القضية إلى القسطنطينية لأخذ القرار من السلطان. لكن النتيجة كانت مجهولة.

نقرأ أيضاً عن أجنبي في المدينة أسرَّ لعربي أنه مسيحي. «حسناً، لا تخبر أحداً بذلك كان الجواب. «واهتم بنفسك. أنا لن أفضح أمرك، والآن ليكن الله معك».

تصادف مرةً أن كان دوتي في مركز متوسط للحج، عندما وصلت قافلة دمشق إلى طريقها إلى مكة. في اليوم التالي كان واقفاً في «المنزل» كي يراقب مغادرتها، عندما بادره حاج بالقول: «إن تحدثت باللغة الفرنسية، هل ستفهمني؟» «سأفهم، لكن من أي بلد أنت؟». شاهد وجه أجنبي شاحب بلحية كستنائية اللون. أجاب الرجل: «أنا أيضاً إيطالي من مواطن بييدمون ـ تورين». «وما الذي أتى بك إلى هنا في هذه الرحلة المحفوفة بالأخطار؟ يا إلهي! قد تقطع رقبتك بينهم. هل أنت مسلم». «نعم» «إذن تعترف أنه لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله. لكنهم لن يسمعونني ألفظها». كان اسم الإيطالي فرانسيسكو فيراري، وكان ينوي نشر وصف لرحلاته لدى عودته إلى أوروبا. وعندما عاد دوتي من جديد إلى «البلدان المسالمة» «في دورة النجوم الملائمة»، ترك رسالة إلى قنصليته في سوريا وسأل عنه في إيطاليا دون جدوى. يقول: «ظننت أنَّ ذلك من واجبي، إن عدم الأمان الذي يحوم حول رؤوس أي أشخاص أجانب يغامرون بدخول مكة رهيب جداً!».

لكن أكثر حكايات دوتي سحراً أخبره إياها حارس مركز جمارك سابق على متن السفن في جدّة. هذا العربي الذي كان اسمه أمان رأى مرة بين ركاب باخرة «نصرانياً»، جالساً «يبكي، ويبكي ولا يستطيع أصدقاؤه تهدئته». سأل عن السبب. فأجاب الغريب «ويلي! لقد طلبت من الله أن يمكّنني من زيارة مدينة بيته الحرام وأن أصبح مسلماً. أليست مكة هناك؟ ساعدوني أيها المسلمون الصالحون، كي أستطيع أن أصل إلى هناك وأصلي في الأماكن المقدسة ـ لكن هؤلاء. . . يمنعونني». تحت غطاء الليل دبر أمان أن ينزل الرجل في زورق صغير ويركب حماراً إلى مكة. ومع فجر اليوم التالي دخل «الفرنجي» المدينة المقدسة. كان الناس القلائل في الشوارع ينظرون إليه بجد ويسألون: «أيها السيد ما الذي جلبك إلى هنا لأنك، على ما يظهر، نصراني؟ كان يجيب: «كنت نصرانياً وقد منَّ عليَّ الله أن أدخل هذه المدينة المقدسة. وأصبح مسلماً!» فانفجروا في صخب مرح وأخذوه إلى بيوتهم ليقوموا بطقوس إدخاله الدين الجديد. بعد سنوات كان هذا «المهتدي أو المسافر» يعيش في مكة أو في المدينة. جمع له عرّابوه المال وأصبح تاجراً. ينهي دوتي بالقول: «من يستطيع تفسير هذه الحكاية الغريبة وأمثالها التي يمكن أن نسمعها مكررة بينهم؟»».

حدث الفصل الأخير في دراما دوتي أثناء رحلاته في الجزيرة العربية ـ والتي دامت سنتين ـ في أقرب نقطة يحقّ للمسيحي الاقتراب منها. انطلق من القصيم مع قافلة حج كانت ذاهبة إلى مكة. وعندما أصبحت القافلة على مسافة محطة واحدة من المدينة المقدسة، برزت المشكلة: من سيكون دليل دوتي إلى الطائف أو جدّة؟ وبالمصادفة التقوا بعض سائقي الجمال من الطائف، بدؤوا يتفاوضون معهم. عرض

أحدهم من دون تفكير أن يقود دوتي إلى الطائف عبر مكة. لكنه سحب كلامه فجأة وقال بنبرة فيها حماسة غريبة: «هذا الشخص لا يدخل مكة». وهكذا انسحب سائق الجمل. ورفض آخرُ اصطحابه إلى جدّة. ووجد نفسه على وشكّ أن يكون وحيداً في هذا «الممر الخطر». يكتب قائلاً: «عليّ الآن أن أمر في منطقة ليس هناك من ملجأ للغريب في شريعتها المتشددة. أغلق شعبها طرق الأرض العامة؟ وحيث تعتبر أي جريمة يقترفونها بالمقارنة مع اقتراف نصراني لها جريمةً واحد من شعب الله». وصلوا «أيم الزيما» «Aym ez Zeima»، والحدود، وهناك وجدوا أخيراً دليلاً في مقهى: «زنجي مهيب»، وبعد إتمام الاتّفاقية نهض الزنجي وأخذ دوتي من يده. لكن كان الوقت قد فات. فقد انتشرت أنباءٌ تقول إن مسيحياً كان موجوداً في الجوار. وصل شريف هائج ومعه «سيف مشرع» وأخذ يشير به إلى رقبة دوتي. تجمع حشد من سائقي الجمال المتأخرين إلى مكة، وكانوا يرتدون سترات طويلة خشنة زرقاء، في صف أمامه ليروا ما سيحدث. تابع رفاقه من القافلة طريقهم وتركوه لقدره. لكن ثبات دوتي أصاب الشريف بالرعب. وحاول الأشخاص الأكثر اعتدالاً بين المتفرجين أن يردوه عن نواياه بالقتل. صرخوا قائلين: «تذكر أن جدّة قصفت»، وكان ذلك بسبب إراقة دم بعض من مواطني هذا الغريب. انتبه لما أنت فاعل». قرروا قيادته إلى الطائف كي يحاكمه شريف مكة. أعاد الشريف المهتاج سيفه إلى غمده، وعند أقل استفزاز كان يسحبه من جديد، أو ينفجر بالسباب واللعنات ويهزّ قبضته في وجه المسيحي. جاء أيضاً بعض «الشباب من تلك المنطقة ليشاهدوا النصراني، كما لو كان وحشاً خطيراً وقع في الفخ». قبل الوصول إلى الطائف، جردوا دوتي من ماله وأمتعته بما في ذلك

مسدسه، وضربوه على رقبته بالعصا الخاصة بقيادة الجمال. لكن حالما أصبحوا في الطائف، كاد نصيبه أنْ يكون الشنق الذي كانوا يؤكّدون له أنه ينتظره، ينتقل إلى مهاجميه. استقبله الشريف الطيب بجميع علامات الاحترام واللطف. أعيدت له أمتعته، وأعطوه ثياباً وطعاماً وأرسلوا معه مرافقة آمنة إلى جدّة.

أما تشارلز هوبر ـ المشهور بعلاقته بحجر تيما، فقد اقترب من مكة إلى مكان أقرب مما وصل دوتي. وأثناء عودته من حائل، في يونيو/ حزيران 1884، اشترى الحجر وانفصل عن أوتينغ. وصل إلى الصل (El - Sel) ولاقى الصعوبة نفسها في تأمين مرشد إلى جدّة. لم يكن أحد يجرؤ على مرافقته «خوفاً من الله». كان الأعراب ينظرون إليه نظرات تنذر بالشرّ، وفكر بإرسال خادمه إلى مكة ليبرق إلى القنصل الفرنسي في جدّة طالباً مرافقة. لكنه في العتيبة عثر على دليل. لكن ما إن بدأ رحلته مع رفاقه حتّى ألقت مجموعة من ثلاثة عشر رجلاً القبض عليهم، وهم نوع من «حرس مدني». لقد شكّوا أنّهم لصوص لم يريدوا المرور قرب مكة. وكانوا سيؤخذون إلى هنا ويسلمون إلى العدالة. عند الساعة 11.30 مساءً، وصلوا الضواحي. كانت الخيمة قد نُصبت وأرسل هوبر اثنين من رجاله إلى السلطات ليقدم تفسيراً. وبعد فترة الانتظار الممل عادوا ولم ينجزوا أي شيء بسبب تأخر الوقت. في اليوم التالي أرسل خادمه محمّد ومعه رسالة إلى الشريف، يطلب مرافقة إلى جدّة. في تلك الأثناء لاحظ كلّ ما استطاع ملاحظته. لم يستطع مشاهدة أي مبنى يعود للمدينة. ليس ذلك مدهشاً لأن كثيراً من المسافرين لاحظوا عزلتها، والفجائية التي يدخلون فيها شوارعها. اقتصر فضوله على محيطها، وتأثر كثيراً ببشاعته. كانت الجبال قاحلة وذات ظلال

رتيبة: خليط من ألوان صفراء وبنية شاحبة ورمادية باهتة. صعد واحدة من هذه التلال ورأى من بعيد محمّداً عائداً ومعه جندي بلباس أبيض. صرف هذا الرجل مجموعات الناس الفضوليين الذين جاؤوا من المدينة كي يشاهدوا على النصراني. جلب محمّد الأخبار الجيدة بأنه أفشل حجج من اتهموه، وكانت المرافقة التي رغبها إلى جدّة على وشكّ الوصول.

وأخيراً يمكنني أن أذكر حكايةً قصها عليّ دليل أعرابي بينما كنت مسافراً في الشرق. ذكرت مجموعة من الحجاج بين جدّة ومكة، أن واحداً من مجموعتهم استأنف سيره ـ بعد توقف ـ بقدمه اليمنى. كان من عادة العرب أن يفعلوا ذلك بالقدم اليسرى. وكشف الفحص أنه مسيحي، لكن لأنه لم يدخل أبداً ضواحي المدينة المقدسة، فقد حكم عليه بالضرب على أسفل القدمين. أعيته قدماه المتورمتان والمرضوضتان عن بذل أي جهد إضافي، ومات في الصحراء.

ملاحظة:

في 1882، أدّى الدكتور مورسلي ـ وهو فرنسي مقيم في الجزائر ـ شعائر الحج وهو جدير بالذكر كأوروبي رأى مكة، لكنه كان متحوّلاً إلى الإسلام على الوجه الأكمل.

سكة حديد الحجاز

The Hejaz Railway

وخاتمة

في أغسطس/آب 1908م ـ 1326هـ جاءت أخبار أن سكة حديد الحجاز قد وصلت إلى المدينة وفي غضون سنتين أخريين سنراها في مكة. نقطة انطلاقها الاسمية دمشق. ولكن عندما يتمّ القسم الأخير من سكة حديد بغداد عبر جبال طوروس، سيكون من الممكن أخذ القطار من القسطنطينية إلى مكة. وهكذا ستكون هناك رابطة بين عاصمتي السلطان التركية الزمنية والروحية.

بدأت مناقشة فكرة سكة حديد الحجاز في إبريل/نيسان 1900، وبدأ العمل فيها بعد عدة أشهر. ساهم السلطان ـ بصفته خليفة المسلمين ـ بمبلغ 50000 ليرة تركية وأصدر مناشدة لجميع أبناء دينه في كلّ أنحاء العالم. قوبل المشروع بالحماسة المنقطعة النظير وتدفقت الأموال. وبالرغم من الفساد العثماني الذي يضرب به المثل، فإنه لم يهدر أي قرش مما تمّ التبرع به لسكة الحديد في أي شيء آخر غير المشروع. وبتوجيه من المهندس الألماني ميسنر باشا (Meissner Pasha)، سار العمل قدماً بسرعة استثنائية. تمّ استخدام عسكريين على

الخطّ، وبالرغم من صعوبات قياس الجروف الصخرية الرملية، ومد أميال من الخطوط عبر القفار غير المأهولة التي كنستها الرياح العاصفة، فقد سُجّل رقم قياسي في سرعة الإنشاء. انتهت مهمة ميسنر باشا عند مدائن صالح، حدود الحجاز. كان من المفضل أن يقوم مسلم بالعمل الباقي. وطور العمل أُختر بيه (ukhtar Bey). أقيم الاحتفال الرسمي في المدينة وحضره كثير من شخصيات الإسلام المميزين. وأضيء قبر النبي بهذه المناسبة بالنور الكهربائي. ظهر وصف للاحتفالات في جريدة التايمز من مراسلها الخاص. ومن الجدير بالملاحظة أنَّ البرقية أرسلت من مركز بريد المدينة باللغة الإنكليزية.

وهكذا لن تمر سوى عدة سنوات قبل أن يُسمع هدير القاطرة في الكعبة، طبقاً لما جاء في صحيفة التايمز. ومع اتّصال المدن المقدسة الإسلامية بمراكز العالم الأكثر حيوية، كان لا بُدَّ أن يصبح شيء من أسرارها متداولاً في العالم. وعندما يمدّ الخطّ الفرعي بين مكة وجدة ـ وهو المشروع الذي تمت مناقشته على نحو متكرر في أيام هورغرونييه ـ فإن الرحلة بأكملها ستكون ممكنة بالقطار أو الباخرة. عندئذ ستختفي القافلة. ولو تطفل مسيحي من جديد فإنه لن يطلب منه أن يكرر تجربة كتجربة برتون الموحشة من المدينة إلى مكة.

بالتزامن مع افتتاح سكة الحديد، جاءت أخبار التغييرات السياسية الكبرى في تركيا. وصاح أحد الخطباء المصريين في الاحتفالات: «إن النبي لم يسمح لسكة الحديد بالوصول إلى المدينة حتّى منح الخليفة دستوراً لشعبه».

وسواء أحدث تفكيك للعرى الاستبدادية في المستقبل القريب أم

لم يحدث، فإن سكة الحديد الحجاز كانت قاعدة استراتيجية ذات أهمية من الدرجة الأولى لتركيا. عن طريق هذه السكة الحديدية ستكون تركيا قادرة أن تغدق سيلاً لا ينقطع من القوات إلى الجزيرة العربية. حتّى ذلك الوقت كان إرسال الرجال والمؤن إلى جدّة يتمّ بالبحر. وفي أكثر من مرة أسكت تهديدٌ بحصار ذلك المرفأ صوتَ السلطان في مجموعة الدول الأوروبية. إن إزالة مثل هذه النقطة الهشة قد تسهّل الإقامة في الجزيرة العربية وقد تؤدي إلى فتح تلك البلاد للأوروبيين. قد تكون الفقرة التالية المقتبسة من صحيفة معاصرة ظلاً مفرطاً في التفاؤل: «طالما أنَّ النور الكهربائي يتلألأ فوق قبر النبي، فإننا نأمل في يوم من الأيام أن نرى بأم أعيننا مدن المسلمين المقدسة». على كلّ حال دعونا نصلي كي نرى هذه الأمنية تتحقق.

إذا كانت الأمور كذلك، وإذا تدفق السياح إلى مكة، والمرضى للاستفادة من مناخها الجاف، وإذا انتصبت الفنادق في الحيّ الأوروبي، فإن المسافر، عندما يرى من إطار نافذة مركبته صورة للأراضي العربية المخيفة، فإنه سيتأمل ملياً نوعية أولئك الرجال الذين ساروا في هذه الدروب الخطيرة للمرة الأولى. من بين الأفكار التي تتزاحم في ذهنه، سيتذكر الفئة القليلة من المسيحيين الذين سعيت لسرد حكاياتهم، والذين لم تبتعد تجاربهم كلها عن «التماس مع حافة الرعب». وسيوافق أنَّ المرء يجب أن يكون له إما مزاج فيناتي المتقلب أو ذكاء كين الحاضر وخفة روحه، أو سأم من الحياة كالذي جعل روش يحتقر الخطر. أو أن يكون مضيفاً بنفسه كبرتون وألا يستسلم في النضال مع قوات الطبيعة، ومع تلك الكراهية العرقية التي تذكيها الديانة ألا وهي التعصب.

من الممكن تقسيم الحجاج الأوروبيين إلى مكة إلى مجموعات ثلاث. يأتي في البدء أشخاص من بارتيما إلى بيتس حصراً، وقد شبهتهم بمجموعة من المناوشات الخفيفة. يليهم مريدو العلم: باديا، سيتزن، بوركهارت وهورغرونييه. وفي صف موازٍ يتقدم الذين أجبرهم حبّ المغامرة أو الفضول: فون مالتسان، بيكنل، كين وكورتيلمون. ينتمي برتون إلى كلتا المجموعتين الأخيرتين. وينتمي فالين إلى الأولى إلا أنه مرّ بأيام عصيبة، ومن الصعب تصنيف روش. من الصعب جداً على خيال معظمنا أن نجد مجموعة أخرى مثل هذه المجموعة المتغايرة الخواص من الرجال الذين كرسوا حياتهم لنظرية واحدة. هناك بون شاسع بين المتواضع بيتس وباديا الفخم، بين بوركهارت العلمي وكورتيلمون الشاعري، بين هورغرونييه الموضوعي وروش كاتب قصة حياته الذاتية، بين وايلد المغمور وبرتون المشهور عالمياً. يمكن متابعة هذه التناقضات في السجلات المكتوبة الباقية: بين تجميع بوركهارت المنهجي للوقائع وسرد كين المرح. لكن يكفي أن يتوحد أفراد هذه المجموعة المختارة، بالرغم من اختلاف زمانهم ومكانهم، وهدفهم ومزاجهم، برباط واحد هو المغامرة الغريبة.

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

ت

ث

ج

و

ي

فهرس الأماكن والبلدان

ت

ج

ك

ل

م

ن

هـ

فهرس القبائل والجماعات

ي